

مهرجان القراءة للجميع

المصريات

مكتبة

الأسرة

1999

محمد علي وأولاده

جمال بدوي

قصر الكائنات
ملك الأساطير والخيال
ومعنى ركني طين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٣

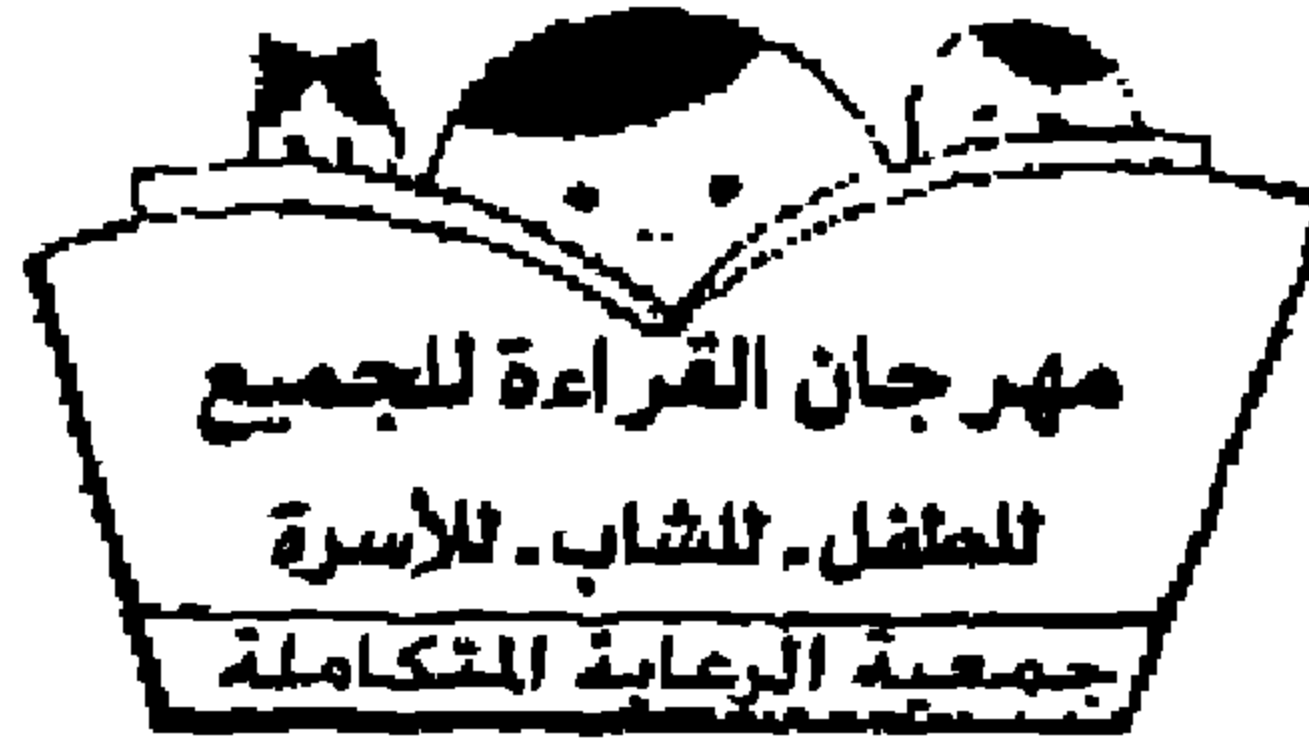
أسرة أ.د/رمزي حكي
القاهرة

محمد علي وأولاده

محمد على وأولاده

بناة مصر الحديثة

جمال بدوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

محمد علي وأولاده

جمال بدوي

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا
صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

محمد على فى معيار التاريخ

لا خلاف بين المؤرخين على أن مصر الحديثة ولدت مع مطلع القرن التاسع عشر، ولكنهم يختلفون حول مسببات هذه الولادة.. بعضهم يعزوها إلى الحملة الفرنسية التى جاءت عام ١٧٩٨ ورحلت فى عام ١٨٠١م. وحجتهم فى ذلك أن الحملة أيقظت مصر من سباتها، وختمت على مرحلة طويلة من التدهور والتخلف والجمود، وأنها غرست فى مصر بذور النهضة التى ازدهرت فيما بعد، ووضعت البلاد على أعتاب العصر الحديث.

وهذا القول فيه نظر.. ذلك أن مدة إقامة الحملة فى مصر لم تتجاوز ثلاث سنوات وبضع شهور، وهى فترة قصيرة لاتكفى لبناء نهضة أو حتى إرساء قواعد الحداثة فى مجتمع شرقى يخضع لمؤثرات تقليدية قوية، ثم إن مناخ التوتر الذى ساد أيام الحملة لم يمكنها من زرع أفكارها الحضارية، فالمؤثرات الحضارية لاتبدأ عملها إلا بعد أن تكف الحروب وتهدأ المعارك، وهو ما لم يحدث للفرنسيين، فمذ وطأت أقدامهم أرض مصر، لاقوا مقاومة عنيفة شملت العاصمة وامتدت إلى

الدلتا والصعيد، الأمر الذي جعل بقاء الفرنسيين في مصر عذابا مقيما
لم احتملوه في بؤسها، إلى أن كثر منهم تاركين في نفوس المصريين أسوأ
الذكريات رمزي زكي بطرس

إلا أن هذا التقويم لأثر الحملة الفرنسية، لا يمنعنا من الاعتراف
بالإنجاز الثقافي الذي تحقق على أيدي الفرنسيين في أمرين هامين:
أولهما تأليف كتاب (وصف مصر) الذي وضع فيه علماء الحملة
خلاصة بحوثهم عن كافة الأوضاع في مصر، فكان هذا الكتاب -
ولا يزال - نقطة البداية لكل من يتصدى للكتابة عن مصر في تاريخها
الوسيط والحديث، وهو ما يراه عميد مؤرخي مصر الحديثة محمد شفيق
غريال، ومادعاه للقول بأن هذا المؤلف العظيم يظل مرجعا هاما بما
يحتويه من معلومات وبحوث، برغم أن الكشف الأثري والبحوث
التاريخية قد غيرت أو عدلت مما كتبه علماء الحملة.

أما الأثر الثقافي الثاني للحملة الفرنسية فهو فك أسرار اللغة المصرية
القديمة بعد اكتشاف حجر رشيد، مما أتاح للعالم كله أن يعرف تاريخ
مصر منذ عصرها الفرعوني بعد أن كان لغزا مغلقا على المصريين
أنفسهم، وبفضل هذا الجهد الذي بذله «شمبليون» انجلت أمام العلماء
والباحثين في الجامعات الأوربية معالم التاريخ المصري، وعرف العالم
موقع الريادة للحضارة المصرية التي تمثل حجر الأساس في البناء
الحضاري العالمي.

باستثناء هذين العاملين الجليلين، لم تخلف الحملة الفرنسية أثرا كبيرا
من الحياة المصرية سواء في المجال الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي،

فالمطبعة العربية التي جاء بها «بونابرت» لطبع منشوراته وصحفه عاد بها «مينو» ضمن مخلفات الجيش ولم تعرف مصر المطبعة إلا في سنة ١٨٢٨ م. وهي المطبعة «الأميرية» التي جلبها محمد علي لطبع الوقائع المصرية، وأما «الدواوين» التي اصطنعها بونابرت بقصد تغيير شكل العلاقة بين السلطة الفرنسية الحاكمة، والشعب، فإن المصريين لم يتقبلوا هذا الدواء الأجنبي من حاكم أجنبي لا يمكن أن يضمن لهم المصلحة، برغم الشعارات الزائفة عن كونه مسلماً يحب الإسلام والمسلمين.

ولو دققنا في طبيعة السنوات الأربع التي تلت الحملة الفرنسية، لن نجد أثراً واحداً يدل على تغلغل الأفكار الأوربية بين المصريين، ولن نسمع عن فولتير أوروسو أو موليير أو نظم الانتخابات والعقد الإجتماعي وإرادة الأمة (...) إلا بعد أن يعود الشيخ رفاعة الطهطاوى من رحلته الميمونة إلى باريس في عام ١٨٣١ م أى بعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال من رحيل الحملة، وكأن لم تكن السنوات التي عاشها الفرنسيون في مصر، سوى سحابة صيف.. انقشعت... وعادت مصر بعدها مسرحاً للفوضى والصراع بين القوى الغارية: العثمانية والمملوكية.. وكلاهما يسعى لاستعادة نفوذه، ثم دخلت إنجلترا حلبة الصراع لتحل محل فرنسا، وقام المماليك بدور العملاء لتمهيد الطريق أمام الإنجليز لاحتلال مصر انتقاماً من الفرنسيين، ولكن الوطنية المصرية الوليدة نهضت لتحمل مسئوليتها الجديدة، وتتصدى لحملة «فريزر» في سنة ١٨٠٧، وتلقن الإنجليز في رشيد والحماد درساً قاسياً لم يسلموا من لسعته حتى تحقق لهم احتلال مصر في عام ١٨٨٢ بطلب رسمي من الخديو الخائن «توفيق».

ظهور العنصر الوطنى المصرى

● ● ونعود إلى فترة تواجد الحملة الفرنسية، لنعترف بفضلها - دون أن نقصد - فى ولادة هذا العنصر الجديد الذى ظهر على الساحة المصرية لينافس بقية العناصر المتصارعة التى كانت تحتكر التحكم فى مصير البلاد. وأعنى به العنصر «الوطنى المصرى» الذى برز خلال المقاومة الباسلة التى قام بها المصريون ضد الفرنسيين، وهو عنصر لم يكن له وجود قبل هذا التاريخ، ولكنه ولد بعد أن شعر المصريون بالفجيعة فى النظام العثمانى والمملوكى واتضح لهم عجزه الفاضح عن الدفاع عن البلاد وهى تواجه احتلالا عسكريا أجنبيا.. وتوالى هزائم الجيش المملوكى وهربت قلوبه إلى الصعيد وعلى رأسهم «كذاب الزفة» مراد بك الذى كان يقسم برأس أجداده أنه سيسحق الفرنسيين كما يكسر حبات الفستق، وأما شريكة فى الحكم - إبراهيم بك - فقد جمع غلماناه ومماليكه وجواريه، ومعهم الوالى العثمانى، وأطلق ساقيه للريح نحو سوريا.. وتركوا الشعب المصرى - وحده - يواجه مصيره بنفسه - وأثبت المصريون أنهم رجال قادرين على التصدى للعسكرية الفرنسية رغم فارق التسليح والتدريب، شعر المصريون - لأول مرة منذ قرون - أنهم يدافعون عن «وطن» يتعرض للاحتلال من جانب دولة أوربية غاشمة.. وآلت الزعامة الشعبية إلى مشايخ الأزهر وعلى رأسهم «عمر مكرم».. واندلعت ثورة القاهرة الكبرى فى أكتوبر ١٧٩٨ وسقط جنرالات الجيش الفرنسى تحت وابل الطوب والشوم وغطيان الحل ورصاص البنادق المتواضعة وكانت هى كل أسلحة أهل القاهرة.. وأوشكت الثورة أن تطبق على الحملة كلها، لولا المدافع التى نصبها نابليون على تلال

المقطم لتلك البيوت والأزهر الذى تحصن الناس بداخله، فأمر بونايرت خياله باقتحام المسجد وقتل من فيه، واستباحة حرمة.. وتمزيق مصاحفه وكتبه.. وجعلوا من المحراب مربطاً للخيول ومرحاضاً يتبولون فيه (١١)

● أين كان الأمراء المماليك فى هذه الأيام العvisية؟

● وأين كان السلطان العثمانى الذى زعم أنه حامى حمى المسلمين؟

كلهم التزموا الصمت.. ومن خلال هذا الصمت ولدت الوطنية المصرية بطريقة تلقائية، ودون ترتيب أو تنظيم أو توجيه.. نعم.. كان شيوخ الأزهر يحركون أهل القاهرة.. ولكن.. من الذى كان يحرك أهل الريف والصعيد فى المدن والقرى والجوع والكفور؟؟ ومن الذى كان ينظم هذه الجموع فتخرج من قراها لتتقضى على جحافل الفرنسيين فى كل مكان يتواجدون فيه.. وفى كل طريق يمرون به؟؟

● ● الجواب: لا أحد.. وإنما هو الحس القومى المكبوت والجريح. انطلق من عقاله ليدفع بالمصريين إلى ميادين التضحية والشرف والجسارة دون انتظار لتعليمات أو توجيهات من أحد، وتدفق الشعور بالمسئولية كالشلال يكتسح فى طريقة حاجز الخوف وحسابات القوى، وكان ما حدث فى تلك الأيام المجيدة ثورة وطنية جارفة، ولم تكن «هوجة» قام بها المسلمون «المتزمتون» فى القاهرة احتجاجاً على تبذل الفرنسيين وخروج نسائهم متبرجات، كما يقول الدكتور حسين فوزى فى «السندباد» (١١) وإذا كان الأمر كما يقول، فهل كان هناك فرنسيون عابثون وفرنسيات متبرجات فى القرى والجوع؟ أم أنها كانت ثورة

عارمة اجتاحت كل المصريين احتجاجا على إنتهاك حرمة بلادهم (١١) وليس أدل على ذلك من تنامي الشعور بالثقة بالنفس حتى بعد رحيل الحملة، فقد اشتد تيار الوطنية المصرية حتى فرض نفسه على الأحداث التي شهدتها البلاد طوال السنوات الأربع التالية، وعندما حاولت العناصر الغارية أن تستعيد نفوذها وجدت العنصر المصرى ماثلا، ليؤكد حقه فى اختيار الحاكم وبينما عملية الاختيار فى مخاضها الأخير، إذا بالحركة الوطنية تقع فى إبهام تاريخى عندما صعد الزعيم عمر مكرم إلى القلعة يوم ١٣ مايو ١٨٠٥ ليضع مقاليد الحكم على طبق من فضة ويقدمه هدية ثمينة إلى الضابط الألبانى الأصل، العثمانلى الهوية محمد على. الذى جاء ضمن المراكب العثمانية لحمل جنود الحملة الفرنسية إلى بلادهم، وتقبل محمد على الهدية بعد أن أقسم على المصحف بأن لا يقطع أمرا دون مشورة العلماء، ولا يرتكب شيئا من المظالم، ولا يفرض ضريبة فيها إجحاف على المصريين (١١)

استبعاد الزعامة المصرية

● ● لماذا فعل عمر مكرم هذه الفعلة المحيرة؟ ولماذا أحجمت الحركة الوطنية الوليدة عن تنصيب عمر مكرم نفسه، وكان يتمتع بكل مؤهلات المنصب الرفيع من حيث الثقافة والعلم والجدارة والنسب الشريف؟

● هذه إشكالية تاريخية تعددت فيها التفاسير..

فمن قائل أن تقاليد العصر العثمانى لم تكن لتسمح لأى عنصر - خارج الدائرة العثمانلية - بتولى منصب الولاية .. كانت السلطنة، فى

ذروة نزعتها الطورانية، ترى قصر المناصب الرفيعة على الترك ومن يلوذ بهم من العناصر السلافية والبلغارية والبوسنية والمقدونية والمورالية.. أما العنصر العربي والمصرى، فمحال أن يشغل منصبا قياديا (١١)

وبعض الباحثين يلقون باللائمة على مشايخ الأزهر الذين كانت تتحكم فيهم عقدة الغيرة والحقْد على الزعيم عمر مكرم، فلم يرتفعوا إلى المستوى الخلقى القويم فيختاروه حاكماً على مصر.. وكان «عمر» نفسه يعرف هذه المشاعر الدفينة، ودفعته فضيلة إنكار الذات إلى الامتناع عن طلب الولاية، حتى يكون جهاده خالصاً لوجه الله والوطن.

ومن قائل أن المصريين أنفسهم - تحت تأثير ولعهم بالأجنبي وكراهة ابن البلد - لم يتحمسوا لتصيب عمر مكرم، وأن هذا المرض العضال القديم قد استحكم في أخلاقهم، وأضعف ثقتهم في أنفسهم، ولم يتصوروا أن يحكمهم إلا مستبد ينتمى إلى جنس الترك، ولو كان يتصف بالعنف والفظاظة (١٢)

وأثبتت الحوادث فيما بعد، أن معظم هذه التفسيرات كان صحيحاً.. فبعد تولية محمد على، وانفراده بالحكم، ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم على احترامها (....) كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم يلغيه إلى دمياط وطنطا، تنفيذاً لتعليمات «مكيافيللى» التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم (١٣) ووجد محمد على تشجيعاً وتأييداً - بل تحريضاً - من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم، مقابل إنعامات رخيصة أغدقها عليهم، ثم استردها منهم

بعد أن استخدمهم فى التآمر على زعيمهم، وعندما ذهبوا إليه محتجين على إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوى أقذع العبارات.. وهى نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه.. ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوّثت وفسدت (١١).

وعندما تبحث فى تاريخ الجبرتى عن سر إبعاد الزعيم عمر مكرم عن الحكم، لاتجد جوابا واضحا، رغم أنه كان شاهد عيان على العصر كله، وإنما تجد ارتياحا عند الجبرتى لإبعاد الزعيم عن الحياة السياسية كلها بعد انقلاب محمد على عليه، ولأن الجبرتى كان ينقم على محمد على إلغاء الامتيازات التى كان الجبرتى يتمتع ببعضها، فقد انسحبت هذه النقمة على الزعيم عمر مكرم لأنه، فى رأيه، سبب البلوى التى جاءت بهذا الجندى الألبانى إلى قمة الحكم، فلما وقع عمر مكرم فى المحنة، شمت فيه الجبرتى، لأن من أعان ظالما سلطة الله عليه، وأن الذى وقع له بعض ما يستحقه ولا يظلم ربك أحدا، (١١).

ولسنا الآن بصدد تقويم نظام وطريقة الحكم التى نهجها محمد على بعد أن أصبح واليا مستبدا، وحاكما فردا، فسوف يأتى ذلك فى حينه، ولكننا بصدد المراحل الأولى التى مهدت له الوثوب إلى الحكم بإرادة مصرية خالصة، ونعنى بها مرحلة انبثاق الحس القومى المصرى، فكان محمد على أول من قطف ثمار هذا النبات الجديد، وفى ذلك يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى تأريخه للحركة القومية: أن محمد على هو أول من استعان بالعامل القومى الذى ظهر على مسرح الأحداث السياسية، وأنه من هذه الناحية: ثمرة من ثمرات الحركة

القومية، ودور من أدوارها التاريخية، اقترن ظهوره بظهور العامل القومى، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب، ومناداتهم به واليا مختارا على مصر، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبر بناء فى صرح القومية المصرية .

المصالح العليا للبلاد

●● هذا رأى مؤرخ له وزنه وجهده الدائب فى رصد تطور الحركة القومية المصرية . وهو صريح فى تقويمه لمحمد على واعتباره ثمرة من ثمرات القومية المصرية، رغم أنه لايمت إلى المصرية بأية صلة، والرافعى فى ذلك ينهج نهج المؤرخين المصريين فى العصور الاسلامية الذين لم يكن يهمهم جنس الجالس على عرش البلاد، ولا الوسيلة التى دفعت به إلى الحكم، وإنما كانوا يتوقفون عند أعماله، فيحكمون له أو عليه، كما يجرى الرافعى فى مجرى المؤرخين التقليديين عند النظر إلى المصالح العليا للبلاد، والمكانة العظيمة التى تحققت لمصر فى عهد محمد على، وعندئذ لايسع الرافعى إلا أن يعترف بأن عصر محمد على يمثل صفحة جديدة من صحائف الحركة القومية، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة، وفيه تحقق الاستقلال القومى، وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به، فيه تأسس الجيش المصرى، والأسطول المصرى، والثقافة المصرية، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية للبلاد.. فهو عصر استقلال وحضارة عمران..

هذا هو محمد على البّناء العظيم فى رأى الرافعى، فماذا عن محمد على «آخر المماليك العظام وأول الفراعنة الجدد، كما وصفه جمال حمدان؟» والذى أتى به مزيج من الثورة الشعبية والانقلاب العسكرى، وجاء هو بنظام سياسى واقتصادى واجتماعى هو مزيج من الفرعونية والمملوكية ليصبح بالتالى نسخة جديدة من الطغيان الشرقى، وعلما حديثنا على الأتوقراطية المطلقة؟ وكما وضع الفراعنة نظام الرى الحوضى بجهد الفلاحين، اصطنع محمد على نظام الرى الدائم بعرق الملايين على مدار السنين فى شق الترع وتطهيرها وتعميقها وبناء الجسور والقناطر ومواجهة الفياضانات العالية واستصلاح البرارى (...) كل ذلك بالسخرة غالبا، وتحت الكرياج والفلكة دائما (!!) وكما كان فرعون مالك الأرض، أعلن محمد على نفسه المالك الوحيد فصادر ملكية الفلاح وغير الفلاح، تاركاً له حق الانتفاع وحسب - هذا بعد أن ألغى نظام الالتزام، واسترد للدولة أراضى الأوقاف وإقطاعيات المشايخ العلماء والأمراء المماليك.. ثم لم يلبث أن فرض نظام الاحتكار على الإنتاج الزراعى، رغم إرادة ومعارضة الفلاح وهربه.. ثم فرضه على التجارة الداخلية والصناعة المحلية، جميعاً.. وبذلك تحول «المحتكر الأول، إلى صورة كالحة من رأسمالية الدولة.. لقد تحولت الملكية إلى الملكية.. وخلق محمد على لأول مرة فى تاريخ مصر إقطاعاً فعلياً حقيقياً.. بعد أن كان نظرياً.. وبدأ عصر جديد تماماً فى تاريخ الملكية الزراعية فى مصر، وتحت دعوى إصلاح الأراضى البور: أقطع الأبعديات والشفالك والوسايا والعزب لأفراد أسرته وعملائه وعماله

وأتباعه وشيوخ البدو، وذلك على نطاق ضخم أرسى نواة الأقطاع الحديث..

مقاييس عصرنا

● ● صورتان متناقضتان.. كلاهما يقع على طرف يبعد عن الآخر بعد المشرقين..

فى الأولى يطل علينا محمد على فى صورة المصلح والمنقذ والبناء العظيم.. وفى الثانية يبدو جبارا طاغية غليظ الفؤاد، يتحكم فى مصير البلاد كما يتحكم المالك فى ملكه.. وليس من شأن هذا التناقض أن يزعجنا.. أو يضعنا فى حيرة الباحث الذى ينشد الحقيقة المطلقة، أو القارئ المتعجل الذى يريد أن يختصر الطريق ويجد أمامه حكما نهائيا على الرجل غير قابل للنقض: إما أبيض أو أسود.. فيطمئن وجدانه، ويضع حيثيات الحكم فى أعماق ذاكرته حين يستعرض تاريخ العظماء.. ومحمد على أحدهم بدون شك.. ومن شأن عظماء التاريخ أن تختلف حولهم الأقوال على مر العصور.. ألم يختلف الناس حول هارون الرشيد فقال بعضهم أنه كان رجل لهو وعبت ونساء ومجون؟.. حتى أطلقوا اسمه على الحانات وعلب الليل لاجتذاب السكران والماجنين.. وقال آخرون: بل كان تقيا نقيا يحج عاما ويغزو عاما، ويصلى فى الليل مائة ركعة.. و.. ألم يختلف الناس حول جدة الخليفة المنصور؟ فقال قائلون أنه كان سفاكا للدماء، لا يتورع عن قتل أصحاب الفضل إذا اشتتم منهم رائحة التآمر على سلطان الدولة.. ألم يقتل المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى يرجع إليه الفضل فى إقامة ملك

العباسيين على سنان رمحه..؟ وهو الذى قضى على دولة الأمويين بما كان يتمتع به من شجاعة وحسن تدبير.. ألم يقتل المنصور الأديب العظيم عبد الله بن المقفع قتله شنعاء فكانوا يقطعون أوصاله - وهو حي - ويلقون بها فى النار، وهو ينظر إليها ودخان الشواء يخنق صدره حتى لفظ أنفاسه.. وقال آخرون: بل كان المنصور رجل دولة من الطراز الأول، وهو الذى وطد أركان الدولة بالحزم والعزم والضبط والربط.. ولولاه لذهبت الدولة فى مهب الريح، وعصفت بها مؤامرات الأعداء والخارجين.. وأنه كان عالما وفقها يجالس مالك وأبى حنيفة وأبى يوسف، ويجادلهم جدال العالم (11)

والأمثلة كثيرة حول اختلاف الناس فى تقويم العظمة، وكلهم ينظر إلى الشخصية التاريخية من الزاوية التى توافق منهجه وتفكيره.. فأرياب الفكر الحر يرفضون التضحية بالمبادئ والقيم وحرية الفرد بحجة الحفاظ على أمن الدولة: وعلى النقيض منهم يرى دعاة القومية أن بناء الدولة لا يلامون إذا صادروا الحرية الفردية من أجل توطيد أركان الدولة، فمناعة الدولة مقدمة على حرية الفرد.

● ● وسواء صحت نظرية هؤلاء أو أولئك.. فإن العدالة فى تقويم العظماء تقتضينا أن نحكم عليهم بمقاييس عصرهم، وليس بمقاييس عصرنا، وأن نفهم الظروف التى عاشوا فيها، وهى بلا شك تختلف شكلا ومضمونا عن ظروف عصرنا.. وكل هذا يتطلب أن ننقل بعقولنا إلى العصر الذى كانت فيه مصر قبيل ظهور محمد على لنحدد مقدار المكسب أو الخسارة من خلال المقارنة بين مصر القرن الثامن عشر، ومصر فى القرن التاسع عشر.

مصر قبل محمد على

لكى نضع محمد على فى إطاره الحقيقى، ونقوم مكانته فى منظومة التاريخ المصرى، فإن علينا أن نبدأ بإطلالة على أوضاع مصر فى القرن الثامن عشر وهو القرن السابق على ولادة النهضة المصرية الحديثة.. كيف كانت تحكم مصر؟ وماذا عن مستوى التعليم والثقافة والعادات والتقاليد السائدة.. ماذا كان نصيب المصريين فى ثروات بلدهم.. من واجبتنا أن نستجلى هذه الحقائق حتى يتبدى لنا الفارق بين حالة مصر فى قرنين متتالين.. ومن خلال المقارنة يتضح لنا دور محمد على فى بعث مصر من وهبتها، وجعلها قاعدة لدولة عظمى تحمل رسالة المدنية، وتستأنف رسالتها الحضارية، بعد أن كانت فريسة يتكالب عليها الأوغاد من مطاريد العثمانية، وفلول المملوكية الغارية. ويتحكمون فى مصيرها وأموالها ومقدراتها ويزرعون فيها بذور الجهالة والفساد والخرافات والخزعبلات، لقد نضب معينها العلمى والثقافى والحضارى، حتى إذا نزلها أحد الولاة الأتراك، يحدوه الأمل فى مجالسة علماءها والاعتراف من علومها، لم يجد مايشفى

غليhle، فقال قولته الأسيفة: «المسموع عندنا فى الديار الرومية - يعنى التركية - أن مصر منبع العلوم والفضائل وكنت فى غاية الشوق إلى المجئ إليها، فلما جئتها وجدتها كما قيل... سماعك بالمعيدى خير من أن تراه، (١١)

ولو كلف هذا الوالى التركى نفسه مشقة البحث عن السبب فى ما آلت إليه مصر، لعلم أن أسياده الذين بعثوا به إلى مصر، هم السبب فى تخلفها وشقائها، وإليهم يرجع «الفضل» فى تفريغها من معالم العلم والحضارة، وإدخالها النفق المظلم منذ وطأتها خيل سليم الأول فى عام ١٥١٧م، فقضى على استقلالها، وشنق آخر سلاطينها على باب زويلة، ورسم لها النظام السياسى والأدارى الذى أودى باستقرارها وأمنها، وأضعف قدرتها الانتاجية، فأقفرت الأرض، وخربت القرى، لأن مصر - كما وصفها بونابرت - بلد إذا أحسنت الإدارة فيه أكل العامر الصحراء، وإذا فسدت الإدارة فيه، أكلت الصحراء الأرض العامرة. ولقد كان النظام العثمانى من أسوء النظم التى مرت على مصر، وماظنك ببلاد يتنازع الحكم فيه ثلاث قوى، كل منها تتريص بالأخرى وتكيد لها، والغارم فى النهاية هو شعب مصر الذى كان عليه أن يروى نهم هذه القرى المتعطشة دوماً إلى المال.. والدماء (١١)

كان يجلس على رأس السلطة (الوالى) ممثل الشرعية العثمانية وتبعث به الآستانة لمدة عام واحد لا يترك منه يوماً يضيع دون نهب بقدر ما تساعد قدراته على النهب، فإذا أراد التجديد لمدة عام أو يزيد، كان عليه أن يبعث بالرشاوى والهدايا إلى الباب العالى ليحصل على

مبتغاه وكان إلى جانبه فيالق عسكرية هي (الأوجاقات) التي كانت تضم شراذم من أخط وأسفل ما استطاعت العثمانية جمعه من المرتزقة والعاطلين الذين احترقوا العسكرية، وليس فيهم من شرف العسكرية نصيب، بل كانوا نسوراً جارحة نهشت جلود المصريين بالأنياب والسياط، وتحولوا من حراس على الأرض وحماة لها من ذئاب البدو، إلى عصابات وحشية تنقض على القرى فيغتصبون النساء جهرا ويخطفون الغلمان ويمارسون اللواط علنا... وكانت تلك هي القوى الثانية التي زرعتها العثمانيون في مصر لتثبيت احتلالهم لها حتى مشارف القرن التاسع عشر.

أما القوة الثالثة فكانت قوة الأمراء المماليك الذين ترك لهم العثمانيون حكم الأقاليم، وصارت إليهم سلطة الإدارة المحلية بحكم درايتهم بأمور مصر وأساليب حكمها، وبرغم الصراعات الداخلية فيما بينهم، إلا أنهم جعلوا من أنفسهم حزياً قوياً في مواجهة «الباشا» الوالى، وقادة الوجاقات، وصار زعيمهم يسمى (شيخ البلد) وله من النفوذ مايفوق نفوذ الوالى،

بهذه التركيبة الحديدية، دارت رحى النظام الإدارى لتعصر المصريين اعتصاراً قاسياً وأليماً، وجعل مصر شجرة عجفاء جف رحيقها، وتساقطت أغصانها، ولم يتركها إلا جذعاً خاوياً غير قادر على العطاء.. كان مماليك القرن الثامن عشر غير أجدادهم عند مطلع ظهورهم وبلغوا ذروة الفتوة لا يعرفون إلا حياة الكر والفر والنزال، فهزموا الصليبيين فى المنصورة، والمغول فى عين جالوت، وأنقذوا

عالم الإسلام من فكي الكماشة التي أطبقت عليه من الغرب والشرق، وحازوا شرف إزالة آخر أثر للوجود الصليبي من فلسطين عندما نجح الأشرف خليل بن قلاوون في تدمير أقوى وآخر حصون الصليبية في الشرق الإسلامي. وكان هذا آخر العهد المجيد لهؤلاء الصعاليك الذين نشأوا رقيقاً ثم صاروا ملوكاً.. وبعدها.. خلدوا إلى النعيم والخلاعة إلى أن دهمتهم العثمانية فأزاحتهم عن ملك مصر، ولكنهم عادوا من الباب الخلفي، واحتلوا مقاعد السلطة المحلية: سناجقاً وكشافاً، بل احتكروا السلطة الفعلية المباشرة، وجعلوا سلطة الباشا القابع في القلعة لا تزيد على سلطة الطرطور الساكن فوق رأسه، فإذا لم يعجبهم أو إذا استنقلوا دمه أوتو جسوا منه الغدر، بعثوا إليه رسولاً يضع على رأسه قبعة لها حافة عريضة تشبه الطبق، فيصعد (أبو طبق) إلى القلعة، ويتقدم من الوالي، وينحني بكل احترام وأدب، ويطوى السجادة أمامه قائلاً: إنزل ياباشا (!!) فلا يسع الباشا إلا أن ينزل.. ويتجه إلى بولاق في انتظار أول سفينة تحمله إلى الآستانة، ويأتي من بعده باشا جديد أكثر طوعاً لأرادة البكوات وأن كان أكثر رغبة في النهم والجشع.

بروفة على بك الكبير

● ● في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، استطاع أحد هؤلاء البكوات - هو على بك الكبير - أن يتمرد على السلطان، ويستقل بشئون مصر، ويضرب النقود بأسمه، ويحرك الجيوش إلى الشام، ولكن العثمانية التي سبق أن احتلت مصر عن طريق الخيانة المملوكية في معركة مرج دابق، استخدمت نفس الأسلوب. واستطاعت شراء ذمة

قائد الجيش - محمد بك أبو الذهب - وهو زوج ابنة علي بك في نفس الوقت، فعاد من الشام ليعلن الحرب على سيده ومولاه وحميه، ويقتله في الصالحية، وبذلك فشلت المحاولة الاستقلالية الأولى وكانت حركة علي بك الكبير هي البروفة التي مهدت لمحمد علي باشا الطريق إلى الحكم، ولكن بعد أن أستفاد من أسباب فشلها، وهو خيانة المماليك، ولذا جعل أكبر همه إزاحة هذه الطغمة الباغية بعد أن صارت مثل اللقمة المحشورة في زور أي حاكم يسعى إلى استقلال مصر وتحديثها وتجديد شبابها، وتقطيع روابطها بالعثمانية التي دب فيها العفن، ويقدر ما كان الوجود العثماني الرسمي يميل نحو الأفول - تبعاً لضعف الدولة المركزية - بقدر ما كان النفوذ المملوكي يزداد شراسة متحالفاً مع بقايا الشراذم العسكرية العثمانية التي توطنت، كالداء الوبيل، في تضاعيف الحياة المصرية، وصار أفرادها يملكون الضياع والعزب ويحتازون الامتيازات، ويمارسون التجارة، وللأسف، رأينا بعض المصريين من التجار والأعيان يلوذون بهم على سبيل التزلف والتعلق بأذيال الطبقة ذات النفوذ، ويكونون عوناً لهم على ما يرتكبون من فظائع ومظالم بلى وطنهم، بل وجدنا بعض النساء ينتسبن إلى هذه الوجاقات العسكرية وراثه عن أزواجهن، ويتمتعن بامتيازاتهم، وتشكل من هذه الشرائح الأرستقراطية قوة ضاغطة على الحياة المصرية في شتى نواحيها، لاتعرف إلا الكرياج كأداة وحيدة في التعامل مع المصريين. ولن نستطيع فهم أبعاد هذه العلاقة إلا إذا ألقينا نظرة على نظام الملكية الزراعية، فهو المعيار الذي توزن به الأوضاع في بلد يقوم اقتصاده

الرئيسى على الزراعة . وتعتمد خزينة الدولة على ماتجيبه من الفلاحين فى شكل ضرائب وإتاوات وعادات لاتقع تحت حصر .

نظام الالتزام فى جباية الضرائب

(● ●) ابتدع العثمانيون نظام (الالتزام) وبمقتضاه توزع البلاد والقرى على (الملتزم) الذى يضمن جباية الضرائب وتسليمها إلى الحكومة، وله سلطة مطلقة فى البلاد التى يضع يده عليها، فإلى جانب الضرائب القانونية التى تسمى (المال الميرى) كان من سلطة الملتزم أن يفرض على الفلاحين من الضرائب والأتاوات مايفيض من المال الميرى المقنن وهو «الفايظ» الذى جعله الفلاحون مرادفا للربا الذى يفرضه الملتزم لتحقيق مصادر إضافية لدخله، رغم أن الحكومة كانت تمنحه - مقابل التزامه - بعض الأقطان تسمى (الوسية) معفاة من الضرائب ويلتزم الفلاحون بزراعتها وخدمتها بالسخرة - أى بدون أجر - وكان يعاون الملتزمين فى نشاطهم جهاز إدارى محلى - كله من المصريين - الذين خلت قلوبهم من الرحمة، وسخروا أنفسهم - كجلادين - فى خدمة الملتزمين مقابل مايحصلون عليه من مال حرام منتزع من لحم الفلاح ورغم ضخامة هذا الجهاز الجهنمى المطبق على أنفاس الريف المصرى، لم تفكر الدولة فى النهوض بالثروة الزراعية أو الإنفاق على إصلاح الأراضى أو شق الترع وتطهير المصارف، فقد ركزت كل جهدها فى استنزاف الأموال، فتدهور الريف، وهجر الفلاحون قراهم، حتى يذكر الجبرتى أن إقليم المنوفية لم يعد به سوى خمسة وعشرون قرية بها بعض السكان، وباقى القرى هجرها أصحابها

ولم يعد بها لا ديار.. ولا نافخ نار (١١) وكتاب (الريف المصرى فى القرن الثامن عشر) للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن يعطينا صورة تفصيلية دقيقة عن تغلغل هذا الجهاز الأدارى كالسرطان فى شتى أنحاء البلاد، ويضم شبكة حديدية تتعاون على الإثم والعدوان، وتحالف على ظلم الفلاحين، وتفرض عليهم المغارم والمظالم ولا يجدون مغنيا ينتشلهم من هذا البؤس.

فهناك شيخ القرية (العمدة) الذى يعينه الملتزم وينوب عنه فى تحصيل الضرائب من الفلاحين. فكانوا يختلسونها لأنفسهم، ويزعمون للملتزم أن الفلاح لم يدفعها، ويضطر إلى دفعها مرة ثانية، وقد سجلت وثائق المحكمة الشرعية عجز الفلاحين عن استرداد أموالهم التى دفعوها ظلما، وكان من مهمة مشايخ القرى إخراج الفلاحين بالسخرة للعمل فى ترميم الجسور وقت الفيضان، وكانوا يقاسمون الصيارفة فى الأموال الحرام التى يأخذونها من الفلاحين مقابل اتقاء شرهم، وبهذه الأساليب غير المشروعة تمكنوا من تكوين ثروات ضخمة بمقياس العصر، واتخذ بعض هؤلاء المشايخ من قسوتهم على أبناء طبقتهم وسيلة للتسلق لدى أجهزة الإدارة المركزية، والأرتقاء بأنفسهم درجة، ووسيلة لجمعهم الثروات، وقد عبر أحد الكتاب المعاصرين عن قسوة مشايخ القرى على الفلاحين، وعدم رحمتهم، بأن فقهاء القرى أصبحوا يكتبون فى تمائمهم ضد النمل قولهم: إرحل أيها النمل كما رحلت الرحمة من قلوب شيوخ القرى (١١).

أما الكاتب المعاصر الذى أشار إليه الدكتور عبد الرحيم، فهو الشيخ يوسف الشربيني مؤلف كتاب (هز القحوف فى قصيدة أبى شادوف)

وهو كتاب يصور عذابات الفلاحين المصريين فى العصر العثمانى، ويرسم بأسلوب صريح وساخر معاناة الريف من حياة الضرائب القاسية قلوبهم.

وكان الملتزم يقوم بتعيين (مباشر) يعتبر بمثابة الوكيل له فى حصة الالتزام، وكان يعاون هذا المباشر عدد من الصيارفة الأقباط، لكل منهم منطقة اختصاص، ووظيفته جباية الأموال المقررة على الفلاحين، يدفع منها النفقات الإدارية التى تتطلبها مصلحة الالتزام ويسلم الباقى للملتزم، والواقع أن بعض الصرافين - كما توضح وثائق المحاكم الشرعية - لم يؤدوا عملهم بأمانة وإخلاص، وكانوا يستغلون نفوذهم أسوأ استغلال، ويفرضون سلطانهم على الفلاحين، وسجل الشريينى فى شرحه لقصيدة أبى شادوف: «إن النصرانى، يعنى الصراف، إذا نزل قرية لقبض أموالها يحضر إليه الفلاحون ويكرمونه ويرسلون إليه الوجبة، ويتذللون بين يديه، ويطيعون أمره ونهيه، بل يكون غالبهم فى خدمته، وأن بعض الملتزمين كان يولى الصراف أمر القرية، فيحكم فيها بالضرب والحبس، فلا يأتيه الفلاح إلا وهو يرتعد من شدة الخوف،

ونظرا لقسوة الصراف وخراب ذمته، أصبح الفلاحون يخشونه أكثر مما يخشون الملتزم ذاته، وذكر جيران، عن نهاية القرن الثامن عشر: إن فئة الصرافين، توصلت بسبب جهل الفلاحين، وبمشاركة الصيارفة مشايخ القرى فى أرباحهم المحرمة، وأحيانا بالرشاوى التى تؤمنهم العقوبات إلى جعل نفقات الجباية ربع الإيرادات، أى مايزيد على ثلث الأموال المجبية فى مصر.

والى جانب هؤلاء، كان هناك: الخولى .. والمساح .. والوكيل ..
والمشد .. والكلاف .. وفيالق من الخفراء مهمتهم توقيع الظلم على
الفلاح .. وتشكلت من كل هؤلاء سلسلة جهنمية تتعارن على استغلال
الفلاحين، ونهب أموالهم . ومحاصرتهم فى حقولهم أو بيوتهم إذا
ظهرت منهم بوادر التقصير فى دفع المستحق عليهم .

حاميا .. حراميا

إلى جوار هذا الجهاز الإدارى العفن، كان هناك عساكر (الوجاقات)
العثمانية وكان أحطهم خلقا أوجاق (السباهية) وكانت مهمته الأساسية
مراقبة الأراضى الزراعية، والمحافظة على شبكات الري، والأشراف
على توزيع المياه على القرى، وحماية الفلاحين من غارات البدو،
ولكلهم استغلوا نفوذهم فى الريف إلى درجة كبيرة مكنتهم من السيطرة
على كثير من الالتزامات حتى أصبحوا يشكلون النسبة الغالبة من
الملتزمين، وبدلاً من أن يكونوا مصدراً للأمن والنظام، صاروا مصدراً
لترهيب وتخويف أهل الريف، فسلبوا ونهبوا وارتكبوا الموبقات، حتى أن
مصدراً معاصراً أرجع أسباب خراب الريف، وفساد الأحوال، ونقص
الأموال والغلال، وانتشار الموبقات، وضعف الفلاحين وسوء أحوالهم
المعيشية إلى: ما كان يرتكبه أفراد السباهية من المظالم وما يفرضونه من
مغارم وعادات وطلب لم يستطع الفلاح منها فكاكاً، حتى أصبح
المصرى غير آمن على أمواله وأولاده من أعمال هؤلاء الجند، فكان
مجرد اقترابهم من القرية بسبب القلق والفرع لسكانها لأن ذلك لايعنى
إلا طلب الأموال، وهتك الأعراض، وعندما حاولت السلطة المركزية

وضع حد لما يسمى (الطُّلبة) وهى المغارم والأتاوات المعروفة باسم (حق الطريق) عندئذ ثار السباهية، وأنطلقوا كالوعول الهائجة يدمرون ويسفكون الدماء - ويكفى أن تقف على هذه الصورة البشعة التى كتبها محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى فى كتابه (كشف الكربة فى رفع الطلبة) وهو مخطوط فى مكتبة الطهطاوى بسوهاج عن الأعمال الإجرامية التى ارتكبها أفراد السباهية بعد إلغاء غرامة (الطُّلبة) فيقول إن مصر اختل أمرها، وضائق معيشة أهلها، وكثر شرها، وخربت قراها، وضعفت فلاحيتها، وانفصمت عراها، وانقلبت أحوالها، وخست أموالها، ونقصت غلالها لما أراد الله تعالى فى القوم، من نقلها من الوجود إلى العدم، وخراب البلاد، وهلاك العباد، وجلاء الفلاحين، وازدراء الشرع المبين، وقد اتسق الخرق، وازداد الحرق، وأصل ذلك كله، قيام طائفة من الجند المكتوبين فى بلاد الأرياف، مع كشف الأقاليم، فأظهروا العناد، وسعوا فى الأرض الفساد، وأحدثوا شيئا سموه (الطلبة) على الفلاحين والمزارعين فى سائر الأقاليم، وعلى العمالين والبطالين، وصاروا يضاعفونها فى كل سنة من السنين، إلى أن زادت على أموال المقاطعات، بل عمت وطمت، ولم يقدر أحد على المرافعات، وذلك غير ما صدر منهم من الأمور الشنيعة، والأفعال المنكرة الفظيعة، من الزنا واللواط جهارا، واقتضاض الأبقار نهارا، لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا يأترون بأمر ولا تنهم ولا يمتثلوه ولا يتورعون عن تهديد الكشف بما فيه القتل، إن قصروا عن ذلك، بل ويسلكون بهم أسوأ المسالك، وصار المسلمون منهم فى أمر مريع، ليس لهم منه خلاص، بل أضحوا فى غاية التعويج، صار أرذل الجند مقلدا

بالسيوف المسقطة، والسروج بالذهب المنقطة، والخيول المسومة، والعدد المقومة، والمرد (الغلمان) الجميلة المزينة بأنواع الزينة المكملة، راكبين خلفهم أجود الخيول، في لهو وفرح لا يزول، وإن وجدوا أيضاً ولداً مقبول الصورة، أخذوه من والده بالسيف، وقد حصل منهم غاية الحيف؛ مع الفسق بنساء الفلاحين، واقتضاض أبنات المسلمين، بل قتل بعضهم، وسلب مامعه، وغير ذلك من القبائح المنكرة، والحوادث الشنيعة المبتكرة،

وبلغ الأمر بأفراد السباهية، نتيجة محاولة إلغاء (الطلبة) أن قتلوا الوالى ومعه أمير آخر، وطافوا برأسيهما فى شوارع القاهرة، وهم يصيحون صيحات هيستيرية وعلقوهما على باب زويلة، ويحكى ابن أبى السرور ماوقع عليه شخصيا من مظالم السباهية بسبب (الطلبة) حيث يأتون إلى الكاشف (حاكم الأقليم) فيقولون له: اكتب لنا على الناحية الفلانية كذا وكذا مما يريدون، فيقول لهم: بأى طريقة اكتب لكم ذلك؟! فيقولون: اكتب أن فلانا اشتكى فلانا، من أهالى الناحية الفلانية. فيمتثل الكاشف لما يقولون ويكتب لهم (حق الطريق) بقولهم وجميع ما يقولون لأصل له، فهذا معنى (الطلبة) وقد كان لى بلد بالمنوفية - يقول البكرى الصديقى - ومالها، أى ضربيتها، مائة ألف نصف فضة، فغرمت أنا وأهلها فى مائتى ألف نصف قصة - أى الضعف - وجاء إلى بلدتنا المذكورة شخص من العسكر السباهية بطلبة يزعم فيها أن حق الطريق ألف نصف فضة، فحين دخل القرية هرب أهلها جميعا، فرأى امرأة لها ولدين، فأخذهما منها، وألقى بهما فى الخرج، فحين رأت الأم ذلك، ذهب عقلها، فجاءت له بمصاغها، وقالت

له: هذا يساوى زيادة على ألف نصف فضة، فأخذ المصاغ منها، وأخرج الولدين من الخرج، فإذا هما ميتين. فانظروا على الجرم الذى مايفعله كافر، بخلاف المسلم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم،

وعندما تمكن الوالى وكان اسمه محمد باشا من كسر شوكة السباهية المتمردة فى الخانقاه والقاهرة، وقتل من قادتهم عددا كبيرا، ونفى الباقين إلى اليمن، علق بن أبى السرور على هذا الانتصار الذى أحرزه الباشا على السباهية بقوله: «وهو فى الحقيقة الفتح الثانى لمصر فى الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى، وتمكن محمد باشا بهذا الانتصار من إلغاء «الطلبية»، واستحق بذلك من المصادر المعاصرة ألقاب «معمّر مصر»، و«مبطل الطلبية». وفى هذا دلالة على فداحة المعاناة من جرائم هذه الشرزمة الفاسدة ويرتبط بها عدة ظواهر تستوقف النظر:

● الأولى: إن عددا كبيرا من المماليك انتسبوا إلى طائفة السباهية ليتمتعوا بما كان يتمتع به السباهية من نفوذ على أهل الريف، والرغبة فى حيازة الامتيازات التى انتزعوها بالقوة.

● الثانية: انتماء بعض المصريين إلى صفوف السباهية، بل ان هذا الانتماء صار أمنية عزيزة على الفلاح - كما يقول الشربينى فى هز القحوف - وسجلت وثائق المحكمة الشرعية أن عرب الهوارة امتنعوا عن سداد أموال الميرى بحجة انتمائهم إلى الوجاقات التركية العسكرية، ولكن هذه الوجاقات رفضت هذا الانتماء وقالوا: «هم ليسوا منا.. والعربان لا تكون عسكرية، وقد ساعد على شيوع الانتساب إلى الفرق العسكرية التركية: الرغبة فى الحصول على الامتيازات

● الثالثة: رغم أن مهمة السباهية كانت محصورة في الريف، إلا أنهم، كثيرا ماكانوا يذهبون إلى القاهرة للمشاركة في الفتن والصراعات التي كانت تنشب بين القوى الحاكمة، وكان سفرهم إلى القاهرة يسبب للفلاحين فزعا ورعبا، نظراً لما يصاحب السفر من نهب وسلب فضلا عن الفوضى التي تسود القاهرة عن دخولهم لها.



تلك صورة بائسة لما كانت عليه البلاد في القرن الثامن عشر ووقوعها تحت نير طبقة حاكمة تجمع أشتاتاً من الشراذم التركية الوافدة، التصقت بها شرائح من الانتهازية المصرية الطامحة إلى الثراء على حساب الجرح الدامي في الجسد المصري، فلم يعملوا على وقف الزيف، ولم نسمع طوال هذاالعصر عن ظهور زعامة مصرية قادرة على الوقوف، في وجه العتاة الظالمين، ولم يجد غالبية المصريين من مهرب سوى اللجوء إلى الخرافات والسحر والخزعبلات، والوقوع في براثن الأدعياء الذين أوهموهم أن مايجري لهم إنما هو بقضاء الله وقدره، وأن عليهم أن يتقبلوا هذه المظالم بزعم أنها ابتلاء من الله لهم، وأن مايفعله الحكام بهم إنما هو بعض مهامهم التي تستوجب الطاعة. وتعاون الجميع على إفساد العقائد، وأنحطاط الأخلاق، ونشر الذل والاستكانة والخنوع في نفوس الناس. حتى باتت صورة المجتمع المصري في ذلك العصر مثار أسف للرحالة الأجانب الذين عزَّ عليهم أن تهبط مصر إلى هذا الدرك وهي التي وضعت أسس الحضارة الإنسانية.

مصر الحديثة

عندما نسمع تعبير (مصر الحديثة) نذكر على الفور (محمد علي) فهو المؤسس والرائد الذي انتقل بمصر من ظلام العصور الوسطى إلى مشارف العصر الحديث، وهو الذي أشعل بيده شرارة النور والعلم والعرفان فعم ضياؤها أرجاء مصر والشرق العربي، وهو بهذا يقف على قدم المساواة مع مينا وخوفو وتحوتمس الثالث ورمسيس الثاني في مصر القديمة، وعمر بن العاص وأحمد بن طولون والمعز لدين الله وصلاح الدين وبيبرس في مصر الإسلامية، أولئك الذين جعلوا مصر دولة الشرق، وواسطة العقد في منظومة العالم القديم، ووضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها فباحث لهم بسرها، وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ.

كان ظهور محمد علي إيذاناً بأقول ثلاثة قرون من الجهل والضعف والتخلف، عاشتها مصر تحت حكم العثمانيين. وبزغت بظهوره نهضة جديدة أخرجت مصر من كبوتها ودفعت بها إلى مستوى الدول القوية. وأرسى محمد علي الأساس المتين لبناء مصر الحديثة، وأدرك بفطرته

السليمة - رغم كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب - إن التعليم هو نقطة البداية، وأن الحداثة تعنى إحياء العلوم والآداب وفتح المدارس وخلق طبقة من العلماء المتخصصين فى الهندسة والطب والعمارة والأخذ بالأساليب التى أخذته بها الحضارة الأوروبية.

كان التعليم، قبل محمد على - محصوراً فى الكتاتيب التى تعلم الصبية مبادئ الدين والقراءة والكتابة والحساب، وتدفع إلى الأزهر بمن يسعده الحظ بالهجرة إلى القاهرة، ولم يكن الأزهر يقدم لطلابه سوى قشور من علوم الدين واللغة فى شكل حواشى وشروح وتعليقات على كتب الأسلاف، وتوقفت فيه حركة التأليف والإبداع، وقد صدم هذا القحط العلمى الأجانب الذين كانوا يحسنون الظن بهذه المؤسسة العلمية العريقة، كان الأزهر هو شعاع النور الضئيل فى هذا الظلام الحالك، ومن الأزهر انتخب محمد على العناصر المؤهلة لاستيعاب العلوم الحديثة. وكان أول ما فكر فيه محمد على إنشاء مدرسة الهندسة وهذا يدل كما يقول الرافعى على الجانب العملى من تفكيره فإنه رأى البلاد فى حاجة إلى مهندسين ليقوموا بأعمال العمران فبدأ بإنشاء مدرسة الهندسة عام ١٨١٦، ويذكر الجبرتى فى سبب تأسيس هذه المدرسة قصة طريفة. ذلك أن أحد أبناء البلد، واسمه حسين شلبى عجوة، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه، وقدم نموذجها إلى محمد على، فأعجب بها وأنعم على مخترعها بمكافأة، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة فى دمياط، وأخرى فى رشيد، فكان هذا الاختراع باعثاً لتوجيه فكره إلى إنشاء مدرسة للهندسة، فأنشأها فى القلعة.

قال الجبرنى: إن الباشا لما رأى هذه «النكتة»، (والنكتة فى لغة الجبرنى تعنى الحادثة أو الواقعة) من حسين شلبى، قال إن فى أولاد مصر نجابة، وقابلية للمعارف، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية بالقلعة، ورتب فيها جملة من أولاد البلد، ومماليك الباشا، وجعل معلمهم حسن أفندى، المعروف بالدرويش الموصلى، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير، والقياسات، والأرتفاعات، واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومى (تركى) يقال له روح الدين أفندى، بل وأشخاص من الإفرنج، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة، ورتب لهم شهریات وكساوى فى السنة، واستمروا على الأجتماع بهذا المكتب وسموه (مهندسخانة) فى كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة، ثم ينزلون إلى بيوتهم ويخرجون فى بعض الأيام إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضى بالأقصاب وهو الغرض المقصود للباشا.

ولما ضاقت مدرسة القلعة عن الوفاء بحاجة البلاد من المهندسين، أنشأ فى عام ١٨٣٤ مدرسة أخرى للمهندسخانة فى بولاق، وعين أرتين أفندى أحد خريجي البعثات العظمية وكيلا لها، ثم تولى نظارتها يوسف هاككيان أفندى أحد خريجي البعثات أيضاً. وهو الذى أدخل زراعة اليوسفى إلى مصر، وإليه ينتسب، ثم تولاها على باشا مبارك، ومن هذه المدرسة تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة وشاركوا فى بناء القناطر والسدود وبقية المنشآت العمرانية التى زخر بها عصر محمد على.

مدرسة الطب:

بعد الهندسة اتجه محمد على إلى الطب، فأسس في عام ١٨٢٧ مدرسة الطب في أبو زعبل لوجود المستشفى العسكرى بها، ولتوافر وسائل التعليم الطبى والتمرين، فكانت أشبه بالمستشفى التعليمى، فقامت فى البداية بتخريج الأطباء المصريين للجيش - ثم صار يتخرج منها الأطباء لخدمة البلاد عامة، واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر تحت اشراف الطبيب الفرنسى (كلوت بك) الذى اختار لها طائفة من خيرة الأساتذة الفرنسيين يدرسون علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية والصيدلة والطب الشرعى والكيمياء والطبيعة والنبات، إلى أجانب أساتذة آخرين لتعليم اللغة الفرنسية للطلبة الأزهريين. وبعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الدفعة الأولى من الأطباء توزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش، أما المتفوقون منهم وعددهم عشرون فأبقى ثمانية منهم للعمل كمعيدين فى المدرسة، وأرسل الأثنى عشر الباقين إلى باريس لإتقان علومهم، فلما عادوا عينوا أساتذة فى المدرسة. وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الرابعة، وفى عام ١٨٣٧ نقلت المدرسة والمستشفى إلى (قصر العينى) فجاء وجودها فى قلب القاهرة أدعى إلى نشر التعليم الطبى فى مصر.

وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة، ثم مدرسة للقابلات والولادة، واختيرت لها مجموعة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن التوليد وألحق بها مدرسة متخصصة فى أمراض النساء.

ثم توالى ظهور المدارس العالية (بخلاف المدارس الحربية والبحرية) على النحو التالى:

- مدرسة الألسن بالأزبكية .
- مدرسة المعادن بمصر القديمة .
- مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب .
- مدرسة الفنون والصنائع .
- مدرسة الصيدلة بالقلعة .
- مدرسة الزراعة بنبروه .
- مدرسة الطب البيطرى .
- المدرسة التجهيزية (الثانوية) بأبوزعبل .
- المدرسة التجهيزية بالأسكندرية .

وبينما كانت همة محمد على تتجه إلى إنشاء المدارس العالية، ثم المدارس الابتدائية التى أخذت تنتشر فى مدن مصر، اتجه تفكيره إلى إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا حتى يتوفر لهذا الجيل الجديد من المتعلمين المصريين فرصة التخصص فى شتى العلوم والمعارف التى تدرس فى الجامعات الأوروبية. ومن الأمور التى تثير دهشة المؤرخين هذا الأهتمام الكبير بالتعليم من حاكم أمى لا يعرف القراءة والكتابة. وفى تفسير هذه الظاهرة يذكر عمر باشا طوسون فى مقدمة كتابه (البعثات العلمية فى عهد محمد على):

من أفضل المواهب الإلهية السنية، أن يشعر الإنسان بما فيه من نقص، ويدرك مايؤدى إليه من الأثر السيئ فى حياته، وهذه الموهبة

العظيمة تستتبع في الغالب موهبة أخرى أكبر وأعظم، وهي أن يدفعه ذلك الشعور إلى تلافي هذا النقص ثم يوفق إلى حد الكمال، ومن يقرأ التاريخ بشئ من العناية، يجد هذه المنح الإلهية قد قيضت لمحمد على، وأن يد المنعم جلت قدرته قد أفاضتها عليه واحدة تلو الأخرى، فعندما أتاحت له الفرصة عرش مصر لابد أن يكون قد تملكه هذا الشعور الصادق بما ينقصه ليكون عرشه قوى الدعائم، فشمّر عن ساعد الجد، ولم يبال بما يحيط به من الملمات، وشعر، رغم أميته، بأن الملك لا يشيد إلا على أمتن أساس من العلم، وأن العلم الذي تدعم به الممالك ليس هو العلم الذي يسمونه علماً في الشرق، وإنما هو الذي قامت به المدنية الغربية، وشيدت عليه صرح عليائها وقوتها، فأقرت لها الأمم بالغبية، ووقفت أمامها صاغرة ذليلة.

ابتدأ محمد على ينفذ ما جال في خاطره، فأنشأ المدارس في القطر على مثال المدارس في أوروبا، وجلب لها الأساتذة من هناك، ثم ساق إليها التلاميذ قسراً، ولكنه بعد ذلك أحس بأن كل هذا لا يفي بالغرض المروم، وأن حاجة البلاد إلى الأجانب من مدرسين وغيرهم لاتزال حيث كانت، وهو لا يريد أن تحتاج بلاده إلى شئ مامن الخارج، فهدته الفكرة إلى الحل الصحيح لهذه المعضلة وهو أن يبعث البعث من الشبان الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر إلى أوروبا ليتمموا دراستهم بها، ويخصصوا في العلوم التي ليس من المصريين أخصائيون فيها، وبذلك يتخلص من الاحتياج إلى الأجنبي، ويضمن الاستقلال العلمي لبلاده التي كان يعمل لاستقلالها، ولا يحب أن تشوب هذا الاستقلال شائبة، فأخذ يرسل التلاميذ تباعاً إلى مختلف الممالك الأوروبية ليتخرجوا في

الصنائع والعلوم والفنون، ولكن ميله كان أكثر إلى فرنسا. لذلك فكر في الشخص الذى يعهد إليه بالإشراف على بعوثة العلمية بها، فهداه حسن الحظ إلى مسيو (جومار) فكان رئيس البعثات المصرية بفرنسا وغيرها.

ولم يكن مسيو جومار حديث الصلة بمصر. فقد كان ضمن علماء الحملة الفرنسية بقيادة بوناپرت إلى مصر، واشترك فى تأليف كتاب (وصف مصر) وله فى هذا الكتاب العظيم مباحث واسعة جريئة الفائدة بحكم كونه من نوابغ العلماء المهندسين الفرنسيين، ولم ينس لمصر حقها عليه مدة إقامته فيها، وقد عرف محمد على لهذا الرجل فضله، ويظهر أن جومار لم يكن يرغب فى القيام بهذه المهمة يتبين ذلك من الخطاب الذى كتبه إليه ونشر عمر باشا طوسون خطاب محمد على بعد ترجمته إلى العربية عن النص الفرنسى:

القاهرة فى ١٠ يناير سنة ١٨٣٥ م.

جناب المحترم السيد جومار العضو بمعهد فرنسا.

شكراً لك يا صديق مصر العامل بجد وإخلاص لنفعها حتى كأنك نبراس رغباتى فى تمدين البلاد التى جعلنى الله على رأسها، إذ لم تلتقط عن إظهار ولائك بأدلة قاطعة، وهى تلك الجهود العظيمة التى تعانىها فى مراقبتك التلاميذ الذين أرسلتهم إلى وطنك منذ سنين عديدة، وقيامك حق القيام بتهذيبهم، ولقد عادل جدك تضحيتك، وإنى وإن لم أجد وسيلة إلى الآن للتغلب على تمنعك الذى ليس له مصدر غير رقة طباعك، أرجو رغبة فى إظهار ما يكره قوادى من قدر فضائلك العظيمة حق قدرها، ألا ترفض الهدية الصغيرة التى أقدمها

لك، ألا وهى علبة تبغ قد يكون لها قيمة فى نظرك، عندما تعلم أنى أنا الذى أهديتها إليك، وقد أمرت وزيرى الأمين (بوغوص بك) أن يوصلها إليك، وإنى أؤكد لك أيها السيد إن هذه ليست مكافأة تليق بجهودك التى عادت على مصر بالفوائد الجليلة، بل هى تذكار صغير من أمير ساعدته على أن يسير بعض خطوات فى طريق تمدين الشعب الذى يحكمه، وهى فى الوقت ذاته رجاء منى لك بالاستمرار فى المستقبل فيما بدأت به، وإنى لفى انتظار هذا البرهان الجديد على تفانيك فى خدمة قطر مدين لك بكثير من الخدم الصالحة ومن جهة أخرى كن متأكداً من العزيمة الصادقة التى اعتزمتها، ألا وهى معاضدة الرغبات التى يبيدها لى أمثالك الملهبون غيرة على الإنسانية. تلك الرغبات التى تبدونها فى سبيل الإصلاح، وإنى أهدى إليك فى الختام تحيات تنبئك عن خالص مودتى.

محمد على

أول بعثة:

لعلك لاحظت فى صدر خطاب محمد على إلى مسيو جومار انه مؤرخ فى سنة ١٨٣٥ أى بعد سبعة عشر عاماً من تاريخ أول بعثة مصرية إلى فرنسا وخلال هذه السنين كانت البعثات تتوالى على فرنسا وتؤتى ثمارها. أما أول بعثة فكانت إلى إيطاليا سنة ١٨١٣ عندما أوفد محمد على بعض التلاميذ لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها. وقد ضاعت القائمة بأسماء هؤلاء ولم يعرف منهم سوى طالب واحد هو (نقولا مسابكى أفندى) الذى ذهب إلى ميلان

ليتعلم فن سبك حروف الطباعة وفنونها، ومكث هناك أربع سنوات عاد بعدها إلى مصر وتولى إدارة المطبعة الأميرية ببولاق إلى أن توفي عام ١٨٣١م.

ولاندري السبب الذي جعل محمد علي يصرف النظر عن إيطاليا ويتجه إلى فرنسا. ربما كان ذلك بتأثير من صديقه (ديلسبس) والد المقاول (فردناند) صاحب مشروع حفر قناة السويس، وربما لاطمئنانه إلى مسيو (جومار) صاحب الخبرة القديمة بالديار المصرية.. المهم أن قائمة هذه البعثة ضاعَت هي الأخرى من وثائق بعثات محمد علي، ولم يذكر عمر طوسون سوى واحد فقط هو (عثمان نور الدين) الذي أرسل سنة ١٨١٩ لإتقان الفنون الحربية والبحرية ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٢٠ وترقى في مناصبها إلى رتبة (سر عسكر) ورئيس للأسطول المصري سنة ١٨٢٨ بدلاً من (محرم بك) زوج بنت محمد علي. ويذكر عمر طوسون أن عثمان نور الدين - أثناء بعثته - نزل منزلة سامية - من نفس مسيو جومار، فاقترح على تلميذه أن يسعى عند عودته إلى مصر لدى سيده محمد علي ويرغبه في إرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا لتلقى مختلف العلوم فيها، فلما عاد عثمان نور الدين عرض على مولاه هذا الاقتراح، فتلقاه بالقبول، وكان ذلك سبباً في إرسال بعثة سنة ١٨٢٦ ومابعداها إلى فرنسا، وكان محمد علي يحب عثمان نور الدين حباً جماً لبذله قصارى جهده وعنايته في خدمته حتى كان لا يناديه إلا بلفظة (ولدى عثمان) ولا يكتب له إلا بها، وبنى له منزلاً بجواره غربي قصر رأس التين ليكون على مقربة منه، ولقبه على أثر ما ظهر من مهارته الحربية برئيس البر والبحر، ولم شبت

ثورة كربيت وأراد محمد على إخماد الثورة، أرسل عليها عثمان نور الدين باشا على رأس قوة عسكرية ضخمة فأخضعها بعد أن أعطى رؤساء الفتنة عهد الأمان على أرواحهم وأموالهم، فلم يوافق محمد على على ذلك، وصمم على قتلهم، فحار عثمان باشا في أمره، ولم يجد مخرجاً من هذا المأزق سوى ترك خدمة مولاه، فترك كربيت ولجأ إلى الآستانة سنة ١٨٣٣ وأقام بها إلى أن توفاه الله.

قدوة الأمثال:

وتوالى إرسال البعثات إلى فرنسا.. ورغم مشاغل محمد على في بناء الدولة العصرية، فإنه لم يكن مقطوع الصلة بأولاده الذين يتلقون العلم في المدن الأوروبية.. وبلغ من اهتمام محمد على، بأعضاء البعثات، أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم في بلاد الغربة، ويواليهم بالنصائح والإرشادات، مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده. ويكتب إليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل، حتى يعودوا إلى وطنهم وهم على أحسن حال. وهذه رسالة أوردها رفاعة رافع الطهطاوى - الرائد الدينى للبعثة الأولى - فى كتابه المشهور «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» وتلمس فيها قلق الأب الذى ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم:

«قدوة الأمثال الكرام، الأفندية المقيمين فى باريس، لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، نهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة

على شغلكم «ثلاثة أشهر مبهمه لم يفهم منها ماحصلتموه فى هذه المدة، وما فهمنا منها شيئاً، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون، فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم. وهذا الأمر غمنا كثيراً، فيا أفندية ماهو مأمولنا منكم، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار مهارته. فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة، وجئتم إلى مصر بعد قراءة الكتب، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون، فإن ظلكم باطل فعندنا والله الحمد والمنة، رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعب، فبناء على ذلك، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة، وتركتم أنفسكم للسفاهة، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا، وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم. فإذا أردتم أن تكتسبوا رضائنا، فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم، ومابقى عليه فى خلاص هذه العلوم ويكتب فى كل شهر مايتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة، فاكتبوا لنا سببه. وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم. وأى تشويش لكم: هل هو طبيعى أو عارض، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم، وهذا مطلوبنا منكم، فاقرأوا

هذا الأمر مجتمعين، وافهموا مقصود هذه الإرادة، وقد كتب هذا الأمر
فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الإسكندرية بمئة الله تعالى، .

الصدمة الحضارية:

وفى كتابه الوثائقي عن بعثات محمد على إلى باريس، يعطينا عمر باشا
طوسون صورة تفصيلية عن حياة الطلاب المصريين فى الخارج والعلوم التى
كانوا يدرسونها، والطعام الذى كانوا يأكلونه، والصدمة الحضارية التى حدثت
لهم عند هبوطهم أرض فرنسا، واتقائهم اللغة الفرنسية خلال فترة زمنية
قصيرة. يقول مديرهم الفرنسى: من المدهش الذى لا يكاد يصدق أن عربا
أتوا باريس منذ عشرين شهرا تمكنوا من أن يعبروا عن أفكارهم بشعر فرنسى
لا عيب فيه، وألفوا مقطوعات منه يشرف الفرنسيين اتيانهم بها. وفى كل ما
يخطه قلم هؤلاء الشبان المصريين باللغة الفرنسية يجد القارئ ضربا غريبا
من البساطة وحرية الفكر يستأهل الذكر، ويظهر من فحوى كتابتهم أنهم قبل
ان يكتبوا يفكرون بعقل فرنسى لا بعقل عربى، فمن المنتظر أن الخرافات
الشرقية ستنمحي من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التى تغطى أعين الشرقيين
وتقيدهم بسلاسل الطفولة ستسقط تدريجيا على الأقل عن أولئك الذين
يدرسون عندنا.

وقال الطالب محمد مظهر، (باشا فيما بعد) فى رسالة له إلى أحد
أصدقائه بالقاهرة: عندما نزلت فى مرسيليا ظهر لى جملة مناظر لم أرها من
قبل، أولها جمال المباني مع علوها الشاهق ثم الشوارع المرصوفة مع اتساعها
واستقامتها، ثم انى سمعت جلبة لم أسمع مثلها، ورأيت بعد ذلك عربات
تجرها الجياد (لعله يقصد الحناطير) وهى أول مرة فى حياتى أرى فيها هذا

المنظر وكانت تلك العريات لا ينقطع مرورها فى الشوارع . وقد استولت على الدهشة عندما وقع بصرى على السيدات الفرنسيات وقد سفرن (من السفور) بحرية بأزيائهن الجميلة فى الشوارع والميادين والمنزهات، الأمر الذى تاباه عادتنا وشرائع بلادنا .

البعثة الأولى :

ويعرض المؤلف بيانا تفصيليا عن أفراد البعثة الاولى وجنسياتهم والعلوم التى تخصصوا فيها، وكان اعضاء هذه البعثة ٤٤ منهم ثلاثة رؤساء واثنين انضموا اليها بعد سفرها، وخمسة غائبين. أما الباقون فمنهم أربعة أرمن مسيحيين وثلاثون مسلمون، وأن ثلاثة منهم يحملون لقب شيخ، و١٨ مولودون فى مصر وستة عشر خارج مصر، وأحد الـ ١٨ عثمانى الأصل مولود فى القاهرة من أم مصرية وهو محمد مظهر باشا وأن ١٢ آخرين هم عثمانيون أتوا إلى القاهرة يافعين،.

أما الثلاثة الشيوخ فهم الشيخ أحمد العطار وتخصص فى علوم الميكانيكا، والشيخ محمد الدشطوطى وتخصص فى دراسة الطب والجراحة والتشريح، أما الثالث فهو الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى درس الترجمة من الفرنسية إلى العربية.

ويقدم لنا المؤلف نبذة عن امتحان هولاء التلاميذ فى العلوم الطبية كما سجلها كلوت بك وكيف أن كلوت بك ذهب إلى باريس سنة ١٨٣٢ وبصحبه ١٢ تلميذا مصريون منتخبون من متقدمى تلاميذ مدرسة الطب بأبوزعبل، وعند وصولهم باريس اختبروا من الجمعية العلمية الطبية بحضور عظماء العلماء الأوروبيين فأسفر هذا الاختبار عن نجابة هؤلاء التلاميذ وعلو همة

أستاذهم فى التعليم، وكانت إجابتهم عن الأسئلة التى وجهت إليهم باللغة الفرنسية لأنهم كانوا يتعلمونها فى مصر، وقد اعترفت لهم هذه الجمعية بوصولهم إلى درجة التلاميذ الفرنسيين ولما كانت رغبة محمد على باشا امتحان هؤلاء التلاميذ بفرنسا حتى يظهر مبلغ ما وصلوا إليه من العلوم الطبية التى تلقوها فى مصر، فقد تشكلت لجنة من كبار العلماء الفرنسيين وتحدد الاجتماع فى الساعة الواحدة من ظهر يوم الأحد ١٨ نوفمبر ١٨٣٢ بقاعة جلسات الجمعية العلمية الطبية الملكية، وأول من دعى منهم للامتحان الشيخ منصور فسئل عن تركيب العين وعلى الخصوص البلورية وكيفية تكون الكاتراكتة وعن العملية اللازمة لانقاذ المريض منها، فأجاب وأجاد وصدق له الحاضرون استحسانا، وأثنوا عليه ثناء مستطابا، ثم دعى حسين الههياوى أفندى فسئل عن شرح العجان وعن المثانة وعن الأعراض التى تدل على وجود الحصاة المثانية وعن كيفية استخراجها بالطريقة التى كان يستعملها كلوت بك، فأفاض وأجاب اجابة حسنة . ثم قام ابراهيم افندى النبراوى فسئل عن تركيب المفاصل العضدية وعن خلع الذراع وكيفية ردها فأجاب بما أظهر قوته وأبان للحاضرين ذكاءه وفطنته ولما وجد البارون (ديبويترن) نجابة التلاميذ المصريين نهض فيهم خطيبا فقال: أيها التلاميذ أبناء مدرسة الطب بأبى زعبل، من دواعى الغبطة والسعادة لنا أننا دعينا إلى هذه الحفلة لنشاهد ما اكتسبتموه بمدرستكم الطبية بمصر من العلوم، وقد أبان لنا تفوقكم أن مدرستكم اعادت إلى مصر شهرتها القديمة فى العلوم الطبية بعد ما أصابها الخمول، والفضل فى ذلك يرجع إلى واليها الأمير الأعظم محمد على باشا الذى قبض على زمامها وسيرها فى الطريق الأقوم ونشر ما طوى من مفاخرها الماضية، وشيد ما قوضته بها أيدي الزمان من معالم

الحضارة والعمران، وأنشاء مدرستكم وانتخب لها الدكتور كلوت بك فأحيا
بعمله الجليل ذكرى مدرسة الاسكندرية الشهيرة فلحضرتة الشكر الجزيل،
ولكم أيها الشبان النجباء منا ايضا جزيل الشكر والثناء، فقد نطقتم بالصواب
بلغة غير لغة بلادكم مما دل على أنكم تعلمتم على أساس متين، وقد جعل
ذلك أملا في انكم ستحيون مجد أجدادكم العظماء من كبار الأطباء كابن سينا
والرازي والزهراوي وانكم ستسيرون على منوالهم وتحيون آثارهم لتكونوا نعم
الخلف لهؤلاء السلف.

الأسطوات :

ولم تتوقف البعثات على الدراسات العليا، وانما شملت ايضا ايفاد
الاسطوات لتعلم الصنائع والفنون التطبيقية، وفي سنة ١٨٣٢ ارسل محمد
على ١٥ تلميذا تحت اشراف أدهم بك منهم اربعة لتعلم معدن الفحم
(التعدين) في انجلترا التي هي أشهر ممالك اوربا بمناجم الفحم والتعدين،
وبعضهم للتدريب في ورش صناعة الحرير.. ومما يذكر عن ادهم بك انه
عندما وصل إلى انجلترا خلع الزي الشرقي المصري، وارتدى الزي
الانجليزي وقد الانجليز في عاداتهم واحوالهم، وما أن علم عزيز مصر بما
حدث من أدهم بك حتى أمر بإعادته إلى مصر مغضوبا عليه، وقال: اننى
بعثته ليعاين فابريقاتهم (يعنى ورشهم ومصانعهم) ويقف على مصانعهم
لبثها في مصر لا ليقلدهم في ملابسهم وعاداتهم، ثم عفا عنه بشفاعة حفيده
عباس باشا وعينه مديرا لديوان المدارس.

أولادنا فى باريس

كان رفاعة رافع الطهطاوى أشهر وأشهى ثمرات البعثات العلمية الكبرى التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، رغم أن المهمة الأساسية لهذا الشاب الأزهرى ان يؤم المبعوثين فى الصلاة ويحثهم على التمسك بالفضائل حتى لا يقعوا فى حبائل الغواية، ولكن عبقرية رفاعة، وحبه للبحث والاطلاع، واستعداده الفطرى للمقارنة، جعله ينغمس فى دراسة الأحوال السياسية والفكرية والاجتماعية المحيطة به، فعاد إلينا وهو يحمل فى عقله أفكارا جديدة كانت الأساس الذى قامت عليه النهضة المصرية - والعربية عامة - فى مجال الفكر والسياسية وأنظمة الحكم الدستورية، ومن هنا طغت شهرة رفاعة الطهطاوى على شهرة مئات المبعوثين الذين تخصصوا فى علوم الطب والهندسة والرياضيات وفنون الحرب، وإذا كان الفكر الحديث لا يزال هائما فى قلب الطهطاوى، ومتصلا بترائه الذى صبه فى «تخليص الأبريز فى تلخيص باريز» و«مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية»، وغيرهما من كتب التنوير، فإن أحدا لا يذكر شيئا عن المؤلفات التى وضعها علماء البعثات بعد عودتهم فى مجال تخصصهم.. من منا يذكر كتاب «ثمررة الاكتساب فى علم الحساب»، و«جامع الثمرات فى حساب المثلثات»، للعلامة

مصطفى باشا بهجت، أو القانون الرياضى فى فن تخطيط الأراضى،
لأبراهيم بك رمضان، أو الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية
لأحمد باشا فايد، أو غاية الفلاح فى أعمال الجراح، ونشر الكلام فى
جراحة الأقسام، للدكتور محمد على البقل باشا، ونزهة الإقبال فى مداواة
الأطفال، للدكتور أحمد حسن الرشيدى بك..

هذه عينة من الكتب التى ألفها علماء البعثات ووضعوا فيها خلاصة
بحوثهم، وصارت هذه المؤلفات تشكل مناهج التدريس فى المدارس العالية
التي أقامها محمد على، وتخرج فيها الرعيل الأول للطبقة المثقفة التي حملت
عبء النهضة العلمية فى القرن التاسع عشر، وإذا أردت ان تعرف حجم
النقلة الهائلة فى الحياة الثقافية المصرية، فما عليك إلا أن تقارن بينها وبين
ما كانت تفرزه القريحة المصرية الخاوية - قبل محمد على - إلا من قشور
سطحية، وتعليقات ضحلة على تراث الأسلاف، ناهيك عن الخرافات
والخرعبلات التي كانت سائدة فى مصر والشرق.

هؤلاء الرواد:

من المفيد، ونحن نقف فى التراث العلمى لمشروع الدولة العصرية التي
أقامها محمد على، أن نزيح الغبار عن هؤلاء الرواد، ونبحث فى أصولهم
الاجتماعية، والبيئة التي خرجوا منها، والظروف التي عاشوا فيها أثناء
إقامتهم فى فرنسا، حتى يتواصل حاضرننا بماضيها، وتتضح لنا معالم اللبنة
الأولى فى الهرم الثقافى المصرى.

إن المعلومات القيمة التي جمعها عمر باشا طوسون فى كتابه الوثائقى
عن البعثات العلمية فى عهد محمد على، تعطينا صورة واقية عن حجم هذه

البعثات والعلوم التي درسوها والمرتبات التي كانت تمنح لهم . ولكن لم يتطرق عمر باشا طوسون إلى القواعد التي تم على أساسها اختيار هؤلاء المبعوثين، أو الجهات التي رشحتهم، أو الأصول الاجتماعية لهم، وإن كانت البيانات التحليلية تدل على أنها كانت تضم مسلمين ومسيحيين، وغير مصريين ينتسبون إلى أصول تركية وشركسية وأرمن وقوقاز وسودان وأحباش من أبناء كبار الموظفين أو الرقيق الذين كانوا يعملون في خدمة ولي النعم، كما كانت تضم تلاميذ ينتمون إلى عامة المصريين الذين توفرت لهم فرص التعليم .

لقد اعتمد عمر طوسون في تأريخه على التقارير التي وضعها عنهم مسيو «جومار» ولكنه اكتشفت بعض الأخطاء في بيانات الطلاب، فصحيحها بالرجوع إلى دفاتر دار المحفوظات المصرية بالقلعة . ومع ذلك فقد عانى المؤلف معاناة جمة في تمحيص هذه الدفاتر لأنها كانت «تقتصر على الناحية المالية فقط وما كان يصرف لهم من مرتبات فضلا عن سقم كتابتها، وتعدد الكاتبين لها بأقلام مختلفة يزيد بعضها على بعض في الرداءة وعدم تحري التدقيق في كتابتها بوجه عام، مما يجعلنا نلقى أشد العداء في استخلاصها . فقد كان القصد منها لم يكن أكثر من قيد ما أنفق على التلاميذ فهي دفاتر حساب لا أكثر ولا أقل، أو دفاتر أصول وخصوم، وذكر أسماء التلاميذ فيها إنما جاء عرضا ضرورة أن لكل منهم حسابا، فلم يكن من الأمور المهمة في نظر كاتبها ذكر أسمائهم واضحة جلية مقرونة بما يميز بعضها عن بعض، ولا ذكر العلم الذي كان يتعلمه كل واحد منهم، وقد يكون هناك عدة أشخاص يحملون اسما واحدا .. وأدهى من ذلك أن يذكر الاسم بأكثر من صيغة .. مثل اسم الشيخ رفاعة رافع، فلم يكتب في هذه الدفاتر إلا

هكذا «الشيخ رفاعي».. إلخ».

وقد اجتهد عمر طوسون في تحقيق أسماء الطلاب والعلوم أو الصنائع التي تخصصوا فيها والمراكز التي شغلوها مستعينا بما ذكره على باشا مبارك في الخطط التوفيقية.. وبذلك توفرت لنا حصيلة جيدة من المعلومات.

البعثة الأولى:

كانت البعثة الأولى التي ذهبت إلى فرنسا في صيف ١٨٢٦ تضم ٤٠ طالبا بخلاف الشيخ رفاعي «إمام البعثة»، وأحمد أفندي مختار المسئول الإداري عنها، ثم التحق بهم فيما بعد اثنان، وقد نجحوا جميعا في الامتحانات النهائية، فيما عدا خمسة لأسباب تعود إلى نقص كفاءتهم أو مرضهم. وبذلك يكون العدد النهائي لخريجي هذه البعثة ٣٩ شخصا. يقول عنهم كلوت بك إن منهم (١١) تخصصوا في علوم الإدارة الحربية والمدنية والسياسية و(٨) في علم الإدارة البحرية والمدفعية والهندسة العسكرية و(٢) في الطب والجراحة و(٥) في الفلاحة والتاريخ الطبيعي والمعادن و(٤) في العلوم الكيميائية و(٤) في علم الهيدروليكا «قوى المياه» وفن صب المعادن وصناعة الأسلحة و(٣) في الحفر والطباعة. وواحدا في فن العمارة، وواحدا في فن الترجمة هو الطهطاوي. وإليك بيانات شخصية عن بعض هؤلاء المبعوثين والأعمال التي قاموا بها بعد عودتهم إلى مصر:

* أرتين أفندي سكياس الأرمني: تخصص في علم الإدارة الملكية. كان مرتبه الشهري ثلاثمائة قرش، عين بعد عودته مديرا لمدرسة الإدارة والترجمة بالقلعة، ثم عضوا في المجلس الأعلى للحكومة فعضوا في مجلس ديوان المدارس، وفي سنة ١٨٣٩ عين سكرتيرا لولى النعم، ثم تقلد نظارة

الخارجية والتجارة خلفا لباغوص بك الأرمنى (خال نوبار باشا) وفى سنة ١٨٥٠ اعتزل الوظائف إلى أن توفى سنة ١٨٥٩ . وأرتين أفندى هو والد يعقوب أرتين باشا صاحب المؤلفات المعروفة عن الملكية الزراعية والذي صار وكيلا للنظارة المعارف حتى عهد عباس الثانى .

* محمد خسرو تيمور أفندى الكرجى (من جورجيا) : أرسل لتعلم الادارة الملكية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش، مرض بأوروبا وتكلف علاجه فى النمسا ٢٢٩٠ قرشا و٣٦ فضة . وعاد من فرنسا سنة ١٨٣١ ويظهر أنه توفى على أثر رجوعه .

* دويدار مصطفى مختار أفندى : أرسل لتعلم الإدارة الحربية وكان راتبه الشهرى ٢٩١٦ قرشا وبعد رجوعه عين عضوا فى المجلس الأعلى للحكومة ومديرا لديوان الحربية، ثم مديرا لديوان المدارس فكان أول ناظر للمعارف فى مصر، وفى عهده أنشئت عدة مدارس .

* رشيد أفندى أباطة : أرسل لتعلم الإدارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش ومما تعلمه صناعة الرصاص .

* أحمد يكن مصطفى أفندى القوللى : يلتسب إلى (قولة) مسقط رأس محمد على وإلى الاسرة اليكنية . وأرسل لتعلم الإدارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش . وتعلم صناعة الرصاص، ورجع ومعه كتب كثيرة فى الفنون الحربية .

* حسن الاسكندرانى أفندى : أرسل للتعلم فى ترسانة (برست) ثم سافر إلى انجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل مع زميليه محمود أفندى نامى ومحمد أفندى شنان وتكلفوا فيها مدة سنة، ١٧٤٧ قرشا و٢٠ فضة، وكان راتبه الشهرى ٤١٦٦ قرشا وبعد رجوعه حاز لقب باشا وصار ناظر البحرية

فقائدا للأسطول ولقى حتفه على ظهر السفينة (مفتاح جهاد) التي غرقت في حرب القرم سنة ١٨٥٥ .

* محمد بيومى أفندى: درس العلوم الرياضية وكان مرتبه مائة قرش، وبعد رجوعه صار كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة ومن نوابغ علماء الرياضيات، ولد بمصر وأصله من دهشور بمديرية الجيزة، وصار استاذا ومرجعا لعلماء الهندسة المصريين ثم انتقل إلى قلم الترجمة بنظارة المعارف، واشترك مع رفاعة الطهطاوى فى العمل، وله جملة مؤلفات فى الهندسة والرياضيات. ونقم عليه عباس الأول فنفاه مدرسا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفى بها، قال عنه على باشا مبارك: كان من أعظم رجال تلك الرسالة، حسن الأخلاق مهيبا جليلا ذا رأى حسن.

* محمد أفندى مظهر: بعث إلى فرنسا لتلقى الهندسة بها، ثم سافر إلى إنجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل، وكان مرتبه الشهرى أربعمئة قرش، نبغ فى العلوم الهندسية والرياضية، وقد امتدحه المسيو «جومار» فى رسالته عن أعضاء البعثات وقال عنه: «إن نبوغ مظهر أفندى فى الرياضيات لما يسترعى النظر، ولما عاد إلى مصر عين ناظرا لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطرة، وهو الذى بنى مدار الاسكندرية الكبير القائم فى رأس التين، واشترك مع مسيو «موجيل» بك فى بناء القناطر الخيرية، وأختص بالأشراف على إنشاء قناطر فرع رشيد، ونال فى عهد اسماعيل رتبة الباشوية. ولما ظهر خلل فى بعض عيون هذه القناطر ارسل إلى فرنسا للنظر فى اصلاحها، ويطلق اسمه على الشارع المعروف بالزمالك.

* أحمد طائل أفندى: من قرية بلتان بالقليلية أرسل إلى فرنسا لتعلم الهندسة وكان راتبه الشهري خمسين قرشا. وعند عودته عين مدرسا فى مدرسة المهندسخانة للعلوم الميكانيكية والجبر، ثم مهندسا للركاب العالى، ثم نفى إلى الخرطوم فى عهد عباس الأول مدرسا بالمدرسة الابتدائية بصحبة رفاعة الطهطاوى ومحمد بيومى، وعاد من منفاه فى عهد سعيد مصابا بالحمى، وتوفى بعد ليلتين من وصوله، قال عنه على مبارك: كان قصير القامة صغير الجسم، كثير الفهم، لايبالى باكثر الأمور، وله جرأة وإقدام على الأمراء، وكان محبا للتلاميذ يرغب فى تعليمهم وأخذ عنه جميعهم.

* أحمد فايد باشا: من كباد بمديرية القليوبية، تخصص فى دراسة الهندسة والكيمياء والرياضيات وكان راتبه الشهري خمسين قرشا، ولما عاد إلى مصر عين معيدا لدروس بهجت أفندى بمدرسة الطوبجية ثم مدرسا بالمهندسخانة وصار من كبار أساتذتها ثم وكيلا لها، وتخرج على يده كثير من المهندسين الكبار، وله مؤلفات فى الهندسة والرى منها (تحرك السوائل، والدرة السنية فى الحسابات الهندسية، كما عمل فى السكك الحديدية حتى صار باشمهندس عموم السكك الحديدية المصرية وإليه يرجع الفضل فى مد خطوطها فى اكثر انحاء القطر وباسمه سميت محطة (فايد) بخط السويس. ونال رتبة الباشوية قبل وفاته سنة ١٨٨٢.

* أحمد بك دقلة: من بسيون غربية نشأ فى مدارس مصر وأرسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة ١٨٢٨ وتخصص فى العلوم الرياضية

وعاد سنة ١٨٣٥ وعين معيدا للاستاذ محمد بيومى فى مدرسة المهندسخانة ببولاق. ثم مدرسا لعلوم الجبر وهندسة الرى والقناطر والجسور ثم وكيلا للمدرسة وانتقل إلى قلم الهندسة. قال عنه على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية: أكثر المهندسين الموجودين تلقوا عنه، وكان حسن الألقاء يجتهد فى التعليم، ويحث على الفهم وكان من اعظم المهندسين. وله من المؤلفات كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) مات سنة ١٨٥٦.

بعثة الصنائع:

وفى أول يناير ١٨٣٠ وصلت بعثة مصرية كبيرة إلى أوروبا مؤلفة من ٥٨ تلميذا لتلقى الفنون الآلية (الصنائع) من بينهم ٣٤ تلميذا ارسلوا إلى فرنسا، وأربعة إلى النمسا، وعشرون إلى إنجلترا، ولم يعثر عمر طوسون على أسمائهم فى دفاتر دار المحفوظات، ولكنه عثر على بعضهم فى مصادر أخرى، ولم تحدد لهم مرتبات شهرية فى الدفاتر، بل كان كل واحد منهم يأخذ فى كل أسبوع مبلغا يسيرا من الفرنكات بمثابة «مصرف يد». ويزداد هذا المصروف لبعضهم إذا تفوق فى صنعه. ويذكر عمر طوسون أن هؤلاء التلاميذ كانوا يتعلمون بجانب صنائعهم أمورا مهمة منها مايرتبط بالصنائع كالرياضيات والرسم، ومنها مايرتبط باللغة الفرنسية، حتى كان كثير منهم يتلقى علم البيان فى اللغة الفرنسية على أساتذة متخصصين. وإليك بعض البيانات عن هؤلاء كما وردت فى دفاتر دار المحفوظات:

* عبد الرحمن: ولم يذكر بقية الاسم ارسل لتعلم صناعة آلات الجراحة فى مصنع المسيو «سيرايزى» وكانت أجرة تعليمه فى سنة، ١٦١١ فرنكا و١٥ صلديا (٤٨٣٥ وربع قرش) على اعتبار أن الفرنك يساوى ثلاثة قروش.

أما التلميذ فكان يحصل على فرنكين صحيحين كل أسبوع ثم صار أربعة فرنكات (١٦ قرشا) وعند عودته إلى مصر تسلم ٢٠٠ فرنك مكافأة له على نجاحه الباهر.

* محمد حاكم: ارسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الساعات فى مصنع الساعات بمدينة ليون، وكان يأخذ فى الأسبوع ثلاثة فرنكات (١٢ قرشا) ثم صرف له مبلغ ١٨٦٤ فرنكا ثمن كتب وآلات. وكان يتلقى أيضا علم البيان فى اللغة الفرنسية على استاذ فرنسى وتسلم عند عودته «بقشيش» قدرة ٢٠٠ فرنك.

* إبراهيم العتال: ارسل لتعلم الصياغة والجواهر. وقد انعم عليه فى أثناء تعليمه بمبلغ عشرين فرنكا لتفوقه فى تعلم صناعة الصياغة، وتسلم ٢٠٠ فرنك بقشيش قبل عودته.

* حسين محمد: أرسل لتعلم صناعة الشمع وكان يأخذ كل اسبوع فرنكا واحدا، وعند عودته إلى مصر أعطى له مبلغ خمسين قرشا مكافأة.

* مصطفى الزرابى: ارسل لتعلم صناعة المنسوجات الحريرية فى فابريكة بمدينة ليون ومنها سافر إلى لندن وكانت تكاليف تعليمه ٩٧٣ فرنكا وكان يأخذ فى الاسبوع فرنكين.

* محمد اسماعيل: ارسل إلى فرنسا لتعلم النقش والدهان بالمباني، وتعلم في فابريكة مسيو غارنى النقاش وتعلم علم البيان الفرنسى على يد استاذ متخصص، وكان مرتبه فرنكين ارتفعت إلى ثلاثة فى الأسبوع.

* سليمان البهناوى: من قرية بهناى بالمنوفية، ارسل لتعلم صناعة السروجية فى فابريكة مسيو هنرى، وسافر إلى لندن وعاد إلى فرنسا وأنعم عليه بمبلغ ٢٠ فرنكا ومبلغ ٥٩٩ فرنكا ثمن قطع حديد وجلد وآلات.

* محمد يوسف: أرسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الأحذية أو الجزم والمراكيب كما فى الدفاتر. وقد مرض هناك وصرفت عليه مصروفات علاج كثيرة ثم شفى وعاد إلى صنعته ثم عاوده المرض وتوفى، وصرف على خرجته مبلغ ٣٨٠ فرنكا و ١٠ صلادى (١١٤١٥ من القروش) وصرف على قبره ٣٠٨ فرنكات: ١٨ ثمن سرير + ١٩٠ ثمن حجر رخام + ١٠٠ أجرة كتابة اسمه بالعربى والفرنساوى على الرخام.

* عبد الرب: كان يتعلم صناعة الاجواخ بفابريكة مسيو أملدلون وكان يأخذ فى الاسبوع ثلاثة فرنكات وكانت أجرة تعليمه فى سنة، مبلغ ٣٦١٩ فرنكا.

* خليل البقلى: كان يتعلم بفابريكة (قلمار) ومعناه مصنع الرسم بالقلم أو بصم الشيت. وكان راتبه الشهرى ٣٢ فرنكا وقد توجه له مسيو جومار وقاوم عليه فى تعلم صناعة النقش بتكاليف بلغت ١٠٨٩ فرنكا فى ثمانية اشهر.

*هنرى روسى: ابن الخواجة روسى ناظر فابريقة دباغة الجلود
برشيد فى عهد محمد على . وهو التلميذ الوحيد فى بعثة الصنائع من
حيث جنسيته الأوروبية ومن حيث أنه كان يأخذ مرتبا شهريا طوال
مدة بعثته . وكانت والدته بفرنسا وكان يزورها كثيرا كما ورد فى دفاتر
المحفوظات، وجاء عنه انه كان يتعلم الرياضيات والكيمياء . وكانت
أجرة تعليمه فى سنة، ٢٦١٥ فرنكا و ١٥ صلدا وقد اشترت له ساعة
ذهبية بمبلغ ٣٢٤ فرنكا عقب قيامه بامتحان فاز فيه . وكان مرتبه
الشهرى ١٠٠ قرش وعاد إلى مصر عام ١٨٣٦ .

مفحة المالك

مذبحة المماليك . هل كانت النقطة السوداء فى تاريخ محمد على

اختلف المؤرخون حول مذبحة القلعة التى دبرها محمد على للقضاء على المماليك .. بعضهم أدان محمد على ليس فقط لأنه سلك أسلوب الغدر وأوقع بهم بطريقة تتنافى مع القيم الإنسانية، ولكن لأنه أفرغ البلاد من القوة العسكرية الوحيدة التى كانت تعتمد عليها البلاد وقبل أن يقوم فيها جيش نظامى يقوم بمهمة الدفاع والحماية .. ومن المؤرخين من يلتمس العذر لمحمد على لأن المماليك فقدوا قدراتهم العسكرية منذ هزيمتهم أمام القوات الفرنسية . وتحولوا الى عصابات للسلاب والذهب .

على اية حال .. لنترك حكم التاريخ مؤقتا .. وندخل فى تفاصيل هذه المذبحة البشعة التى دبرها محمد على بحكمة ودقة .

فى صبيحة يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٨١١ أخذت القاهرة زخرفها وازينت بالأعلام والبيارق، وخرج الأهالى إلى الشوارع لتوديع الجيش المصرى الذاهب إلى الحجاز لحرب الوهابيين، والذى سيأخذ طريقه من باب العزب المطل على ميدان الرميلة بالقلعة إلى شارع الأزهر ثم

ينحرف يمينا فى شارع المعز لدين الله حتى باب الفتوح.. ومنذ الصباح الباكر كان عزيز مصر محمد على باشا يتصدر أريكة الحكم فى قصره بالقلعة ويستقبل الشيوخ والعلماء والقضاة والتجار والأعيان الذين توافدوا عليه للتهنئة والدعاء لقائد الحملة ابنه أحمد طوسون باشا، ولقت الأنظار قدوم كبار الأمراء المماليك على خيولهم المطهمة، وفى ثيابهم المزركشة للإعراب عن سعادتهم بالدعوة التى وجهها إليهم محمد على لحضور الاحتفال، وليكونوا ضمن الموكب الذى سيصاحب الحملة أثناء مرورها فى شوارع القاهرة..

أما وجه الدهشة فيرجع إلى تواجد المماليك داخل عرين الأسد بعد سلسلة المعارك الدامية التى وقعت بين الطرفين، ودارت رحاها فى الصعيد حيث حشد المماليك قواهم ورفضوا الاعتراف بمحمد على حاكما على مصر دون مشاركة من المماليك الذين كانت لهم السيادة على مقدرات البلاد طوال ستمائة سنة، وكانت دعوتهم إلى احتفال القلعة إعلانا عن المصالحة وحقن الدماء وبدء صفحة جديدة تخلد فيها البلاد إلى الهدوء والاستقرار بعد ست سنوات من الاضطرابات والفتن..

كان هذا هو الانطباع الذى رسخ فى ذهن الحضور، وزادت دهشتهم حين وجدوا محمد على يستقبل أعداء أمس بوجه بشوش، وكلمات معسولة، ويسأل عن أحوالهم، ويضفى عليهم من عطفه ما جعلهم يقابلون التحية بأحسن منها ويدعون له بدوام العز والإقبال.. ولم يخطر على بال أحد أن هذه الابتسامات ليست إلا سرايا خادعا يخفى وراءه المصير الدامى والنهاية المفجعة للماليك (١١) ..

كانت العلاقات بين محمد علي والمماليك - منذ انفراده بالحكم - قد وصلت إلى طريق مسدود، وكان من الصعب على المماليك أن يقبلوا بالأمر الواقع، وهو أن محمد علي صار سيدا على مصر بلا منازع، وأن عليهم الأنزواء إلى الظل والعيش في سكون.. فالسكون ليس من طبيعتهم، ويعنى لهم الموت الحقيقي، ولذلك أعلنوا عليه الحرب واستدرجوه إلى الصعيد حيث تتجمع قواتهم منذ أيام الحملة الفرنسية، واستعانوا عليه بالانجليز وجاءت اليهم حملة «فريزر» سنة ١٨٠٧ لتساعدهم على خلع محمد علي ولكن أهل رشيد قاموا بواجب الدفاع عن مدينتهم وطردهوا الانجليز شر طردة، ولم يستسلم المماليك وأخذوا يدبرون المؤامرات لاغتيال محمد علي ففشلوا، وأيقن الثعلب الألباني أنه لا أمل له في البقاء على عرش مصر طالما بقي المماليك ينازعونه السلطان، ويدبرون له المؤامرات.. وهو من عجيبة فطرت على الاستبداد والطغيان وعدم قبول أى شريك له فى الحكم، ووجد أن المواجهة المسلحة معهم سوف تستنزف قواه وتشغله عن هدفه الأكبر، وأن عليه أن يلجأ إلى سلاحه العتيق: سلاح الغدر والمكر والمكيده.. ومع أن المماليك كانوا أساتذة فى فن الغدر، إلا أنهم - فى هذا المجال - كانوا بالنسبة لمحمد علي مجرد تلاميذ (١١) .

خطوات محكمة وسرية تامة

● أعرب محمد علي عن رغبته فى الصلح مع المماليك والسماح لهم بالعودة إلى القاهرة ليعيشوا فى سلام ووثام، وأكل المماليك الطعم،

وقبلوا العرض وأخذوا يتوافدون على القاهرة بعد أن ألقوا السلاح، وخلعوا رداء الحرب، وارتضوا العيش الرغيد والحياة الناعمة فى أحضان حريمهم وجواريهم، وأصدر محمد على إعلانا بالأمان العام والصفح عن الأمراء المماليك، وكل من يلوذ بهم، حتى كان ذلك اليوم الدامى الذى استدرجوا فيه إلى القلعة ولم يغادروها إلا جثثا مضرجة فى دمائها (!!) ..

دبر محمد على خطة اغتيال المماليك فى سرية تامة، وخطوات محكمة، ولم يعلم بها إلا أربعة نفر من خلائه وأقرب المقربين إليه:

● حسن باشا: قائد الفرقة الألبانية ..

● الكتخدا محمد لاظوغلى: الممثل الشخصى لمحمد على وصاحب التمثال الشهير فى الميدان المسمى باسمه بحى المنيرة ..

● صالح قوش: قائد فرقة الأرناؤود التى عهد إليها بتصفية المماليك ..

● إبراهيم أغا: الحارس المسئول عن باب العزب والمكلف بإغلاقه فى وجه المماليك .. ولو شئت الدقة فهو (سمسم) الذى تغلق البوابة بمجرد سماعه كلمة السر .. وكانت كلمة السر: رصاصة يطلقها صالح قوش فى الهواء (!!) ..

ووضعت ترتيبات المذبحة بحيث يتحرك الموكب وفى طليعته فرقة الفرسان الدلاة، ثم والى الشرطة، ثم الأغا (محافظ القاهرة) ثم المحتسب ثم فرقة الوجاقلية وهى إحدى فرق جيش الاحتلال العثمانى،

ثم كوكبة من الجنود الأرنأود يقودهم صالح قوش.. ثم جماعة الأمراء
المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب.. ومن بعدهم بقية الجنود الأرنأود
فرسانا ومشاة..

اللحظة الحاسمة

● وعندما حانت اللحظة الحاسمة، دوى النفير إيذاناً ببداية الرحيل،
فدقت الطبول، وصدحت الموسيقى، ونهض محمد على فهب المماليك
وقوفاً وبادلوه عبارات الود والتحية واستأذنوه فأذن لهم، فامتطوا خيولهم
وأخذوا مكانهم فى الموكب حسب الترتيب الموضوع، واتخذ الراكب
طريقه منحدرًا فى الطريق الوعر الضيق المنحوت فى صخور القلعة
ويفضى إلى باب العزب المطل على ميدان الرميطة حتى إذا اقتربت
الصفوف الأولى من المماليك من باب العزب ارتج الباب وأغلق من
الخارج إغلاقاً محكماً، ولم يفتن المماليك إلى إغلاق الباب، وأخذت
خيولهم تتزاحم بفعل الانحدار الطبيعى حتى وجدوا أنفسهم محصورين
فى الخندق الضيق، وفى حركة سريعة كان الجنود الأرنأود يتسلقون
الصخور المطلة على جانبى الخندق ويشهرون بنادقهم نحو المماليك،
وفجأة.. دوت طلقة فى الهواء.. وبعدها أنهمر الرصاص على المماليك
من فوقهم وعن يمينهم وعن شمالهم ومن ورائهم.. وسدت منافذ النجاة
أمامهم.. وصار من المحال عليهم أن يتحركوا وهم على ظهور الجياد
فى هذا الزحام العصيب، وأزداد هياج الخيول مع صخب أصوات
الرصاص، فأخذت تلقى بالمماليك إلى الأرض وتدوسهم بأقدامها
وكانها تقوم بدور مرسوم لها فى المذبحة.. وحاول بعض الأمراء

الزحف على ركبهم والدماء تنزف منهم حتى وصلوا إلى طوسون ممطياً جواده . وأخذوا يستعطفونه ولكنه أصم أذنيه عن صرخاتهم . وأجهز عليهم الجند ذبحاً ، واستطاع سليمان بك البواب أن يزحف حتى وصل إلى سراى الحريم وأخذ يستغيث لائذا بالنساء ولكن الجند قطعوا رأسه غير عابئين بالتقاليد التى تعطى الأمان لمن يستغيث بالنساء .. وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض حتى بلغ عددها ٤٧٠ قتيلاً هم كل من صعد إلى القلعة فى هذا اليوم الدامى ، ولم يفلت منهم سوى (أمين بك) الذى وصل إلى الموكب متأخراً ، فلما سمع أصوات الرصاص هرع إلى سور القلعة ، ولكز جواده بضربة عنيفة فهوى به من هذا الارتفاع الشاهق ، وقبل أن يلمس الحصان الأرض ، قفز أمين من فوق ظهر الحصان فنجاً من الموت وظل يركض فى الصحراء - عبر سيناء - حتى بلغ أرض لبنان ، وعاش لاجئاً فى كنف أميرها بشير الشهابى ، ويقال أنه عاد إلى مصر بصحبة الأمير الشهابى وعفا عنه محمد على وأعاد إليه زوجته وأولاده .. وقد صاغ قصته چورچى زيدان فى رواية شيقة اسمها (المملوك الشارد) وقدمتها الإذاعة فى مسلسل عام ١٩٥٤ لا يزال عالقاً بذاكرة الجمهور .

وفى الوقت الذى جرت فيه مذبحة القلعة ، كان الجنود الأرناؤود ينقضون على قصور المماليك فى القاهرة ، يذبحون الأمراء ويستبيحون نساءهم وينهبون أموالهم ، وكان الألبان كالوحوش الكاسرة التى تقلمظ شوقاً إلى السلب والنهب والاغتصاب .. ورغم أن أهل القاهرة سارعوا بإغلاق محلاتهم ولجأوا إلى بيوتهم هرباً من فظائع الأرناؤود ، إلا أن الوحوش لم تفرق بين بيوت المماليك وبيوت المصريين ، فأستباحوا كل

ما تصل إليه أيديهم، واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد علي إلى شوارع المدينة وتمكن من كبح جماح جنوده وأعاد الانضباط إلى المدينة التعيسة، وبذلك انطوت صفحة المماليك من تاريخ مصر (١١) ..

حكم التاريخ على المذبحة

ما هو حكم التاريخ على مذبحة القلعة؟ وهل تجاوز محمد علي حدود العقل والحكمة والإنسانية حين قضى على المماليك بهذه الطريقة البشعة، إن المؤرخ عبدالرحمن الرافعي بعد أن شرح تفاصيل المذبحة بكل دقة قال: نحن لا نريد أن ندافع عن المماليك، وقد سجلنا المساوئ التي ارتكبوها، والمضار التي جلبوها على البلاد، ولكن .. مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تاباه الإنسانية، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال، لكان ذلك خيراً له ولسمعته، ولا يسوغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة في ذلك العصر، وأن هذه المؤامرة هي صورة مكبرة لمذبحة أخرى دبرها الباب العالي للفتك بالمماليك سنة ١٨٠٤ بنفس الطريقة، فإن تكرار السيئات لا يبررها .. والجملة - يقول الرافعي - فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة في تاريخ محمد علي ..

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم أنه اضطر إليها دفاعاً عن نفسه، وأن المماليك كانوا يكيدون له حين ذهب إلى السويس لتفقد السفن المعدة لنقل الحملة الوهابية، ولكنه غادر السويس ليلاً وعاد إلى القاهرة قبل إنفاذ المؤامرة، وأنه كان لا يأمن المماليك بعد سفر الحملة وخلو البلاد من القوة العسكرية، فكان عليه أن يقطع دابرهم قبل أن

يتكالبوا عليه، ولكن الراقعي يرفض هذه التبريرات التي تفتقر إلى السند، ويرى أن مذبحة القلعة لم تكن بسبب أحداث آنية، ولكنها ثمرة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على مشروع الحملة الوهابية..

ولم تلق المذبحة تأييداً حتى من اصدقاء محمد على المدافعين عنه وعن حكمة، ومنهم صديقة الفرنسي مسيو «مانجان» الذي يقول: إننى أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك، على أننى أعده من بعض النواحي خيراً لمصر، فإن بقاءهم يفضى إلى حرب هي أضر على البلاد من الإيقاع بهم كما أن إرادة الباب العالي كانت تؤدي إلى استمرار تلك الحرب، فالضربة الجريئة التي ضربها محمد على تنفيذاً لأوامر الباب العالي السرية، قد قضت على نظام المماليك وكانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجياً، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا، ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن سلامته كان يقضى أن يلجأ إلى طرق حازمة، فقد كان محاطاً بجنود فطروا على الشغب والفوضى، وكان مضطراً إلى إنفاذ جزء كبير من قواته إلى جزيرة العرب، فكان عليه أن يفكر في إضعاف خصومه الذين يزدادون قوة ونفوذاً، فقد بلغه كل ما قيل أنهم كانوا يأترون به ليختطفوه عند عودته من السويس، ولما علم أن السياح الإفرنج يلومونه على اغتيال المماليك واعدونه عملاً منافياً للإنسانية، صرح بأنه ينبغي أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك بجانب المذبحة التي ارتكبتها نابليون ضد الدوق، «دانجان» حيث اتهمه ظلماً بالتآمر عليه وأمر بقتله في محاكمة صورية..

ويقول مسيو «جومار» الذى اختاره محمد على مشرفا على البعثات المصرية فى باريس: لو أمكن محو تلك الصفحة الدموية من تاريخ مصر، لما صار محمد على هدفا لأحكام التاريخ القاسية..

المظالم الممالك

ورداً على قدرة الممالك على إقصاء محمد على يقول الرافعى إن البقية الباقية من الممالك كان قد ضعف شأنهم، وتقلمت أظافرهم حتى لم يبق من وجودهم خطر على نفوذ محمد على وسلطانه، فماذا كان يستطيع إبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهما أن يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من الممالك الذين كانوا يحيطون بهم؟ وماذا كان يستطيع أن يفعله شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك وغيرهم وقد تركوا إخوانهم فى الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا حياة الكر والفر لينعموا بالرفاهية ورغد العيش؟ وما نظن مطلقاً أن ثمة خطراً كان يهدد محمد على من هذه الناحية، وما نظنه كان فى حاجة إلى التخلص من تلك البقية الباقية من الممالك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر..

وحول آثار المذبحة على الروح المعنوية للشعب المصرى. يقول الرافعى: إن الفتك بالممالك على هذه الصورة الرهيبة، كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس، واستولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكناً - إلى زمن طويل - أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا، وهى قوام الأخلاق

والفضائل القومية، فإذا فقد الشعب الشجاعة وصلت الرهبة مكانها، كان ذلك نذيراً بانحلال الحياة القومية وفسادها، فالرهبة التي استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها في إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية، وتلك خسارة كبرى، فإنما الأمم أخلاق وفضائل، أضف إلى ذلك أن هذه الحادثة وقعت في الوقت الذي كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولادة الأمور ودبت فيها روح الحياة الديمقراطية، وتعددت مظاهر هذه الروح بما حدث من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم، فتحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح وأحلت مكانها روح الرهبة من الحكام، الأمر الذي جعل محمد على أكثر أطمئناناً على انفراده بالحكم، فلم يظهر من الشعب طوال السبع وثلاثين سنة التي قضاها في الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد..

ويختتم الرافعي تحليله لآثار مذبحة القلعة بهذه العبارة القوية: «مع الاعتراف بما أسداه محمد على من الخير للبلاد، فإنه لم يعوض الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية: ناحية الشجاعة الأدبية، والروح الديمقراطية، تلك الناحية التي هي من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية..»

دور أتباع سان سيمون فى مشروع محمد على

حين شرع محمد على فى تأسيس مصر الحديثة حرص على أن تكون بمنأى عن أطماع الدول الأوربية حتى يحفظ عليها استقلالها الوطنى ولذا كف يده عن الاقتراض من البنوك الاجنبية رغم حاجته إلى المال لتنفيذ مشروعه الكبير كما اعرض عن مشروع حفر قناة السويس حتى لا تتحول إلى «بوسفور» آخر يضع مصر تحت رحمة الدول البحرية كما حدث للدولة العثمانية وادرك بفطنته أن مصر هدف لأطماع الرأسمالية الأوربية المتحفرة للسيطرة والاستعمار وكانت اصداء الحملة الفرنسية لاتزال تتردد فى انحاء مصر وبعثت انجلترا حملة «فريزر» لاحتلال مصر بعد عامين فقط من جلوسه على عرش مصر ولكن هذه الاحتياطات الوقائية لم تمنع محمد على من ان يمد ذراعه إلى أوربا الثقافية يستمد منها الخبرة فأوقد البعث إلى العواصم الأوربية واستقدام الخبراء والفنيين من كل صنف ليساعده على بناء مشروعه الحضارى وصار هؤلاء يتسابقون على الرحيل إلى مصر بعد أن تحولت إلى ورشة عمل هائلة.

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تموج فى حالة من الفوضى العقلية والخلقية والشعور بخيبة الأمل أمام فشل الثورة الفرنسية فى تحقيق شعارات العدالة والحرية التى نادى بها فلاسفة الثورة ولكنها تحولت على أيدى الطغمة الإرهابية إلى مصدر للتعاسة والشقاء وفى خضم هذا الحشد الفكرى برزت فلسفة «سان سيمون» الذى بدأ حياته باحثاً فى علوم الاجتماع وانتهى إلى كونه أحد فلاسفة هذه العلوم حتى اعتبره بعض الباحثين المنشئ الحقيقى لعلم الاجتماع الحديث .. ويكفى لتقويم مكانته أن العالم المرموق «أوجست كانت» كان سكرتيراً له ومشاركاً له فى أبحاثه العلمية . ونشأ «سان سيمون» منذ طفولته متمرداً على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ثائراً على الظلم الاجتماعى الذى تفشى بعد سقوط الثورة فى أحابيل الدكتاتورية فعكف على دراسة العلوم البحتة كالرياضة والهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء وتوقف مبهوراً أمام انجازات العلامة الانجليزى «نيوتن» فاتخذ منه نبياً لدين جديد هو دين العلم أو دين نيوتن ودعا إلى نبذ العقائد والأخلاق الكاثوليكية لتحل محلها عبادة العلم ودعا إلى قيام مجتمع جديد تكون السلطة العليا فيه للعلماء والفنانين ورجال الصناعة، والصناعة عنده لا تعنى الميكنة واستخدام الآلة وإنما تعنى العمل المنتج فى كافة صورة فالعمل اليدوى صناعة والعمل الإدارى والتنفيذى صناعة والعمل التجارى والزراعى صناعة سواء بسواء، ومالك الأراضى أو العقار وصاحب رأس المال يعد صانعاً إذا قام بإدارة أعماله ودعا إلى استخدام الموسيقى كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والصناعى وطلب من الشاعر «روجيه دى ليل» مؤلف نشيد «المارسيلىز» أن يؤلف «لحن الصناع» ليتغنى به العمال

أثناء العمل ورأى انه من الضروري اعداد جيل من العلماء الذين سوف يتولون مقاليد الأمور فى المجتمع واخذ يشجع الشباب المثقف لارتياح بيته فتكونت منهم الجماعة الأولى لرواد الحركة الفكرية فى القرن التاسع عشر. وبعضهم حمل لواء «السان سيمونية» إلى مصر.. وظل «سان سيمون» مبتعدا عن الانغماس فى السياسة العامة وكانت ثقته كبيرة فى مقدرة وكفاءة «نابليون بونابرت» وكان يتوقع منه انتهاء الفوضى التى خلفتها الثورة ولكنه انقلب على بونابرت بعد أن كشف عن وجهه الدكتاتورى وانحرف عن مبادئ الحرية وصار من ألد خصومة وتعرض «سان سيمون» إلى مطاردة أجهزة الأمن حتى فقد مصادر الرزق وهبط إلى حافة الجوع وغلب عليه اليأس فأطلق على رأسه رصاصة قاصدا الانتحار ولكن الرصاصة انحرفت وذهبت بعينه اليسرى وعاد «سان سيمون» إلى أبحاثه ودراساته الفلسفية طوال السنوات الخمس الأخيرة من حياته وانتهى إلى البحث عن وسيلة للنهوض بالإنسانية إلى اسمى درجات الكمال عن طريق وحدة المعرفة الإنسانية وقيام حكومة موحدة لإدارة شئون الإنسانية تسند إلى هيئة من العلماء والفنانين المنتجين الذين يؤجرون عن طريق الاكتتاب العالمى ويطلق عليها اسم «مجلس نيوتن» وفى زعمه «أن الله قد أوجد نيوتن بجانبه واسند إليه إدارة شئون البرية».. واستغرق فى تأملاته وشطحاته حتى خيل إليه أن الله يحدثه ويوصى إليه بفكرة الديانة الجديدة فيقول له: أن مجلس نيوتن سوف يمثلنى على الأرض فيقسم الإنسانية إلى أربعة اقسام يطلق عليها إنجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية وسيكون لكل قسم من هذه الاقسام أربعة مجلس يتكون على

غرار المجلس الرئيسى وسوف يرتبط كل فرد فى العالم مهما كان موطنه بأحد هذه الاقسام وبالمجلس الرئيسى وبمجلس القسم الذى يتبعه ويرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة هى البذرة الأولى لانشاء منظمة دولية تمثلت بعد ذلك فى عصبة الامم بعد الحرب العالمية الأولى وهيئة الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية .

ومن فكرة الحكومة العالمية انطلق «سان سيمون» إلى المجتمع العالمى المثالى الذى يقوم على التعاون والأخاء والاستقرار بدلا من السيطرة والتسلط وان ترتبط قارات العالم عن طريق القنوات المائية ومنها قناة السويس وإذا كان «سان سيمون» لم يشهد تحقيق هذا الحلم إلا أن أتباعه جعلوا من مشروع قناة السويس الهدف الاسمى لنشاطهم وشدوا الرحال إلى مصر لتنفيذ الفكرة التى اعتنقوها عن ايمان يثير الدهشة وكان الأب «بارتلمى بروسبر انفانتان» اكبر هؤلاء المريدين وهو الذى قاد الحركة الفكرية «السان سيمونية» بعد وفاة مؤسسها عام ١٨٢٥ وتعرض لمحن قاسية نتيجة اخلاصه وتحمسه فى تنفيذ مبادئ استاذة أو رسول الإنسانية - كما كان يسميه - وسيطرت على عقله فكرة الذهاب إلى مصر باعتبارها ارض المستقبل مثلما كانت مهد الحضارة فى الزمان الغابر. وخلال الفترة التى قضاها «انفانتان» فى سجن «سان بلاجى» فى باريس تولدت فى ذهنه فكرة الرحيل إلى مصر وكان يستيقظ من نومه هاتفاً: الشرق.. تلك الكلمة الساحرة المليئة بالضياء والغموض.. الشرق الغامض غموض الصحراء.. الشرق معناه مصر.. مصر الساحرة ارض فرعون وموسى.. ارض النيل.. وما ادراك ما هى مصر!

وفى اليوم الذى غادر فيه «انفانتان» السجن كتب مخاطباً مصر:
غادرت سجنى فى الغرب وسأضع نفسى فى خدمتك والتف حوله خلق
كثير من الذين امنوا بافكار «سان سيمون» الذين يتميزون بارتداء
السراويل البيضاء والقمصان الحمر ويطوفون الشوارع لدعوة زملائهم
للسفر إلى مصر ليضعوا فئهم وخبرتهم تحت امرة حاكمها محمد على
مدفوعين بحافز انسانى هو وصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر
ويجعلون من هذا الاتصال وسيلة للتقارب الثقافى والاخلاقى
والاقتصادى بين الشعوب وتحويل مصر من بلد زراعى إلى بلد يعتمد
على الصناعة ومنتجاتها لتحقيق فكرتهم عن التصنيع واستغلال
الانسان للطبيعة بدلا من استغلاله لأخيه الانسان كما كانوا يحملون فى
عقولهم افكارا اجتماعية تسعى إلى تغيير نظرة الشرق المحافظ إلى
المرأة باتاحة الفرصة أمام الفتاة للتعليم والتثقيف واقامة دعائم التربية
الاجتماعية التى تعمل على توافر العدالة والمساواة إلى ابعد حد.

معاونة محمد على

وصلت الدفعة الأولى من اتباع سان سيمون إلى الاسكندرية فى
شهر سبتمبر ١٨٣٣ وعلى رأسها الأب «انفانتان» على ظهر سفينة
ترفع على ساريتها علم مدرسة «سان سيمون» وتضم عددا من الخبراء
والمتخصصين فى كافة العلوم ولدى وصول السفينة إلى ميناء
الاسكندرية اعلن «انفانتان» نعم اننى جئت إلى مصر لاقوم بتوصيل
البحرين بعضهما ببعض وتدعيم اتجاه عزيز مصر- محمد على-
الدكتاتورى فى إلغاء الملكية الوراثية فى الأرض الزراعية.. ونأمل أن

يتم هذه الاتجاه عن طريق الاستغلال المثمر لموارد البلاد عن طريق كشف المناجم وإنشاء مدرسة للهندسة وإقامة زراعات جديدة وتحسين وسائل الري والصرف في مصر وعلى الفور اسند «انفانتان» إلى المهندس «فورنل» بأعداد مشروع حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر. ثم رحل إلى القاهرة حيث حل ضيفا على صديقه القديم الكولونيل «سيف» الذي صار سليمان باشا الفرنساوى وبدأ فى البحث عن وسيلة لمقابلة محمد على باشا عن طريق «فردنان ديلسبس» نائب قنصل فرنسا العام فى مصر. وتمت المقابلة وفى اثناء عرض مشروع القناة لم يحز القبول من محمد على الذى كان مشغولا فى تلك الأيام بفكرة إقامة القناطر الخيرية على النيل.. ولأن مشروع القناة يتطلب الحصول على قروض من البنوك الأجنبية وهو المبدأ الذى كان يأباه محمد على بشدة.. ولكن تحت الحاح «انفانتان» و «فورنل» طلب محمد على عرض المشروع على المجلس الأعلى - وهو بمثابة الوزارة - ولكن المجلس رفض المشروع وفضل المضى فى إقامة القناطر الخيرية وظهر كان أحلام اتباع «سان سيمون» قد تبدت ولكنهم لم ييأسوا واستمروا فى البقاء فى مصر لتنفيذ أفكارهم الإصلاحية فى مجال الزراعة والصناعة والحرف والمجال الاجتماعى.

وهنا تبدأ حلقة مجهولة فى تاريخ المشروع الحضارى الذى تبناه محمد على واعنى به الدور الذى قام به اتباع «سان سيمون» خلال إقامتهم فى مصر ووجدوا فيها تربة صالحة لبث أفكارهم الإصلاحية ولم تحظ هذه الصفحة بعناية المؤرخين الذين أرخوا لمحمد على

والمؤثرات الأوربية فى حركة النهضة التى قادها ولم أجد فيما كتبه «الرافعى» عن عصر محمد على أية إشارة إلى أتباع «سان سيمون» رغم أنه اشار إلى أسماء بعضهم عرضاً عند حديثه عن المدارس الحربية والمشروعات الهندسية التى ساهموا فى إقامتها دون أن يذكر انتماءاتهم الفكرية الى أن عثرت على كتاب عالم الاجتماع المصرى الدكتور محمد طلعت عيسى الذى يحمل عنوان «أتباع سان سيمون» وفلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر، وهو فى الاصل رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ واستخلص فيها السمات الجوهرية لفلسفة سان سيمون الاجتماعية وأسباب الفشل فى تطبيق مذهبهم فى فرنسا والدوافع التى جعلت أتباعه ينطلقون نحو مصر لتنفيذ أحلامهم المثالية وفى مقدمتها حفر قناة السويس.

ولقد تضمنت رسالة الدكتور طلعت عيسى معلومات فى غاية الأهمية استقاها من الوثائق السرية التى ظلت مطوية فى ارشيف وزارة الحربية الفرنسية زهاء قرن وربع القرن وهى وثائق تلقى الضوء على حلقة مفقودة فى تاريخ المدرسة السان سيمونية والدور الذى قاموا به لتطبيق فلسفتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كما انه يكشف النقاب عن أصل المشروع الذى تقدم به «ديلسبس» إلى محمد على أولاً ثم إلى سعيد باشا ثانياً لحفر قناة السويس وعلاقة هذا المشروع بالتقرير الذى أعده أتباع سان سيمون أثناء إقامتهم فى مصر وبالمقارنة بين المعلومات التى ذكرها الرافعى والمعلومات التى توصل اليها طلعت عيسى يتبين أن ديلاسبس حصل على نص المشروع الأول ولكنه نسبه

إلى نفسه وتكرر لأصحابه الأصليين فى عملية من عمليات النصب التى اشتهر بها «ديلسبس» .

مراحل مشروع شق القناة

فى سرده للمراحل التى مرت بها فكرة شق القناة يقول الرافعى أن بونابرت فكر فى وصل البحرين وعهد بدراسة المشروع إلى مسيو «لويير» كبير المهندسين فقضى عامين فى دراسة المشروع وفحصه وعاونهُ بعض مهندسى الحملة الفرنسية وقدم تقريره إلى بونابرت بعد مغادرته مصر فى ٣٠٠ صفحة واعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار وبعد مرور نحو ثلاثين عاماً على هذا التقرير يذكر الرافعى أن ديلسيبس جاء إلى مصر لأول مرة عام ١٨٣١ فى منصب نائب القنصل الفرنسى ووجد العطف من ناحية محمد على نظراً لما كان بينه وبين والد ديلسيبس من مودة قديمة حين كان قنصلاً فى مصر عام ١٨٠٣ وفجأة يقفز «الرافعى» على الأحداث فيقول أن تقرير «لويير» وقع فى يد ديلسيبس فى الاسكندرية فاكب على دراسته دراسة عميقة ولم يلبث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع وصل البحرين بقناة بحرية ثم انتقل بحكم منصبه إلى بلاد أخرى ولكنه لم ينس المشروع وفى سنة ١٨٤٦ تألفت لجنة فنية من بعض المهندسين من مختلف الأمم لدراسة المشروع وجاء أعضاؤها إلى مصر فى أواخر عصر محمد على واستمروا إلى عهد عباس الأول وعاونتهم الحكومة فى اجراء تلك الابحاث وعهدت بتخطيط المواقع إلى بعض كبار المهندسين مثل مسيو «لينان» باشا (وهو فرنسى) فضلاً عن ثلاثة من

المصريين وانتهت اللجنة إلى أن فرق المستوى بين البحرين ليس خطيرا واقرحت شق ترعة بين البحرين تجتاز الدلتا ولكن محمد على كان منذ البداية معرضا عن مشروع القناة فلم يستجب لدعوة المهندسين والماليين الأوربيين فكان يردهم بلطف ويعددهم ويمنيهم ولكنه كان يضم رفض المشروع حتى الباحث في رواية الرافعى، يكشف العديد من الثغرات:

أولاً: كيف وقع تقرير «لويير» الذى سلمه إلى بونايرت فى باريس فى يد ديلسبس فى الاسكندرية بعد ثلاثين عاما من رحيل الحملة الفرنسية؟

ثانياً: من هم المهندسون الدوليون الذين تشكلت منهم لجنة فنية عام ١٨٤٦ - أى فى عهد محمد على - ومن الذى كلفهم بهذه الدراسة وما هو دور ديلسبس فى هذه اللجنة؟

ثالثاً: ما هى الصفة التى ساهم بها «لينان» باشا فى إعدادات المشروع وهل كان ديلسبس على صلة بهذه اللجنة رغم ابتعاده عن مصر؟

كل هذه الثغرات تشكل علامات استفهام كبيرة حول مشروع حفر قناة السويس والدور الذى قام به أتباع سان سيمون فى اعداد المشروع قبل أن «يلهفه» منهم ديلسبس ويتقدم به إلى صديقه الوالى سعيد باشا والدراسة التى قام بها الدكتور طلعت عيسى تكشف هذه الحلقة المفقودة عن رسالة أتباع سان سيمون فى مصر، لقد رفض محمد على المشروع الذى عرضوه عليه فكانت صدمة شديدة الوقع عليهم وانهارت آمال

فورنل فى تحقيق فكرة الانسانية العالمية التى كان ينشدها من وراء رحلته إلى مصر فصمم على الرحيل إلى بلاده وظل انفانتان فى مصر يصارع من أجل مشروعه وكتب إلى زميليه «هوار» و«يرينو» بحثهما على الإسراع بالحضور إلى مصر وأن لا يأخذا من عودة فورنل دليلاً على فشل مهمتهم وطلب منهما أن يصحبا معهما نفرا من المهندسين والعمال المهرة والإخصائيين فى الأعمال المائية وكتب إلى زملائه «هولستين» و«أوليقييه» و«أوروبان» الذين استقروا فى مدينة السويس ينبئهم بقرار رحيل «فورنل» ويطمئنهم على وحدة صفوفهم وبذل «انفانتان» الكثير من الجهد والصبر فى سبيل تحقيق وحدة الصف وتشجيع الأتباع على مواصلة العمل من أجل إقامة مشروع القناطر الخيرية وأخذ يضيف على المشروع كل مظاهر الجمال والتضحية وعمل جاهداً على إقناع الأتباع بأنه السبيل الوحيد إلى تحقيق فلسفتهم الاجتماعية بعد أن تبخر مشروع حفر القناة ويقول أنه لأية أمة يمكنها أن تنشئ اليوم عملاً سلمياً بمثل هذه العظمة ولنعرف أن قيام هذه القناطر هو تثبيت لدعائم العلم ونصر أكيد للاتجاه الصناعى وإذا كان هذا العمل يتصف بطابع الانانية القومية إلا أنه يجب أن نغتنب لنجاحنا فيه فبعد فيضان النيل سوف يكون تحت امرتى جيش قوامه أربعون ألف رجل ويلاحظ الدكتور طلعت عيسى أن «انفانتان» كان يبالغ كثيراً فى تقديراته فهو لم يكن المدير الفعلى لمشروع القناطر ولكن «لينان» باشا الذى كان ضابطاً سابقاً فى البحرية الفرنسية هو الذى يتولى تنفيذ المشروع. والجدير بالذكر أن «لينان» هذا يتصدر قائمة أتباع سان سيمون الذين جاءوا إلى مصر وعددهم خمسة وخمسون رجلاً.

وفى أثناء ذلك عاد «بارو» إلى مصر ولحق برفاقه فى العمل فى مشروع القناطر واتجه كل فرد من الاتباع إلى العمل الذى يناسب استعداداه فانهمك «آلريك» فى تحت تمثال لمحمد على وآخر لابنه إبراهيم الذى اختار «آلريك» فيما بعد ليكون مدرساً للرسم فى مدرسة الجيزة والتحق «أوريان» «وجرانال» بمدرسة الفنون الجميلة التى انشئت فى مصر لأول مرة وصار «فيرينو» قائداً فى حرس محمد على باشا و«لامير» مديراً لمدرسة المدفعية بطرة و«لينان» كبيراً لمهندسى مصلحة الطرق والكبارى أما «أوريان» فقد اعتلق الاسلام وتسمى باسم إسماعيل وعمل مدرساً للهندسة فى مدرسة بولاق العسكرية وتولى «برون» إدارة مدرسة الطب كما لحق بالأتباع فريق من النساء ومنهن «سوزان فولكان» التى سجلت ذكرياتها فى مصر تحت عنوان (يوميات سيدة سان سيمونية فى مصر) ويعتبر كتابها مرجعاً حقيقياً للنشاط اتباع سان سيمون.

بهذا بعثت الحياة من جديد فى الجماعة بعد التفكك والإخفاق واهتموا بمشروعات حضارية منها انشاء مدرسة للمهندسين بالقناطر ومدرسة للبيادة فى دمياط ومدرسة للفرسان بالجيزة رغم معارضة محمد على فى أول الأمر وإقامة مزرعة نموذجية فى شبرا ومدرسة البنات بالجيزة ولكن مع تعثر مشروع القناطر لأسباب فنية دب اليأس من جديد فى أفراد المدرسة السان سيمونية وزاد فى تعقيد الأمور انتشار وباء الطاعون فى الاسكندرية وتصاعدت متاعب رئيس الفريق «انفانتان» بسبب احتجاج أسرته على تركه لهم فكتب يقول لصديق:

انهم لم يفهموا على الاطلاق لقد أعمتهم آلامهم الذاتية عن الام
الانسانية عامة . انهم لم يفهموا أن الله قد أرسلنى لانقاذ البشرية كما
فعل من قبل عيسى ومحمد وسائر الانبياء وفى وسط هذه الدوامة نزل
نبأ جديد كان له وقع الصاعقة على انفانتان ورفاقه هو تأجيل تنفيذ
مشروع القناطر الخيرية فكان الصدمة الثانية بعد رفض مشروع قناة
السويس وكتب لامبير . لقد ماتت الأسرة وتساقط الوحل والتحقيق فوق
رأس الاب «انفانتان» وتخلى عنه الكثير من الاتباع . وعاد معظم الاتباع
إلى فرنسا بينما ظل نفر منهم يواصلون رسالة المدرسة فى مصر فضلوا
الحرمان المادى والمعنوى على العودة إلى وطنهم خافضى الرؤوس
وصمموا على حمل الرسالة التى جاءوا من اجلها مهما كانت
التضحيات .

مشروع عالمى للقناة

وفى يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ عاد «انفانتان» إلى باريس وقد تملكه
شعور عميق بالألم لعدم تمكن المدرسة السان سيمونية من تحقيق
اهدافها السياسية والدينية ومع ذلك ظلت فكرة الانسانية العالمية تملك
عليه شغاف قلبه ولم يفقد ايمانه بضرورة شق قناة السويس وتلقى من
فشله الأول درساً فى ضرورة تعديل وسائله لتحقيق هدفه وتبين له
خطأ أن يعمل الاتباع منفردين ولا بد لهم من الاستعانة بقوى عالمية
وممولين ودبلوماسيين وفى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦ تكونت جمعية مهمتها
دراسة مشروع قناة السويس وضمت الجمعية خبراء من الالمان
والانجليز والنمساويين وكان يمثل فرنسا فى هذه الجمعية «انفانتان»

وجعل من بيته مقرا للجمعية على أن تلتقد في يوم الاثنين الأول من كل شهر.

وفي الاجتماع الأول للجمعية خطب انفانتان فقال: أننا نشعر بأهمية إعدادنا لهذا المشروع الذي يعتبر أكبر عمل صناعي قامت به الإنسانية ومن واجبنا أن ننفذه بعيدا عن أى صراع قومي بالمعارنة القلبية لثلاثة شعوب كبيرة كانت السياسة تفرق دائما بين أهدافها. يجب أن نسجل أمام العالم حبنا للسلام ورغبتنا في تحقيق همزة الوصل بين طرفي العالم القديم: الشرق والغرب وكتب «انفانتان، إلى زميله «تالابو، في مصر لكي يرسل إليه خطة عملية للمشروع يمكن على أساسها تحويل الجمعية الخاصة إلى مشروع سياسي يوضع موضع التنفيذ. ودخل المشروع مرحلته الحاسمة عندما التقى «انفانتان، بدبلوماسي فرنسي شاب تعرف عليه في مصر هو: فرديناند ديلسبس، الذي بذل من معونته الرسمية والشخصية ما يسر لاتباع سان سيمون مهمتهم في مصر وخاصة الاتصال بمحمد علي

يقول الدكتور محمد طلعت عيسى وجد انفانتان في ديلسبس الوسيلة العملية لتحقيق امنيته لما بينه وبين سعيد باشا من صداقة وطيدة فقام انفانتان بتسليم ديلسبس في صيف ١٨٤٥ كافة المستندات الضرورية اللازمة لاقتناعه بأهمية المشروع وفي إحدى مذكرات انفانتان المحفوظة بمخطوطات مكتبة الترسانة بباريس نجد هذه العبارة بخط الأب «انفانتان»:

«لقد تسلم السيد ديلسبس من السادة «أرليه وإنفانتان كافة المعلومات والمستندات التى يملكانها عن هذه المسألة فقد جاء إلى ليون ليتفق معهم قبل رحيله وأعطى خطاباً للتعارف بالسيد «تالابو» الذى قام بزيارته أيضاً فى مارسيليا قبل إبحاره».

وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٤٥ كتب «ديلسبس» من مصر إلى «تالابو» قائلاً: كل ما يمكن عمله هنا يسير فى طريقه المطلوب مهمتكم هى أن تهيئوا الرأى العام فى إنجلترا وفى نفس الوقت كتب إلى «أرليه» يبدولى أنك سوف تصبح الرئيس الطبيعى للمجلس التنظيمى المنتظر لشركتنا.

وتمر تسع سنوات يموت خلالها محمد على ووريثه عباس الأول ويتصدر أريكة مصر سعيد باشا وينجح ديلسبس بأساليبه الشيطانية فى أن ينتزع من والى مصر فى ٥ نوفمبر ١٨٥٤ فرماناً يخوله شق قناة «السويس» فكيف حدث هذا التحول المفاجئ وكيف صار المشروع لقمة سائغة فى فم «ديلسبس» الذى تنصل نهائياً من رفاق الأمس الذين أعدوا المشروع؟

فى ذلك يقول الدكتور محمد طلعت عيسى وإن كان التاريخ يطوى ركناً هاماً من أركان هذه المرحلة معتمداً على تأكيد أن «ديلسبس» بعدم اتصاله بأتباع سان سيمون وبأن المشروع إنما جاء من وحي المصادفة عند زيارته مع سعيد باشا لمنطقة صحراء السويس وقبول سعيد فوراً للمشروع فإن المستندات والرسائل المتبادلة بين «ديلسبس» وأباع سان سيمون ومذكرات «إنفانتان» الشخصية تؤكد وجود هذا الارتباط نتبين من مذكرات الأب إنفانتان أن (جمعية دراسة مشروع

السويس) رحبت ترحيباً كبيراً بنجاح دلسيس وعقدت الجمعية اجتماعاً عاجلاً لاعداد مشروع تحويلها إلى (شركة عالمية) ووقع الاختيار على «دلسيس» ليكون مديراً عاماً للشركة وكتب إليه لأخذ موافقته ولكن حدث التحول الفجائي في مسلك الدبلوماسي الشاب وتنكر لأتباع سان سيمون وبلغ به التحدي انه رفض اشراك أى أحد من اتباع سان سيمون في العقد التأسيسي للمشروع وحاول الاتباع عبثاً أن يلجأوا إلى الباب العالي في القسطنطينية لأن «دلسيس» كان يعتمد على سند أقوى منهم وهو بلاط الامبراطور نابليون الثالث.

عزاء وسلوان

وفي ختام حياته كتب الأب «أفانتان» يعزى جهاده طوال عشر سنوات من أجل شق قناة السويس ويقول: في عام ١٨٣٣ مات اثنا عشر من أبنائى بالطاعون في بطن الحجر ورفاتهم التى غطتهم القناطر التى كانوا يقومون بانشائها حملتها مياه النيل نحو هذا البحر الذى نريد أن نستخدمه كوسيلة لربط الانسانية العظيمة عبر القارات لقد كنت أمل أن أن تكون قناة السويس عملاً من أعمال مدرسة سان سيمون وان يتوج باسمنا واحسب ان كل اتباعنا الأحياء سوف يجدون فيه العزاء الوحيد للتضحيات التى بذلوها فى سبيل ايمانهم برسالتهم كما يعز على أن يتحول دورنا إلى مجرد متفرجين..

ويختتم الدكتور طلعت عيسى بحثه القيم بهذه العبارات المؤثرة: مهما كانت النتائج السياسية لشق قناة السويس ومهما حاول دلسيس أن

يستقل ببطولة هذا العمل فإن إغفال أتباع سان سيمون في المشاركة في تنفيذ هذا المشروع أفقده ركناً أساسياً من الأركان الاجتماعية للفلسفة السان سيمونية وهو «أن الأخلاق يجب أن تقوم على العمل، وأن الإنسان يجب ألا يستغل أخاه الإنسان بل يجب أن تتوحد الجهود لاستغلال الطبيعة نفسها لصالح الإنسان لقد جاء مشروع ديلسبس صورة سوداء في تاريخ الإنسانية وتاريخ فرنسا بصفة خاصة فإن أعمال السخرة والتعذيب التي لازمت شق القناة بعرق ودماء آلاف المصريين لا تتفق بحال مع فكرة الإنسانية العالمية ولا مع مبادئ سان سيمون ولا يمكننا أن نعتبر أتباع سان سيمون مسئولين عن التطور المفاجئ الذي لحق بمشروعهم أو عن التيارات السياسية الاستعمارية التي احاطت به وجعلت منه مسرحاً للكسب الاستعماري واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان دون أي اعتبار لفكرة الإنسانية العالمية التي جاهد أتباع سان سيمون حوالى ربع قرن من الزمان في سبيل تحقيقها ومن العدل أن نشير إلى الدور الذي لعبه «انفانتان» والأفكار النبيلة التي أوحى إليه به ووجهة نظره السامية وفوق كل ذلك تلك الروح التي أظهرها بعد أن اغفل تماماً هو وإبناء المدرسة السان سيمونية من أي إشارة إلى جهودهم في المشروع.

تأسيس الجيش المصرى

فقدت مصر قوتها الحربية منذ سقوطها امام جحافل الفرس بقيادة قمبيز.، قبل خمسة قرون وربع قرن من ميلاد المسيح،

ومنذ تلك الهجمة البربرية انحل الجيش المصرى الوطنى وانتقلت مسئولية الدفاع عن البلاد إلى المرتزقة الاجانب، وفى بعض الفترات كان يسمح للمصريين بخدمة الجيش دون ان تتاح لهم فرصة الترقى الى صفوف الضباط، وحرص حكام مصر الذين اعتلوا عرشها كابرا عن كابر، على ابعاد المصريين عن الجيش حتى لا تثبت لهم اظافر يستخلصون بها بلادهم من أيدي الأعراب هكذا كان حال مصر تحت حكم اليونان والبطالمة والقيصرية الرومان، والولاة العرب وخلفاء الفاطمية وسلاطين الايوبية والمملوكية والعثمانية .

إذا كان من الحقائق التى لا تنكر إن هذه الدول حققت لمصر مكاناً مرموقاً، ومركزاً استراتيجياً ونفوذاً وسيادة على المنطقة العربية، فإن الجانب الآخر من الحقيقة يشهد بأن هذه المكانة لم تتحقق على ايدي الجنود المصريين. وإنما على ايدي المرتزقة والمماليك الذين يباعون

اطفالاً في سوق الرقيق. ويتنافس السلاطين والملوك على شرائهم وتدريبهم عسكرياً وإحاقهم بالجيش، وعلى اكتاف هؤلاء ارتفعت الراية المصرية في معارك حطين والمنصورة وعين جالوت. أما المصريون فكانوا بمعزل عن هذه المعامع، لأن الحكام لم يفكروا في تجنيدهم، أو بالأحرى خافوا من تجنيدهم، وتوالت العصور والمصريون في غيبة عن الحياة العسكرية والمعارك القتالية، مما أدى إلى تدهور الروح المعنوية لديهم، وانتشار السلبية واللامبالاة وتعميق الإحساس بالغربة، وفقدان الحس القومي، وضعف الشعور بالانتماء إلى وطن يتعين عليهم الدفاع عنه، والتضحية في سبيله بالمهج والأرواح، ذلك أن جيش الوطن هو الرحم الذي يتولد فيه الإحساس بالانتماء والمدرسة التي يتدرب فيها الشعب على النظام والانضباط، وتلمو في النفوس مبادئ التضحية والفداء من أجل الاستقلال والحرية.

ظل هكذا حال مصر والمصريين إلى أن لمع في سماءها نجم محمد علي في مطلع القرن التاسع عشر. وكان محمد علي طرازاً فريداً من الحكام الذين تنطوى قلوبهم على نزعة تقدمية عميقة، وكانت لديه رغبة لحوج في جعل مصر دولة عصرية حديثة تضارع الدول الأوروبية في قوتها ونهضتها ومكانتها وإدراك أن نهضة مصر لن تتحقق إلا بتأسيس جيش نظامي مدرب على أحدث فنون القتال، وكان من الطبيعي أن يتجه بصر محمد علي - أول ما يتجه - إلى اتباعه ومماليكه رغم علمه بفساد أخلاقهم، إنما أراد الرجل إبراء ذمته عملاً بحكمة الأقربون أولى بالمعروف ولكن هؤلاء الأقربين كانوا من الدناءة والخسة بحيث يصعب إصلاحهم أو تطويعهم لتقبل مقتضيات الحداثة.

همجية :

كانت الشراذم العسكرية الموجودة إلى جانب محمد على من أخطر العناصر الهمجية التي لم نتعود النظام أو الطاعة، وكان كل همها الشغب والتسابق على الذهب والسلب والسطو على الأموال والأعراض وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكانت قدراتهم العقلية والنفسية أضيق من أن تستوعب فنون القتال الحديث التي فوجئ بها المصريون أثناء حملة بوناپرت وكان أقصى ما يتقله الارناؤوط والألبان والترك والدلاة. الكر والفر على صهوات الجياد: واستخدام السيوف والسهام والحرب. وهي أدوات عفا عليها الزمن ولم تعد صالحة للوقوف في أوجه الأسلحة الحديثة التي تستخدمها الجيوش الأوربية، ومع ذلك فقد حاول محمد على في ١٨١٥ أن يخوض المغامرة بكل احتمالاتها، فجمع فرقة من جنوده العائدين من حرب الوهابيين. وأعد لهم معسكرا في بولاق، وصارحهم بعزمه على إدخال النظام الجديد في صفوفهم. وقبل أن يعود إلى قصره في شبرا هدهم بعقوبة كل من يحاول التمرد، وما أن أدار عزيز مصر ظهره حتى حشد الجنود جموعهم وهاجوا وماجوا.. وأعلنوا رفضهم البات لأوامر العزيز بل مضوا إلى ما هو أبعد.. وقرروا خلع محمد على (١١) وماذا في ذلك من غرابة ألم يخلعوا من قبل الباشوات الاتراك الذين بعث بهم السلطان لإقرار النظام في مصر بعد رحيل الفرنسيين؟ وهل محمد على أقوى من خسرو وطاهر وخورشيد وقبطان؟ ونسى هؤلاء الأراذل أنهم أمام ثعلب يستعمل كل الحيل لإحباط خطط خصومه، وقبل أن ينفذ اجتماعهم كان أحد رؤسائهم - عابدين بك - يتسلل إلى قصر شبرا ليطلع العزيز على نوايا جنوده المشاغبيين الذين

اعتزموا الانقضاض عليه فى قصره بالازبكية، وفى لمح البصر كان محمد على قد انتقل إلى القلعة فوصلها عند منتصف الليل، وبعث بقواته الخاصة إلى الأزبكية فلما جاءها المتمردون جوبهوا بوابل من الرصاص، وانطلقت فلولهم إلى ميدان الرميّة - أسفل القلعة - وانقضوا على الاسواق نهبا وسلبا، ونجح محمد على فى إخماد الفتنة، وخرج منها بدرس كان ينبغى عليه ان يستوعبه من البداية، وهو استحالة الاعتماد على هؤلاء الهمج فى تأسيس الجيش النظامى الذى يحلم به، وبدأت افكاره تتجه إلى البحث عن عناصر أخرى، ولكن كان عليه قبل معاودة المغامرة إخلاء القاهرة من العناصر الهمجية، وهداه تفكيره إلى تشتيتهم وتوزيعهم على معسكرات اقامها فى رشيد ودمياط وبعض مدن الوجه البحرى، وزيادة فى تطمينهم بعث معهم ببعض أبنائه حتى يستل من نفوسهم نزعَة الشك.

رأى محمد على أن عملية انشاء جيش عصرى حديث لابد أن تتم فى سرية تامة، وفى كتمان شديد، بعيدا عن أعين الأتراك والشركس والأرناؤوط الذين يقفون له بالمرصاد، ويدبرون له الدسائس والمؤمرات، وحبذا لو كان المكان بعيدا عن صخب القاهرة وضجيجها، وهى مركز الثورات والتمرد فى كافة العهود، ورأى أن «أسوان» هى أنسب مكان لتنفيذ مشروعه الكبير، وأمر ببناء الثكنات والمدارس التى تصلح للتدريب، وبعث إليها بألف جندى من خاصة مماليك وممالك أعوانه ليكونوا النواة الأولى لضباط الجيش المصرى المدرب على النظام الحديث، وبقي البحث عن الخبير الذى سيقوم بهذه المهمة التاريخية، وألقت إليه الاقدار بالرجل المطلوب، والذى يزدان به تاريخ العسكرية

المصرية باعتباره الرجل الذى أخلص فى تنفيذ رسالته أشد الإخلاص، وهو الضابط الفرنسى الكولونيل (سيف) الذى اعتنق الإسلام، وأصبح اسمه سليمان باشا الفرنساوى .

تجنيد المصريين :

لقد نجحت فكرة محمد على خلال ثلاث سنوات، وظهرت إلى الوجود أول كتيبة من الضباط الذين تدربوا على فنون القتال الحديث على يد الخبير سليمان باشا الفرنساوى، وبقي التفكير فى جسم الجيش .. أى الجنود .. وخاف محمد على من تكرار فكرة تجنيد الأتراك والأرناؤوط، فاتجه تفكيره إلى السودان، وطلب من ابنه إسماعيل - فاتح السودان - أن يبعث إليه بعشرين ألفاً من أبناء كردفان وسنار، وأقام لهم معسكرات خاصة فى قرية «بنى عدى» فى الصعيد على أن يتولى تدريبهم الضباط الذين تخرجوا من مدرسة أسوان، ولكن التجربة فشلت بسبب إختلاف المناخ مما أدى إلى تفشى الموت بين الجنود السودانيين، عندئذ اتخذ محمد على قراره الجرى بتجنيد الفلاحين المصريين، واقدم على الخطوة التى أبى أن يقدم عليها حكام مصر على مدى ٢٣ قرناً . وهى السماح للمصريين بممارسة المهن العسكرية، وتحمل عبء الدفاع عن وطنهم، وإذا كنا - نحن المصريين - نحمد لمحمد على هذه الخطوة التى كان لها ما لها فى ترسيخ الحس القومى، إلا أن الأمانة التاريخية تقتضينا أن نسجل لمحمد على قسوته فى تجنيد الفلاحين المصريين، وانتهاجه طرقاً غير إنسانية فى جمع الفلاحين قسراً وقهراً وتقييدهم فى الحبال وسوقهم كالدواب إلى معسكرات التجنيد . يقول

المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم فى كتابه (مصر تحت السلاح) إن المتتبع للطريقة التى اتبعها محمد على لتجنيد المصريين، يلاحظ بجلاء مدى احتقاره للمصريين الذين كان يدعوهم بالفلاحين - وامتهانه لأدميتهم رغم أن هذا الشعب بذاته هو الذى اختاره وانتخبه لحكمه، فلقد كانت الأساليب المتبعة لجمع المجندين منفردة إلى أبعد الحدود، الأمر الذى جعل المصريين يكرهون الجندية وهو الشعب الذى طالما عرف عنه الميل إلى النظام والطاعة وحب الوطن.

وهو ينقل عن د. محمد محمود السروجى ما جاء فى كتابه (الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر) عن الطريقة البربرية فى جمع المجندين، فكان محمد على يكلف مدير كل مديرية بجمع العدد المطلوب، وهذا بدوره يوزع العدد على القرى الكائنة فى اختصاصه، فيقوم العمد والمشايخ - بمعاونة الجنود - بالانقضاء على القرى فجأة، فلا يلبث أهلها أن يروا أبناء تلك القرى وقد سيقوا - وهم مصفدون بالاغلال كالمجرمين تماما - إلى عاصمة المديرية، دون تمييز بين العجائز أو الأصحاء أو المرضى أو ذوى العاهات أو الصبية، وكانت تلك الجموع اليائسة تجمع وتوضع فى أيديهم الاغلال يتبعهم أقاربهم من النساء والأطفال إلى مكان الفرز، وهكذا لم يكن التجنيد يسير على نظام معين أو ترتيب للأسماء، بل إن القوة الغاشمة التى هى أشد عمى من الحظوظ والمصادفات هى وحدها التى تلقى بالجنود فى أحضان الجيش وهى فى وضع من أشد ما عرف عسفا ووحشية. وفى بعض الأحيان كانوا يقبضون على المارة أو الزوار لإدخالهم فى زمرة المجندين إلى غير ذلك من أعمال الغش والاحتيال والرشوة والانتقام من الخصوم.

ولكن المؤرخ عبدالرحمن الرافعي لجأ إلى تبرير الأعمال التعسفية التي استخدمها محمد علي في تجنيد الفلاحين المصريين، ويعزوها إلى المصاعب التي واجهت محمد علي أثناء تجنيد الأهالي لأنهم لم يألفوا الخدمة العسكرية منذ آمال بعيدة - وهذا نقص كبير في أخلاق الشعب الحربية فإنه ما من أمة تنزع إلى الاستقلال وتقدس الحرية إلا وتجعل الخدمة العسكرية فرضاً حتماً على أبنائها، فلما شرع محمد علي في تجنيد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط، ولم يفتظموا في صفوف الجندية إلا مكرهين فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسراً إلى المعسكرات.

تلك هي أبعاد الصفحة العسكرية في تاريخ مصر الحديث، فيها الجانب المضيء المشرق الذي يتمثل في تأسيس أول جيش مصري نظامي ومشاركة المصريين في الأعمال الحربية وقد اثبتوا جدارتهم القتالية في كافة المعارك التي خاضوها وفيها الجانب المعتم الذي يتمثل في طريقه التجنيد التي اتبعها محمد علي، والاساليب الوحشية التي سلكها والمعاناة التي عاناها اجدادنا وهم يساقون إلى معسكرات الاعتقال.. ولعل ما حدث لا يزال صدها يتردد في التراث الشعبي الذي يئن بالتوجع والفجيعة ويتغنى بالحنين إلى الوطن في الملحمة البكائية: يا عزيز عيني انا بدى اروح بلدى.. والسلطة اخذت ولدى (١١) ..

رجل من عصر محمد علي سليمان باشا الفرنساوى دينامو الجيش المصرى

إذا كان فضل التفكير فى تأسيس جيش مصرى حديث يعود إلى ساكن الجدان محمد على باشا، فإن فضل التنفيذ يرجع إلى هذا الضابط الفرنسى الذى جمع بين عمق الخبرة، وسمو الخلق، وروح العلم، ودخل مصر واسمه الكولونيل «سيف» فعاش بين ربوعها، وشرب من رضاها، واندمج فى نسيجها الاجتماعى فأسلم، وتزوج وكون أسرة كان من سلالتها الملكة نازلى زوجة الملك فؤاد وأم الملك فاروق: واستطاع بعزيمته وصبره وحلمه أن يقوم خير قيام بالمهمة الجليلة التى عهد إليه بها عزيز مصر، مهمة بناء اللبنة الأولى لجيش مصر الحديث.

وأثمرت جهود محمد على وولده البطل إبراهيم وساعدهما الأيمن سليمان باشا الفرنساوى، وصار لمصر جيش وطنى على أحدث الأساليب العصرية. وما هى إلا بضعة سنين حتى كان هذا الجيش يثبت جدارته وتفوقه فى الشام والمورة وتركيا.. وظل سليمان باشا يقود جنوده فى معارك الشرف والبطولة حتى طواه ثرى مصر، ودفن فى ضريحه بمصر القديمة، وكان له تمثال فى الميدان المعروف باسمه فى قلب القاهرة منذ عهد الخديوى إسماعيل ثم شاءت إرادة حكومة مصر

ذات الصبغة العسكرية ، أن ترد له الجميل على طريقتهما، فأطاحت بالتمثال وألقت به فى غرفة الكراكيب التابعة لمصلحة الآثار (١١) .

ولد «سيف» فى ١٧ مايو ١٧٨٨ م على ظهر سفينة والده أحد رجال الملاحة وأصحاب السفن فى مدينة «ليون» ولما ترعرع دخل فى مهنة الملاحة بإحدى السفن الحربية فى طولون . وهو فى الثانية عشرة من عمره، وتقلب فى مختلف الأسلحة فكان هذا من أسباب تفوقه، وعمق تجاربه، ورسوخ قدمه فى صناعة الحرب، وساعده على ذلك قوة بنيانه الجسمانى، وسمو أخلاقه، وظهر نبوغه فى معركة «الطرف الأغر» وأصيب فيها بجرح كان علامة الشرف الأولى له، وكان من أبرز صفاته الشهامة وعزة النفس والإباء، فلما اعتدى عليه رئيسه بالضرب قابل الإهانة بمثلها فحوكم أمام مجلس عسكرى وحكم عليه بالإعدام، ولكن العناية أدركته بفضل مساعى الكونت «دى سيجورا» فاكتفى بطرده من الجندية البحرية.

وفى سنة ١٨٠٧ م التحق بخدمة الجيش الفرنسى الذى احتل إيطاليا وارتقى بجده واجتهاده من رتبة «نفر» إلى سلك الضباط برتبة ملازم ثان، ووصلت إلى مسامع نابليون شجاعته العسكرية إلى جانب حدته وخطرسه، فدعاه ليقاده وساما وفى نفس الوقت أراد تعنيفه، فلما مثل بين يديه بادره نابليون بقوله: هل أنت «سيف» الذى طالما حدثونى عن شراسته؟ فأجابه بكل اعتداد: إذا لم يكن موجب لدعوتى إلا لأسمع هذا الكلام من جلالتك، فإنى أعود إلى غرفتى! ثم أعطى ظهره للإمبراطور، وامتنطى جواده ورجع إلى مكانه من صفوف الجيش، ولكن هذا الحادث أعقبه ترقيته إلى رتبة ملازم بسلاح الفرسان . ثم وقع

أسيرا في أيدي التمسا . فلما خرج من الأسر انضم إلى جيش نابليون مرة أخرى، واشترك في الهجوم على روسيا، وناله من متاعبها الهائلة نصيب كبير، فرقى بعدها إلى رتبة كولونيل، ولما أفل نجم نابليون بعد سنة ١٨١٥ م خرج «سيف» من الجندية واشتغل بالتجارة ولكنه لم يحقق فيها نجاحاً، وأدرك أنه لا يستطيع الحياة بعيداً عن حياة الجندية، وفي ذلك الوقت سمع أن عزيز مصر (محمد علي) يعتزم تأسيس جيش مصرى على النسق الحديث، فشد الرحال إلى مصر معزراً بتوصية من صديقه الكونت «دى سيجورا» الذى سبق أن أنقذه من حكم الإعدام.

وجد محمد علي فى الضابط الفرنسى العنصر المنشود لتنفيذ الفكرة التى كانت تختمر فى ذهنه - وهى تأسيس جيش مصرى حديث - ولم يبح لها لأحد حتى الكولونيل سيف نفسه، وإنما طلب منه السفر إلى السودان للبحث عن مناجم الفحم وامثل سيف للأمر ، ولكنه أخفق فى مهمته . فلما عاد إلى مصر كاشفه العزيز بما فى نفسه فأصابته من نفس سيف قبولاً، وكانت تلك لحظة تاريخية التقت فيها عزيمة محمد على مع خبرة سيف العسكرية . واتفق الاثنان على أن تتم الخطة فى سرية تامة وبعيداً عن أسماع العناصر الهمجية التى تقاوم بكل عنف أية محاولة للخروج على التقاليد العسكرية السائدة، وإنشاء جيش عصرى يستوعب الأساليب الحديثة التى انتهجتها الدول الأوروبية .

حجرة الزاوية :

لم تكن فكرة تأسيس الجيش وليدة اللحظة ولكنها كانت تراود محمد على منذ تولى حكم مصر فى عام ١٨٠٥ م كان يرى أن الجيش هو

حجر الزاوية فى مشروعه الكبير بالنهوض بمصر من أكفان القرون الخالية، وجعلها دولة مرهوبة الجانب قادرة على صد الأطماع الأوروبية، وتدعيم استقلالها عن السلطنة العثمانية، لقد سمع - وهو لم يزل فى مسقط رأسه قوله - عن الهزيمة الفادحة التى منى بها المماليك المصريون أمام جحافل نابليون، وأدرك بحسه وذكائه الفطرى أن هذه الهزيمة لم تكن إلا بسبب تفوق العسكرية الفرنسية تدريباً وتنظيماً وتسليحاً بينما كانت الشرائم المملوكية فى غيبوبة عن التطورات العسكرية الأوروبية، وظلت حبيسة القيم والعادات والنظم التى تجاوزها العصر فحقت عليها الهزيمة، فلما طوحت به الرياح إلى مصر جندياً فى الحملة العثمانية لطرد الفرنسيين، رأى بأم عينيه انكسار الجيوش التركية بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا فى واقعة أبو قير البرية أمام جيش نابليون. وحين دفعت به الإرادة الشعبية إلى حكم مصر، وضع نصب عينيه أن يقفز بها إلى مشارف العصر الحديث، ويختصر مسافة التخلف ليلحق بالأمم المتمدينة، ثم أدرك بسليقته أن الدول العظمى - ومعها تركيا - لن تسمح لمصر بأن تتبوأ مكانتها المنشودة إلا إذا أصبح لها جيش قوى يحمى مركزها الدولى، ويمد نفوذها خارج حدودها، ويصون استقلالها من الغارات الأجنبية، وبحكم معرفته بطبيعة العناصر الهمجية التى بين يديه أدرك أنها لن تنصاع طواعية للمقتضيات العسكرية الحديثة. وهو ما حدث بالفعل.

الباشبوزق:

كان الجيش المصرى فى مطلع حكم محمد على يتكون من أخلاط من الترك والدلاة والألبان والأرناؤوط والدروز التى تعودت على

الفوضى والتحلل من الطاعة والنظام . فإذا تأخرت رواتبهم انقضوا كالوغل الضارية على الأسواق ينهبون ويسلبون كل ما يقع تحت أيديهم ، فيسارع التجار بغلق دكاكينهم والهرب إلى بيوتهم يتحصنون بها إلى أن ينجلي الموقف وتزول السحابة السوداء التي تصيب الناس في أعراضهم وأموالهم . وكان هؤلاء الهمج يطلق عليهم اسم (باشبوزق) أي الجنود غير النظامين . فلما علموا بعزم الباشا محمد على تكوين جيش يخضع للضبط والربط ، شقوا عصا الطاعة ، وأعلنوا العصيان والتمرد عليه ، بل دبروا مؤامرة لاغتياله .

حدث ذلك سنة ١٨١٥ بعد أن حاول محمد على لأول مرة تنفيذ مشروعه بعد عودته من حرب الوهابيين ، ولكن المحاولة فشلت وكانت تودي بمركزه مما اضطره إلى العدول عنها ، وإرجائها إلى وقت آخر .

وفي عام ١٨٢٠ - أي بعد خمس سنوات من التدبير الهادئ الحكيم - عاد محمد على إلى تنفيذ مشروعه ، وقد نجح في تشتيت الجنود الهمج وإخراجهم من القاهرة ، وتوزيعهم على الثغور مثل رشيد ودمياط وبعض البلاد الواقعة على فرعى النيل ، ولكي ينزع من نفوسهم أي شك في نواياه ، بعث معهم بعض أولاده : طوسون باشا وإسماعيل باشا للإقامة معهم في معسكراتهم الجديدة . وفي تلك الأثناء دفع إليه القدر بهذا الضابط الفرنسي (كولونيل سيف) ليضعا معا نواة تأسيس أول جيش مصري على نسق حديث وكانت الخطوة الأولى إنشاء مدرسة لتخريج أول دفعة من الضابط لتتحمل بعد ذلك مسئولية تدريب الجنود . واختار محمد على مدينة (أسوان) لتكون مقراً لهذه المدرسة . وكان اختياره لهذه المدينة النائية بقصد أن تكون بمنأى عن أماكن

اللهو التي تشغل الشباب عن رسالتهم ويقصد أن تجرى التجربة في سرية وبعيدا عن شماتة الأعداء إذا أخفقت.

واختار عزيز مصر خمسمائة مملوك من، خاصة مماليكه ليكونوا نواة المدرسة الجديدة، وشجع عدداً من أعرانه على أن يبعثوا عدداً مماليكهم. فاكتمل عددهم ألف مملوك بنى لهم أربع ثكنات كبيرة لاتكون مأوى لهم، ومدرسة يتلقون فيها مبادئ العسكرية الجديدة، وعهد بهذه المهمة الجليلة إلى (سيف) ولم يكن الطريق أمامه مفروشا بالورود. إذ لم يكن من السهل تعليم أولئك الشبان علم الحرب الحديث وتعويدهم الخضوع للنظام. فضلاً عن شراستهم ونفورهم من الانقياد لضابط غير مسلم.

عراقيل:

يعرض كلوت بك في كتابه (نظرة عامة حول مصر) العراقيل التي صادفت الكولونيل «سيف» طوال السنوات الثلاث التي مكثها في أسوان: فمن هذه العراقيل شموخ هؤلاء المسلمين شموخاً يجعلهم لا يستطيعون الخضوع للنصارى إلا بشق الأنفس ومنها أن هذه الفئة المغرمة بالجلبة والضروضاء في أثناء تلهيها بالألعاب الرياضية لم يكن يروق لها ضبط النفس والجوارح عند الأتيان بالحركات العسكرية الدقيقة ولا في مكنتها أن تلازم الصمت الإجبارى التام أثناء المناورات فاتقد في قلوبهم الحقد وحملهم الجهل والاستكبار على تدبير عدة مؤامرات لاغتيال حياة المسيو «سيف» وقد حدث أنه بينما كان يمرنهم على ضرب النار مرت رصاصة على مقربة من أذنه سمع حفيفها وكانت هذه الرصاصة مصوبة إليه. فلم يعبأ بذلك وبقي في مكانه كأن لم يحدث له شئ

وأمرهم أن يطلقوا النار مرة أخرى. وفي ذات يوم وجد نار الثورة محيطة به فجأة ولما رأوا منه عدم المبالاة صارحوه بقصدهم وأظهروا له أنهم يريدون التتكيل به، فما كان منه حيال ذلك إلا أن طلب منهم مبارزته بالسيف واحدا تلو الآخر وقال لهم إنى إنما أريد بذلك أن أمحو عنكم عار القتل عن طريق الخيانة فلم يلبثوا إزاء هذه الشجاعة النادرة أن تابوا إلى رشدهم وكسروا من حدتهم وأعجبوا به إعجابا حملهم فيما بعد على الإخلاص له وحبه من أعماق قلوبهم، فانقلبوا أولياء له بعد أن كانوا أعداء واستخدم هو هذه المحبة المقرونة بالاحترام فجعلها وسيلة لحملهم على التنافس فى إدراك أوفر نصيب من الفنون الحربية فى مدى ثلاث السنوات. ولما تكونت هذه الدواة الأولى للجيش النظامى بتخريج هؤلاء الضباط ظهرت الحاجة إلى جمع الجنود ولم يكن محمد على يريد جمعهم من الأتراك والأرناؤوط لأنهم أظهروا من قبل عدواتهم الشديدة لهذا النظام العسكرى الحديث وثار تائرتهم عليه ورفعوا ضده لواء العصيان.

وكذلك لم يكن فى استطاعته أن يخاطر بجمعهم من بين صفوف الشعب المصرى فلم تبق له وسيلة سوى تجنيد السودانين فجند من أهالى كردفان وسدار ثلاثين ألفا وأرسلهم على الفور إلى بنى عدى بالقرب من منفوط الواقعة على الضفة اليسرى للنيل بالوجه القبلى وفى الوقت الذى وصلوا فيه نزل ضباط الممالك الجدد من أسوان وذهبوا إلى بنى عدى لتدريب هؤلاء الجنود وتعليمهم وتولى الرئاسة عليهم.

وما جاء شهر يناير من سنة ١٨٢٣ م. حتى تألفت الست الآليات الأولى وعليها أولئك الضباط النظاميون من الممالك وانقضت سنة

١٨٢٣ م وانقضى من سنة ١٨٢٤ م إلى شهر يناير في إتمام تعليمهم وتدريبهم . وفي هذا الوقت أرسل محمد علي باشا أحد هذه الآليات إلى شبه جزيرة العرب والثاني إلى سنار والأربعة الأخر أرسلت إلى مورة تحت قيادة إبراهيم باشا ومع هذا فلم تكل هذه الجهود بالنجاح بل باءت بالفشل إذا أنشب الموت أظفاره في هؤلاء السودانيين وأهلكهم ألوفاً ألوفاً فظهر من ذلك أن أجسامهم لا يلائمها غير مناخ بلادهم وأنهم فوق ذلك لا يحتملون مشاق الخدمة العسكرية .

وكان محمد علي يزداد شعوراً كلما مرت الأيام بضرورة إيجاد جيش منظم فجال بخاطره ثانياً أن يجمع جنوده من بين المصريين وهذه فكرة فيها ما فيها من الجرأة والأقدام والاستهداف للمخاطر . فقد هاج المصريون في عدة نواح عندما طلبوا لهذه الخدمة وقامت الثورات في جهات متعددة إلا أنها قمعت . وتوصل محمد علي إلى تحقيق ما جال بخاطره وانتهى الأمر بالفلاح المصري أن يرضى بحالته الجديدة ويتعودها بعد أن رأى أنه يتناول غذاء جيداً ويرتدى كساء جميلاً في ظل العلم لم يكن له في سابق حياته .

في حومة المعارك :

لم يقتصر دور سليمان باشا الفرنساوى على التعليم والتدريب وتخريج الدفعات الأولى من الضباط والجنود وإنما اشترك في إدارة المعارك الكبرى التي قام بها الجيش المصري وأرسله عزيز مصر محمد علي مع ابنه إبراهيم في حرب المورة فأظهر في هذه الحرب بسالة وإخلاصاً جعلاً له أرفع مكان في نفس إبراهيم باشا .

وفى الصفحات التى كتبها عمر باشا طوسون عن الجيش المصرى
البرى والبحرى فى عهد محمد على، معلومات هامة عن سليمان باشا
الفرنساوى، منها أنه بعد انقضاء حرب المورة، عاد ومعه فتاة يونانية
اختارها من السبايا اليونانيات اللاتي وقعن فى قبضة الجيش المصرى
ثم اقترن بها ورزق منها بأولاده وهم اسكندر بك الذى لم يعمر طويلاً.
وبنتان اقترن بإحدهما شريف بك الذى أصبح فيما بعد المشير. «شريف
باشا» الفرنساوى ورزق منها بذريته الذين كان من بينهم حرم عبد
الرحيم باشا صبرى والد ملكة مصر نازلى فؤاد واقترنت الأخرى بمراد
حلمى بك الذى أصبح فيما بعد مراد حلمى باشا أحد الوزراء المصريين
ورئيس المحكمة المختلطة.

ولما عاد سليمان باشا إلى مصر من حرب المورة تفرغ لإعادة
تنظيم الجيش المصرى من صميم المصريين ووثق به محمد على
وإبراهيم باشا فأمداه بمعاونتهما وركنا إليه فى هذه المهمة العظيمة حتى
تمكن من جعل مصر ذات جيش قوى مدرب على أحدث الأساليب
العصرية فكافأه محمد على - على ذلك برتبة اللواء. ثم جاءت الحوادث
التي أفضت إلى حرب الشام سنة ١٨٣١ م. فجردت مصر عليها
الجيش البرية والبحرية وأسندت القيادة العليا فيها إلى إبراهيم باشا
فكان سليمان باشا فيها قائداً للمدفعية وفتح الجيش المصرى مدينة عكا
الحصينة وأسر حاكمها عبدالله باشا الجزار وأرسله إلى الأسكندرية.

ثم توغل إبراهيم فى داخلية البلاد السورية وافتتحها وتطورت هذه
الحرب تطوراً عظيماً وكان النصر فيها معقوداً بلواء المصريين ومنيت

الجيش العثمانية فيها بالهزيمة تلو الهزيمة حتى أصبح الجيش المصرى على أبواب الآستانة وكان لسليمان باشا فى هذا النصر المبين الحظ الأوفر خصوصاً بعد أن رقى إلى رئيس أركان حرب الجيش المصرى. ثم تدخلت الدول فى هذه الحرب وضربت أساطيلها سواحل الشام وأنزلت إنجلترا جنودها بها وتوجه جزء من الأسطول الإنجليزى إلى الأسكندرية وتهدد محمد على فأوقف الجيش المصرى عن الزحف إلى الآستانة وقضت السياسة الأوروبية بعد ذلك بانسحابه من سوريا بعد أن أقام فيها تسع سنوات وشبت الفتن والثورات حوله قبل انسحابه من هذه البلاد فأخمدتها ووضع سليمان خطة الانسحاب للجيش المصرى فعاد الثوار إلى مناوشته وهو منسحب، ومع ذلك فقد تمكن من الجلاء عن سوريا ودخل القاهرة دون أن يفقد مدفعاً واحداً فكافأه محمد على.. على.. ذلك برتبة ميرميران أى (المشير).

وظل بعد ذلك فى رئاسة أركان حرب الجيش المصرى متمتعاً بثقة محمد على ورعايته وثقة ولده سر عسكر الجيوش المصرية فارتفعت منزلته وعظمت ثروته.

وفى سنة ١٨٤٦ م. كان فى معية إبراهيم باشا فى زيارته لفرنسا فشاهد الحفاوة العظيمة التى أعدها له (لويس فيليب) ملك فرنسا وحضر مناورات الجيش الفرنسى الكبرى وقابل عظماء القواد ورجال الحرب وانعم عليه الملك بوسام جوقة الشرف ثم انتهز هذه الفرصة وزار مدينة ليون مسقط رأسه وزار فيها شقيقته وأقاربه وأصدقاءه الأقدمين ثم عاد إلى مصر وقدم إلى محمد على تقريراً ضمنه مشاهدته وما استجد فى نظام الجندية الفرنسية.

ولم يزل متمتعاً بثقة محمد علي وثقة ولده السر عسكر البطل
إبراهيم باشا حتى توفيا وتولى الأمر عباس الأول فعهد إليه سر عسكرية
الجيش وقيادته العامة وكان لديه كما كان لدى سلفيه ثم كان لدى سعيد
توليه الأريكة المصرية كذلك إلى أن توفى سليمان باشا في عهده في
١١ مارس سنة ١٨٦٠ م.

إبراهيم باشا النبراوى بائع البطيخ الذى أصبح نابغة الطب المصرى

هذا نموذج للعبقريّة المصرية التى كشفت عن نفسها عندما اتّحت لها فرصة العلم والتّرقى . إنه من جيل الرواد الذين خرجوا من تراب مصر وانطلقوا الى مراكز العلم فى أوروبا فبلغ أعلى مراتب النبوغ . أنه إبراهيم باشا النبراوى الذى وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية بأنه أنجب من اشتهر فى الجراحة وأنه ذو إقدام على ما لم يقدم عليه غيره ، وأنه يجرى العمليات الجراحية المنتجة للصحة ولم يسبقه فى ذلك غيره ، وذاع صيته وبلغت أخباره عزيز مصر محمد على فاختره طبيباً خاصاً له ، واصطحبه فى رحلته إلى أوروبا عام ١٩٤٨ وكثرت عليه الإغداقات وانتشر ذكره وطلبته (الفاميليات) أى العائلات الكبيرة والأمرء ، وبعد عودته من البعثة عين مدرسا بمدرسة الطب المصرية التى أنشأها العلامة الفرنسى «كلوت بك» وترقى فى المناصب العلمية الى جانب اهتمامه بترجمة المؤلفات الطبية ، فترجم لاستاذة كلوت بك عن الفرنسية ثلاثة كتب ، وبعد استقالة كلوت بك عين إبراهيم باشا النبراوى وكيلا لكلية الطب بعد أن ثبتت جدارة المصريين ، وإحلالهم

محل الأجانب، وظلت مكانته ترتفع عند الأسرة العلوية فاختره الوالى عباس الأول طبيباً خاصاً له، ونال لديه الحظوة العظمى، ولما سافرت أم عباس الأول لأداء فريضة الحج صحبته معها ليشرف على صحتها وصحة من معها من الحجيج، وظل إبراهيم باشا النبراوى مترعاً على عرش الطب الى أن لاقى وجه ربه فى عام ١٨٦٢ .

ولهذا الرائد العظيم قصة أقرب إلى الخيال . فقد بدأ حياته فى قرية نبروه صبياً يعمل فى فلاحه الأرض إلى جانب أبويه الفقيرين، وكان كل حظهما من حطام الدنيا بضع قراريط من الأرض يشقيان فى زراعتها بالخضروات أو الفواكه، ثم يقوم الأب ببيع محصوله فى عاصمة المديرية (طنطا) عسى أن يعود بريح أوفر مما يحصل عليه فى القرية، وفى هذا المناخ المتزع بالشقاء والشظف والحرمان عاش الصبى (إبراهيم) كما يعيش ملايين الصبية من أقرانه فى ريف مصر . وعرف طريقه الى الكتاب فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم لاح له أن يساعد أبويه فى كفاحهما، ويوفر على أبيه مشقة تسويق بضاعته فى المدينة، وجنح به طموحه أن يقتحم العاصمة - فهى أكبر المدن وأعظمها - ومن ثم تصور أن يكون العائد متناسباً متناسباً طردياً مع حجم المدن . ولا بد أن يكون أهل القاهرة أقدر من غيرهم على دفع أثمان تفوق ما يدفعه سكان المدن الصغرى فيعود إلى أهله ومعه المال الوفير الذى يخفف عنهم مشقة البؤس .

كان الأب قد زرع قراريطه بالبطين، فلما نضج، حمل إبراهيم محصوله على ظهر جمل أستأجره ومضى يشق مسالك الدلتا نحو

القاهرة، واتخذ طريقه الى حي الجمالية حيث الكثافة السكانية، فلما عرض بضاعته للبيع لم يجد الثمن الذى كان يبتغيه، ثم رأى أن يتمهل ولا يتسرع فى البيع حتى تصل الأسعار الى المستوى المنشود.. ومضى يوم اثنان دون أن تتزحزح الأسعار إلى الأعلى.. وعندئذ وجد أن الوقت ليس فى صالحه، وعوامل الطبيعة تعمل على إفساد البطيخ وبواره.. حتى إذا انتهى العرض والطلب وجد أن خسارته فادحة، وأنه قد خرج من المولد بدون حمص، كما يقول المثل، وعز عليه أن يعود إلى أبويه خالى الوفاض. بعد أن وعدهم بالخير العميم، فدفع بما تجمع لديه من مال قليل إلى صاحب الجمل الذى استأجره من نبروه، وطلب منه العودة الى القرية ويبلغ والديه عن أسفه لعدم قدرته على الوفاء بما وعد، وأنه سيبقى فى العاصمة ليشق طريقه عسى أن تعوضه الأيام عن الخسائر التى منى بها.

فى رحاب الأزهر:

عند هذه المرحلة الجديدة من حياة إبراهيم البراوى يذكر المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال أن إبراهيم ساقته قدماءه إلى إحدى الحوارى المجاورة للجامع الأزهر، وقد أنهكه التجوال بحثا عن عمل، وبينما هو جالس راح ينظر إلى المارة من أهالى الحي، وهو يلعنهم ويلعن بلدهم فى نفسه، وجذب انتباهه منظر غريب طريف، لقد نظر فرأى شيخا كبيرا ذا لحية طويلة بيضاء بيده كتاب، وبيده الأخرى مسبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الأخرى، وعن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين، والشيخ يسير فى تؤده ووقار، والفتيان

يتبعونه فى أدب جم واحترام بالغ، وتتبع إبراهيم هذا الموكب، واستعاد فى ذهنه صورة شيخ القرية وكتابها وأقرانه من الصبية الصغار.

وانتهى المسير بالشيخ وتلاميذه إلى باب المسجد فدخلوه، ومال إبراهيم إلى جار له وسأله عما يكون الشيخ، وعما يكون المسجد، فذكر له أن هذا المسجد هو الأزهر، وأن هذا أحد شيوخه، وأن هؤلاء تلاميذه الذين يتلقون عنه العلم، فبهرتة الصورة، واستهواه وقار الشيخ، وزى الفتية وهم يرفلون فى جيبهم وعمائهم، ولمعت الفكرة فى خياله لمعان البرق فانتفض واقفا، واتخذ سبيله إلى المسجد ودخل مع الداخلين وراعه كثرة حلقات الدرس، كل شيخ يجلس بجوار عمود ومن حوله التلاميذ به فى شكل حلقة، وهم يستمتعون إلى أستاذهم فى اهتمام، وجلس إبراهيم إلى أقرب حلقة واستمع ثم استمع، ثم انتقل إلى حلقة ثانية وثالثة ورابعة.. ولم يكد ينتهى اليوم حتى قر عزمه أن يصبح أزهرياً يطلب العلم كما يطلبه مئات غيره من المنكبين على الكتب ينهلون من صفحاتها ما يعمق ثقافتهم، فعل ذلك وفى ذهنه أن يعود يوماً إلى قريته نبروه وقد صار عالماً مرموقاً فيصبح شيخاً للقرية ينحلى الجميع لتقبل يده، ويسعون إلى رضائه، وتقبل عليه الدنيا فيعرض الخسائر والتى لحقت به من صفقة البطيخ إلى مدرسة الطب:

ومضت الشهور وإبراهيم يكشف عن نبوغ فطرى، واستعداد طيب لتلقى المزيد من العلوم، حتى لفت نظر شيوخه وأساتذته، وكان يلقى

من تشجيعهم ما يحفزه على التعمق. إلى أن كان أحد الأيام حين أرسل إليه شيخه يستدعيه، فهرول مجيباً، ولكنه لم يكد يقبل عليه حتى وجد في حضرته جماعة من الناس، فيهم من يرتدى زى أمراء الجيش، ومنهم من يتزيا بزى الشيوخ، وتقدم إبراهيم فقبل يد أستاذه، فتلقاه الشيخ بالترحيب، وتوجه بالحديث إلى الضيوف وهو يقدمه اليهم بعبارات كلها إطراء وثناء، وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة هم أعضاء لجنة جاءت إلى الأزهر لتختار نخبة من نوابغ الطلبة ليكونوا نواة مدرسة الطب الذي يزمع محمد علي إنشاؤها، وعهد إلى كلوت بك بتأسيسها.

وهكذا انتقل إبراهيم النبراوى من طالب بالأزهر يتمنى أن يكون شيخاً صاحب كتاب فى نبروه، إلى تلميذ فى مدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوماً جديدة لم يسمع فيها من قبل مثل الكيمياء والطبيعة والتشريح ودراسة الأمراض والأدوية، ويستمتع فيها إلى أساتذة ليسوا من دينه ولا من جنسه فهو لا يعرف لغتهم، ولا يعرفون لغته - وكلهم قادمون من فرنسا لاعداد أول فرقة من الطلبة لدراسة الطب، ثم إيفاد المتقدمين منهم إلى باريس لتلقى الدراسات العليا المتخصصة.

وكما نبغ إبراهيم النبراوى فى حلقات الأزهر، نبغ كذلك فى مدرسة الطب، وقضى سنوات الدراسة جميعاً بنجاح وتفوق. فكان ضمن أفراد أول بعثة ذهبت إلى فرنسا لإتمام علومهم، وكان اختياره بترشيح من ناظر المدرسة كلوت بك الذى توسم فيه النبوغ. وسافر

إبراهيم النبراوى إلى باريس عام ١٨٣٢ فوجد نفسه أمام عالم يختلف تماما عن عالم نبروه وطنطا والقاهرة .. الرجال غير الرجال .. والنساء غير النساء .. والأخلاق والعادات وطرق التعليم تختلف عن المحيط الذى عاش فيه .

وفى عاصمة النور خفق قلب إبراهيم بحب فتاة فرنسية فتزوجها، ولم يشغله الزواج عن المهمة التى أوفد من أجلها، ولا بد أن تكون زوجته الفرنسية قد ساعدته على إتقان اللغة الفرنسية، وسرعة هضم العلوم التى كانت تلقى بالفرنسية . حتى إذا أتم دراسته عاد إلى وطنه عام ١٨٣٦ وبصحبه زوجته الفرنسية، فعين مدرسا بمدرسة الطب المصرية، فكان من أوائل المصريين الذين شغلوا مراكز التدريس، ونجح مدرسا وطبيبا مثلما نجح طالبا فى الأزهر . وأظهر مهارة فائقة حتى قصده الناس كل فج، وبلغت شهرته مسامع محمد على فقربه إليه وجعله طبيبة الخاص .

زوج مخلص :

وظل إبراهيم النبراوى وفياً لزوجته الفرنسية مخلصا لها، ولم يتزوج غيرها الى أن أدركتها المنية فحزن عليها حزنا شديدا، وعندئذ أنعمت عليه (الوالدة باشا) أم الوالى عباس الأول بفتاة من حريمها اسمها إشراقة فتزوجها وكان قد رزق من زوجته الفرنسية ولدان، أحدهما يوسف باشا النبراوى، وقد تلقى علومه الأولى بمصر، ثم أرسل فى بعثته الى فرنسا سنة ١٨٥٥ ، فى عهد سعيد باشا للتخصص فى الفنون والعلوم

الحربية وعاد الى مصر عام ١٨٦١ فعين ضابطا فى الجيش المصرى، غير أنه لم يمكث به إلا قليلا، ثم عاد إلى فرنسا فأقام بها طويلا، وتزوج هناك من سيدة فرنسية، وكانت له جهود حميدة فى إقناع المسؤولين الفرنسيين للموافقة على إنشاء المحاكم المختلطة، ثم استدعى إلى مصر بعد إنشاء هذه المحاكم وعين رئيسا لواحدة منها.

أما الابن الثانى خليل فقد تلقى علومه بمصر، ثم التحق بمدرسة الطب المصرية وبعد إتمام الدراسة بها أرسل فى بعثة طبية إلى النمسا وفرنسا، وعاد إلى الوطن فى عهد الخديو إسماعيل وعين طبيباً بالمصلحة الطبية.

ومن نسل هذا الرجل العظيم رائدة الصحافة والنشاط النسائى السيدة «سيزا نبراوى»، التى يذكرها تاريخ الأدب والصحافة المصرية فى الأربعينات من القرن العشرين. وكانت سكرتيرة للاتحاد النسائى، وأصدرت العديد من المجلات التى كانت تدعو إلى حقوق المرأة.

هذه قصة فتى من قلب الريف المصرى، كما رواها المؤرخ الدكتور جمال الشيال، وقد تنقل القدر بهذا الرجل من بائع بطيخ فاشل إلى طالب بالأزهر، ثم انتقلت به عناية محمد على إلى مدرسة الطب ثم إلى فرنسا حتى أصبح طبيباً ومدرساً ووكيلاً لكلية الطب، وطبيباً خاصاً لحكام مصر، وارتقى به نبوغه إلى أن حصل على أكبر لقب فى وطنه وهو رتبة الباشوية. ولعل فى هذه القصة ما يحفز شبابنا على الجد والجد والمثابرة وقوة العزم.

أما الجانب الانساني في شخصية إبراهيم باشا النبراوى فقد أشار اليه العلامة على مبارك فقد وصفه بأنه كان إنساناً كريم الشيم رفيع الهممة، يغلب عليه الفرح والانبساط ، فكنت تراه دائماً مستصباً للمغاني وآلات الطرب. ولم تمنعه العلوم الطبيه والعمليات الجراحية من أن يشبع هوايته وحبه للفنون والطرب.

عباس الأول

أسوأ حكام الأسرة العلوية

خذها منى نصيحة:

لاتصدر حكما عاما على حاكم تاريخى بأنه «طيب» أو «شرير»..
فذلك تبسيط يأباه المنهج الموضوعى فى تقويم المشاهير، ولا يعرف
التاريخ منذ نشأة المجتمعات الانسانية حاكما يمكن أن تصفه بأنه
ملاك.. كما لم يوجد حاكم يمكن أن تضعه فى زمرة الشياطين.. وكل
حاكم مهما بلغ شططه لا يخلو من أعمال طيبة.. ومهما بلغ حاكم من
الصلاح والرشد فإن سجل أعماله لا يخلو من أخطاء.. لماذا؟ لأن الحاكم
هو فى الأصل بشر.. ليس من هؤلاء ولا من أولئك.. ولو نقبت فى
تاريخ الحكام العظام الذين اشتهروا بالعدل والصلاح فستعثر لهم على
هناك وأخطاء..

● ● عندك - على سبيل المثال - السلطان العظيم صلاح الدين
الأيوبي، الذى دمر الصليبيين فى حطين. وطهر القدس من أرجاسهم،
والذى وحد البلاد العربية فى جبهة صلبة ضد الغزو الأوروبى، ومع
ذلك عندما شعر بدنو أجله، قام بتقسيم البلاد العربية التى وحدها، إلى

كيانات صغيرة وجعل على رأس كل منها واحدا من أشقائه وأولاده ..
فكانت النتيجة أن تفسخت الوحدة العربية، وأشتعلت حرب الأشقاء
والأعمام بدلا من حرب الفرنجة، وكانت النهاية سقوط الدولة الأيوبية
فلم تعمر أكثر من ثمانين سنة، ووقعت لقمة طرية فى أيدي المماليك
الذين جلبوهم من أسواق الرقيق فصاروا حكاما .. وأطاحوا بأسيادهم
الذين لم يرتفعوا إلى مستوى المحنة: محنة الصليبيين والمغول معا ..

وعلى سبيل المثال فى الناحية الأخرى .. لو بحثت عن أسوأ حكام
الأسرة العلوية التى أسسها محمد على فلن تجد أسوأ من عباس الأول
الذى خلف جده طبقا لتسوية لندن ١٨٤١ التى جعلت الحكم فى أكبر
أمراء الأسرة فكان عباس ابن طوسون ابن محمد على لأن سعيد - أكبر
أولاد محمد على بعد وفاة إبراهيم كان أصغر من عباس وشاء حظ
مصر العاثر أن يثول حكمها إلى هذا الرجل غريب الأطوار الذى كانت
أبرز صفاته القسوة والغلظة والتفور من الناس وكراهية العلم والنور
والتحضر، والتأمر على أقرب الناس إليه حتى هرب معظم أفراد الأسرة
الحاكمة إلى استانبول فرارا بحياتهم بعد أن استولى عباس على
أراضيهم ومجوهراتهم . وكان «الخلق» وسيلته إلى التخلص ممن يتوجس
منهم حتى كان الناس يختفون - فجأة - دون أن يعرف أحد مصائرهم (١١) .

فى جوف الصحراء:

● ● ولأن هذا الحاكم الغريب كان يفضل الجهل والظلام والرعب،
فقد قام بتبديد الميراث الحضارى الذى تركه جده، فأغلق المدارس
والمصانع وحل الجيش، واستدعى البعثات التى كانت تتلقى العلم فى

أوروبا، ودفعه نفوره من البشر إلى بناء مجموعة من القصور في جوف الصحراء يأوى إليها كما تؤوى الخفافيش وهو قصره في «الخرنفش»، وبات يتنقل بين هذه القصور تحيط به كوكبة من الغلمان.. فقد بنى قصرا هائلا في العباسية وكانت يومئذ صحراء جرداء - بلغت نوافذه ألفين، كما بنى قصرا في القطامية، وآخر في العطف عند ملتقى النيل مع ترعة المحمودية، ورابعا في بنها وهو القصر الذى قتل فيه.. واستخدم عباس فى بناء هذه القصور.. السخرة وأرغم الفلاحين المصريين على العمل دون أجر.. حتى قال عنه أحد المكارية (طائفة مؤجرى الحمير): «انه يكلف الفلاحين بأعمال شاقة فى الصحارى ولا يدفع لهم من الأجر إلا القليل، ومعظمهم يموتون يوميا فى قصور الباشا، وقد كان من واجب سموه أن ينفق هذه الأموال فى تحسين أحوال مصر بدلا من بناء القصور فى الصحراء ولو أنه ألغى السخرة لأغضينا الطرف عن سيئاته العديدة.. انه يأخذ أقوى شبابنا ليعملوا فى مشروعاته ويهملوا الزراعة»..

وبينما كان عباس يقسو على الفلاحين ويرهقهم عسرا كان عطوفا على الأعراب البدو، ويتغاضى عن نشاطهم فى السطو والنهب والتخريب، ويغدق عليهم الأموال، ويشجعهم على فرض الإتاوات على الفلاحين ويستخدمهم فى إذلال المصريين وفى عهده انتشرت الجاسوسية بشكل مخيف، فصار الانسان لا يأمن على حياته من الخلق أو الالتقاء فى النيل.. أما أبسط العقوبات فهى النفى إلى أقاصى السودان، كما فعل مع رفاعة الطهطاوى ومعاونيه..

وعمد عباس إلى إهمال الجيش الذى قامت عليه النهضة فى عصر محمد على، والذى كان مضرب المثل فى النظام والكفاية، وأدمج فيه شزيمة من الأرنؤود بلغ عددهم حوالى ستة آلاف مسلحين بالمسدسات، فتحولوا إلى عصابات لاغتصاب الناس والسطو على أموالهم وأعراضهم فى الوقت الذى جرد فيه المصريين من السلاح ومنعهم من حمله، وكأنما أراد أن يسهل لهؤلاء السفاحين فرصة الاعتداء على المواطنين (١١) .

والمؤرخون المعاصرون لهذا الأمير الغامض، يعزون كل ذلك إلى جهله وعدم حصوله على أى قسط من التعليم كما لم تتح له الظروف للسفر إلى أوروبا والأطلاع على الحياة الحضارية فيها..

ومع كل هذه السيئات فقد وجد عباس الأول من يذكر له بعض الحسنات، منها قيامه بإصلاح وتمهيد الطريق البرى بين القاهرة والسويس، ومنها تنفيذ مشروع السكة الحديد بين الأسكندرية والقاهرة والسويس . ورغم أن هذين المشروعين يخدمان المصالح الانجليزية التى كان عباس يميل إليها، ورغم أن ذلك بمثابة (قناة السويس برية) بديلاً عن مشروع القناة البحرية التى كانت فرنسا تتبناها.. إلا أن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى يضع ذلك فى ميزان حسنات عباس، إذ يرى أن مشروع السكة الحديد أنفع للبلاد وأبعد عن الضرر من مشروع القناة، لأن مصر - فى رأى الرافعى - لم تستفد شيئاً من فتح قناة السويس، بل كانت القناة - فى رأيه - شؤماً على مصر، أما السكة الحديد فقد نهضت بعمران البلاد التى مرت بها، بخلاف القناة، وأنها من المشاريع الجيلة

التي تذكر لعباس.. ويضيف الرافعي إلى مآثر عباس: استتباب الأمن.. وقضاءه على الأشرقياء وقطاع الطرق ومطاردتهم بكل قسوة حتى انقطع دابرهم..

كذلك وجد عباس الأول في شخص الوزير الداهية «نوبار باشا» مدافعا حصيفا.. ولاندسى أن نوبار كان بوقا للمصالح الانجليزية في مصر، ولعب الدور الأكبر في تحويل ولاء عباس من فرنسا إلى إنجلترا.. فهو يصف عباس بالكرم ورغم ما عرف عنه من شح، ويلقى عنه تهمة القسوة والظلم ويقول أن المصريين لم يعانون في عهده من الضغوط المالية والاقتصادية مثلما كان الحال في عهد جده، ويرى أن «عباس» أغلق المصانع لمصلحة المستهلك المصري، لأن المنتجات الأوروبية أرخص وأحسن نوعية من المنتج المحلي، وفي رأى نوبار أن «عباس» كان تجسيدا للسيد العظيم أو الأمير الشرفي الحقيقي: فقد كان يعيش منعزلا متفردا ويصدر أوامره لتنفيذ بالسمع والطاعة العمياء، وينقل عن عباس قوله: إذا كان لى أن أحصى التجار فلست ملزما بتقليدهم ويرى في عصر عباس مرحلة من مراحل تطور مصر، ويفقد وجهات نظر من هاجموه، وأنه كان موضعاً للتجنى والأحكام الخاطلة ويمتدح تخفيضه النفقات الدولة وشدة حرصه على مصالح البلاد، وإقرار الأمن بالشكل الذي لم تعرفه مصر من قبل.

ويرغم هذا الدفاع الحماسي إلا أن سنوات حكم عباس الأول التي بلغت خمس سنوات ونصفا، كانت فترة جمود في مسيرة النهضة التي بدأها محمد على، وكانت نهايته - مثل حياته - غامضة، فقد علم الناس

بنبأ وفاته فجأة - وبدون مقدمات - يوم ١٤ يوليو ١٨٥٤ مما أثار الشكوك حول ظروف الوفاة، وقال القنصل الانجليزى أن طبيبين ايطاليين قاما بفحص جثته وأنه مات فى نوبة صرع، وأن الأطباء كانوا يتوقعون ذلك فى أى وقت أو أن يصاب بالجنون، واستدلوا على ذلك بشدة قسوته فى أيامه الأخيرة.

أما الرافعى فقد ذكر روايتين عن الطريقة التى قتل بها، والرواية الأولى ذكرها «اسماعيل باشا سرهنگ» فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) والثانية ذكرتها «مدام أولمب إدوار» كما سمعتها فى أوائل عهد اسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر) ..

روايتان :

● ● ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنگ أن «عباس» كانت له حاشية من الممالك يصطفاهم ولهم عنده منزلة كبيرة مما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية بدون كفاءة يستحقونها، وكان لهم كبير من خاصة غلمانه يسمى خليل درويش بك وقد أساء معاملته هؤلاء الممالك فاستطالوا عليه بالغمز واللمز، وخاصة لأنه كان صغير السن فاتخذوا من حدائته مغمز الأقاويل فسخط عليهم وشكاهم إلى سيده فأمر بجلاهم وتجريدتهم من ملابسهم العسكرية وتسخيرهم للعمل فى اسطبلات الخيول، وتدخل بعض الباشوات للعفو عنهم لدى الوالى فعفا عنهم وأعادهم إلى مناصبهم، فاستأذنوا فى الذهاب إلى الوالى فى قصره بينها للاعراب عن تشكراتهم وهم يضمرون قتله، واتفقوا مع غلامين كانا يقومان على حراسة فراشة، وفى الليلة المتفق عليها دخلوا

عليه وهو نائم فلما شعر بهم استيقظ وحاول النجاة ولكنهم تكالبوا عليه حتى اخمدوا أنفاسه ..

أما رواية «مدام أولمب» فخلاصتها أن الأميرة «نازلى هانم» ابنة محمد على هى التى دبرت مؤامرة اغتياله بعد أن لجأت إلى استانبول واشترت مملوكين يتمتعان بقسط وافر من الجمال والميوعة، واتفقت معهما على الذهاب إلى مصر، ويعرضان نفسيهما فى سوق العبيد وهى واثقة بأن وكلاء عباس لن يتركوهما. وتم لها مارسمت ودخل الغلامان فى خدمة الأمير بعد أن أعجب بهما وعهد إليهما بحراسته ليلا كعادته، فلما كانت الليلة الموعودة استجمعا شجاعتهما، ولم يكد عباس يستغرق فى النوم حتى انقضا عليه وخنقاه، ولم يدعاه له الوقت ليصيح أو يستغيث ثم نزلا من قورهما إلى الاسطبل وطلبا من السائس تجهيز حصانين بزعم أن الباشا يطلب حاجة عاجلة من قصره فى العباسية، ولكنهما اتجاها إلى الإسكندرية حيث ركبا على ظهر سفينة إلى الآستانة، وهناك منحتهما الأميرة نازلى مكافأة سخية على انقاذ المؤامرة .

تقول مدام أولمب إن إلهامى باشا - ابن عباس - تعقب الغلامين القاتلين ليثار لأبيه، فالتقى بأحدهما فى استانبول فقتله رميا بالرصاص من مسدسه، ولم يستطع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على أثر وقيل أنه أوى إلى بلاد الأرناؤود فرارا من القتل .

أما مصير الحكم بعد مقتل عباس، فقد أراد بعض أنصاره إخفاء خبر وفاته إلى حين حضور ابنه «إلهامى» من أوربا وإقصاء «سعيد» الذى كان عليه الدور، وكان سعيد مقيما فى الإسكندرية وبعث أنصار عباس

إلى محافظ الأسكندرية ليشارك معهم فى المؤامرة وتولى الأمور فى الثغر، إلا أن المحافظ إسماعيل سليم باشا - رفض العرض وذهب من توه إلى سعيد فى قصره بالقبارى وأبلغه نبأ مقتل عباس فركب فوراً إلى القاهرة وصعد إلى القلعة وأعلن جلوسه على أريكة مصر..



من مآثر عباس الأول التى يذكرها الاستاذ الرافعى : أنه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الأجنبى، ولم يمد يده إلى الاستدانة منهم، بل ترك خزانة مصر حرة من ائثال الديون الأجنبية إلخ.. ويبدو أن الرافعى لم يطلع على أوراق ووثائق ذلك العصر والتى تؤكد ان عباس حين مات ترك مالية الدولة مدينة بما يقارب مائة مليون فرنك فى الوقت الذى كانت فيه خزانة الدولة خاوية تماماً (١١) .

سعيد باشا

أول من وضع بذور الثورة العرابية

أنت تعلم أن الثورة العرابية كانت أول انتفاضة مصرية خالصة لتحرير مصر من النفوذ الأجنبي الذي تفاقم في عصر إسماعيل، واكتسى وجهها أوربيا بعد أن كان تركيا شركسيا.. وتعلم أيضا أن الروح الوطنية الناهضة تجسدت في شخص أحمد عرابي، الضابط الذي قاد - أولا - حركة التمرد داخل الجيش ضد الشراذم الشركسية المهيمنة على الجيش.. ثم.. قاد - ثانيا - ثورة الشعب والجيش ضد استبداد الخديو توفيق والطبقة الحاكمة التي كانت تحتقر المصريين وتعمل على بقائهم في قعر السلة الاجتماعية.. وما كان عرابي ليصل إلى مركز القيادة العسكرية والشعبية، لولا الاجراء الخطير الذي اتخذه الوالى (سعيد باشا) بالسماح بترقية الجنود المصريين من رتبة «النفر» إلى سلك الضباط.. وشاء القدر أن يكون من هؤلاء المحظوظين أحمد عرابي، الذي كان أشبه بنواة مصرية في محيط شركسي، فالتفت حولها كل العناصر المهضومة داخل الجيش. وتجسدت في هذه العصابة المصرية الروح الوطنية المتطلعة إلى العدالة والمساواة حتى حدث الصدام التاريخي في

وقائع الثورة العرابية .

والسؤال الذى يشغل بال الباحث التاريخى هو: لماذا أقدم سعيد باشا على هذه الخطوة المصيرية التى كان لها أثر بعيد فى حركة التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر، وفتحت الباب أمام الطبقات المصرية المطحونة لتمسك زمام القيادة بعد قرون من الاستعباد والقهر عاشتها مصر تحت حكم الموجات المتتالية من العناصر المملوكية والعثمانية؟ وهل كان نضوج فكرة الوطنية المصرية فى عهد سعيد يعود إلى ميوله العاطفية نحو مصر والمصريين؟ أم كانت نموا طبيعيا لمشروع «التمصير» الذى بدأه أبوه محمد على ببناء دولة عصرية على ضفاف النيل، ولا تكون مجرد ولاية عثمانية تتلقى التعليمات والأوامر من استانبول!!

سعيد يبث روح الوطنية :

بالنسبة للافتراض الأولك فالمأثور عن سعيد باشا أنه كان محبا للمصريين كارها للترك . لدرجة أنه كان يتمنى أن يعثر على الشريان الذى ينقل الدم التركى إلى جسمه لى يستأصله . وكان يجاهر بهذه المشاعر الصريحة غير عابئ بغضب الطبقة التركية المتمكنة من الجيش، والمحتكرة للمناصب العليا . وكان يعمل على تقريب «عربى» وصحبه وينفخ فيهم روح الوطنية المصرية حتى أنه أهدى إلى عربى كتابا عن الحملة الفرنسية على مصر وقال له : «أنظر كيف ترك أبناء وطنك - يقصد المصريين - الفرنسيين يضربونهم، ويعترف عربى بأن هذا الكتاب أقنعة بأن تنظيم الجيش على النسق الحديث مرتبط بقيام

حكم نيابى ودستورى فى البلاد. وكان سعيد باشا يجاهر بعزمه على استقلال مصر عن العثمانية وغير العثمانية. وأن يقوم فيها حكم مصرى صميم. وفى خطبة له ألقاها فى مأدبة عامة قال أن يريد كمصرى أن يربى هذا الشعب ويجعله كفواً للأستغناء عن مساعدة الأجانب. وكان من شأن هذا الكلام أن يغضب الأمراء والحكام من الأتراك، ولكنه لم يأبه لهم ومضى إلى تصفية العناصر التركية فى وظائف الإدارة الصغرى وإحلال زعماء البدو ومشايخ القرى المصريين مكانهم وأمر بأن يكون ثلث الموظفين الذين يتولون عمل نظار الأقسام (المأمير) من المصريين وفى عهد سعيد باشا تم تعيين أول مصرى فى منصب محافظ الجيزة وبلغت به الحماسة فى تمصير الوظائف أنه كان يجمع الموظفين المصريين ليحثهم على المثابرة والجلد، ويهددهم بعقوبات شديدة إذا لم يحققوا النجاح المنشود. ولانسى أن سعيد باشا هو الذى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية بدلا من التركية. وهو الذى زرع بيده أول طبقة من الضباط المصريين داخل الجيش. وبدأ بتجنيد أبناء مشايخ القرى الذين كانوا يتمتعون بالأعفاء من الخدمة العسكرية ثم ترقيتهم إلى سلك الضباط وفى ذلك يقول عرابى فى مذكراته:

وكان والدى شيخا على قرية هرية رزنة وكان عالما فاضلا تقيا أقام بالجامع الأزهر عشرين سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير، فلما بلغت سنى أربع سنوات أرسلنى إلى مكتب تحفيظ القرآن حتى ختمت القرآن الكريم وعمرى آنذاك ثمانى سنوات وبضعة شهور، ثم بدت لى المجاورة فى الأزهر حتى بلغت إثنى عشر عاما، وبعد سنتين رجعت

إلى بلدى، وكان سعيد باشا قد أمر بدخول أولاد مشايخ البلاد وأقاربهم فى العسكرية فدخلت ضمنهم، .

وترقى عرابى من تحت السلاح إلى رتبة ملازم ثان ثم ملازم أول ثم يوزياشى ثم صاغ ثم بكباشى ثم قائمقام إلى أن جرفته أحداث الثورة .

بذور التمصير فى عهد محمد على :

ولكن بعض المؤرخين يرى أن الأهواء والأمزجة الشخصية لا تكفى لتفسير الأحداث التاريخية الهامة . ومن ثم لم تكن حماسة سعيد باشا للوطنية المصرية ترجع إلى أسباب عاطفية، وإنما هى نمو طبيعى لمشروع التمصير الذى أرسى بذرته محمد على . فبدأه بالقضاء على تشتيت السلطة وتركزت مقاليدها فى يد الدولة المتجسدة فى الباشا ذاته، ورغم الصعاب التى تعرض لها المصريون من جراء نظامه الاقتصادى المعروف باسم «الاحتكار» فإن هذا الاحتكار زوده بالأموال اللازمة لشتى مشروعاته التى ارتبطت فى مجموعها بإنشاء الجيش الجديد، فقد أهتم محمد على بالتعليم الذى هدف إلى إعداد الكوادر اللازمة للجيش: من مهندسين وأطباء وضباط، كما جند المصريين للمرة الأولى منذ قرون، وأصبحوا يشكلون معظم الجنود العاملين بعد أن درج حكام البلاد، منذ تدهور الامبراطورية الفرعونية على تجنيد الأجانب بحجة أن المصرى غير صالح للجندية، كما عرفت مصر فى عهد محمد على نوعا جديدا من التعليم كان مرتبطا بالجيش فى المحل الأول، وأرسلت البعثات إلى أوروبا، واستقدم الفتيون الأوروبيون إلى مصر، وترجمت الكتب فى الوقت الذى أمكن فيه فك طلاسمة اللغة الهيروغليفية، ونشأ

فيه علم المصريات القديمة الذى كشف للمصريين وللعالم أجمع حقيقة الحضارة التى قامت واستمرت على ضفاف النيل آلاف السنين، وأدى كل ذلك إلى شعور المصريين بالانتساب إلى وطن له كيانه الخاص وتاريخه الخاص، وبدأ ازدهار الثقافة، واستقر الأمن والنظام فى عهد محمد على بسبب صرامته، وقوة الحكومة، وترتب على هذا كله: نمو الشعور بالوطنية المصرية الذى ما لبث أن عبر عنه أشخاص مبرزون فى مجال الأدب والمعمار والفنون العسكرية والهندسة والفلك والطب وغير ذلك وهذا النشاط الذى شهدته عصر محمد على هو الذى أوجد الطبقة الوسطى المصرية فى مجال التعليم والإدارة وليس الاقتصاد الذى احتكرته الدولة - حقيقة أن محمد على اعتبر المصريين غير أكفاء لتولى المناصب الإدارية الكبرى، إلا أنه استعان بهم فى وظائف الإدارة الصغرى، وبقيت المناصب العسكرية والإدارية الكبرى فى أيدي الأتراك والشراكسة فى المحل الأول ثم فى أيدي الأرمن والأوروبيين، ورغم أن كل موظفى الدولة الذين كانوا يشغلون الرتب الأعلى من رتبة شيخ البلد خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانوا من الارستقراطية - التركية الشركسية، فإن محمد على حاول إحلال مشايخ القرى والبدو المصريين محل الأتراك وإن لم تصب التجربة نجاحاً كبيراً.

●● أما فى مجال التعليم فقد خشى محمد على أن يصطدم بمشايخ الأزهر، ومن ورائهم الشعور الدينى الذى كان باستطاعة المشايخ تحريكه، لهذا أوجد التعليم الحديث المنفصل عن الأزهر، مما أوجد ازدواجية فى المجال الثقافى، وبمرور الوقت ازدادت أهمية المثقفين الجدد الذين أفادوا من «علمنة» أجهزة الدولة، وبخاصة إثر ازدياد

المؤثرات الأوربية . إما تمشياً مع رغبات الولاة من أبناء أسرة محمد على ، أو بفعل تدفق الجاليات الأوربية وزحف القوانين والمؤسسات الاقتصادية الأوربية ، والمثقفون الجدد المتصلون بالثقافة الأوربية هم الذين بشروا بالوطنية ونقلوا ألواناً من الفكر الأوربي الذي كان يروج بشق التيارات خلال القرن التاسع عشر ، في الوقت الذي كان لا يزال للفكر الإسلامي وزنه ، وبخاصة في دوائر رجال الدين والطرق الصوفية ، وإن كانت أهمية هذه الفئات كانت تسير في طريق الاضمحلال التدريجي بفعل إزدياد سلطة الحكومة من جهة ، والتغيرات التي طرأت على المجتمع المصري منذ عصر محمد علي .

وهكذا أنشأ محمد علي الجيش الذي ثار على الشراكسة في أوائل الثمانينات ، وشن حروب الشام التي بعثت النعرة المصرية خاصة ابنه إبراهيم غدي بنداؤه وتصريحاته الاتجاه إلى التمرد السافر على الامبراطورية العثمانية التي كانت لا تزال لها هيبتها باعتبارها أقوى الدول الإسلامية ، وكان البعض لا يزالون يعتبرونها دولة الخلافة . ثم جاء سعيد لينفخ في المصريين الروح الوطنية التي كان لها أثرها لدى عرابي .

(من دراسة للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ضمن كتاب مصر للمصريين) .

مخاوف الترك من تجنيد المصريين :

●● وأنت ترى من هذا أن فكرة الوطنية المصرية التي تعنى الاستقلال السياسي والعسكرية ، إنما غرست بذورها في التراب

المصري على يد محمد على، ثم والاهما ابنه سعيد بالرعاية حتى آتت أكلها في عهد اسماعيل، ثم تفجرت بالثورة في عصر توفيق. وكانت أداة محمد على لتحقيق هذا الحلم الكبير: إنشاء الجيش المصري القادر على إخراج مشروعه من عالم الأحلام إلى دنيا الحقيقة. وقد أقدم محمد على على هذه الخطوة الجريئة - تجنيد المصريين - على خلاف كافة الحكام الذين سبقوه منذ سقوط آخر دولة فرعونية قبل مقدم الاسكندر الأكبر إلى مصر بسنوات معدودة، فكانت الوصية السحرية التي يتوارثها هؤلاء الحكام هي: إبعاد المصريين عن الجيش حتى لا يستخدموا السلاح في تحرير بلادهم من الأجانب، وكانت هذه الهواجس تثقالب القادة الترك المحيطين بمحمد على عندما علموا بعزمه على تجنيد المصريين، وصارحوه بمخاوفهم من الإقدام على هذه الخطوة التي لا تحمد عقباه، ولكنه طمأن خواطرهم بأن تجنيد المصريين سيقصر على مستوى (الأنفار) أى الجنود فقط، أما رتب الضباط والقادة فستبقى حكرا على الأتراك ومن معهم من الشركس والألبان والأكراد وكل الفئات التي ورثت الامتيازات من المماليك.

لم يأبه محمد على بتحذيرات هذه الفئات الممتازة، لأنه كان يدرك مرامهم الحقيقية وهي إبقاء الامتيازات لهم مثلما كان الحال في العصر العثماني وقبله العصر المملوكى. وكان يرى في وجودهم عقبة في طريق مشروعه الكبير، وهو بناء مصر الحديثة، وكان محمد على على استعداد للإطاحة بأى عقبة تقف في سبيل هذا المشروع، بدليل أنه ذبح المماليك في القلعة، واستأصل جذورهم من القرية المصرية، ولم يكن من المعقول أن يفعل نفس الشيء مع هؤلاء المحيطين به والذين

ساعده على الانفراد بالسلطة، ولكنه لجأ إلى أسلوب آخر وهو خلق نواة لطبقة مصرية تأخذ مكانها الطبيعي عن طريقين:

- إتاحة الفرصة أمام المصريين لتملك الأراضي الزراعية.
- إتاحة الفرصة أمام المصريين للدخول في الجيش.

بالنسبة للموضوع الأول اصطنع محمد على طبقة أرستقراطية زراعية لها حق التوريث في الأبعديات والشفالك التي أنعم بها عليهم كمكافأة عن الحروب التي خاضوها ثم مضى إلى خطوة أبعد فأعطاهم حق الملكية المطلقة وكافة التصرفات الشرعية، فكان ذلك ميلاد الطبقة البورجوازية المصرية الجديدة التي قدر لها أن تقود الحركة الوطنية في مصر لمدة قرن حتى قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

وبالنسبة للجيش: استبعد محمد على تجنيد العناصر الهمجية التي كانت موجودة في مصر، وكانت أقرب إلى قطاع الطرق منها إلى العسكرية المنتظمة وأدرك أنها غير صالحة للخضوع لأساليب التربية العسكرية الحديثة، كما فشل مشروع تجنيد السودانيين، وكانت خطوته التالية بتجنيد المصريين .. وبهاتين الخطوتين وضع محمد على اللبنة الأولى في مشروع التمسير.. فلما جاء ابنه سعيد مضى في هذين السبيلين إلى ما هو أبعد. وهو إعطاء المصريين حق تملك الأراضي الزراعية والاستمتاع بنفس الحقوق التي كانت تتمتع بها الأرستقراطية التركية في عهد أبيه. مما أدى إلى بزوغ طبقة كبار الملاك الذين سوف يشتد ساعدهم في عهد إسماعيل ويتحملون عبء المواجهة ضد الأوروبيين عند اشتداد الأزمة المالية، وهم الذين سوف تتكون منهم

المجالس النيابية التي عرفتھا مصر بدءا من سنة ١٨٦٦ . أما عن الجيش فقد قفز سعيد إلى خطوة أبعد من خطوة أبيه وهي السماح بترقية الجنود المصريين إلى سلك الضباط . وكأنما فتح بيده الباب لتدخل منه الثورة العربية .

من أجل جمال عيون فرنسا

من الجائز أن تجامل صديقك في أفراحه فترسل اليه «بوكيه» ورد أو بطاقة تهنئة، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تتم عن المشاركة الوجدانية، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد بعيدة، فهذا أغرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث، عندما بعث الوالي «سعيد باشا» بكتيبة من الجيش المصرى لتخوض حرباً مع المكسيك مجاملة لامبراطور فرنسا «نابليون الثالث»، وفاء لروابط الصداقة بينهما (١١) ثم رأينا تبعات هذه الصداقة تمتد الى الخديو اسماعيل فجعلته يحتكم الى هذا الامبراطور في النزاع الذى نشب بين الحكومة المصرية، وشركة قناة السويس حول الامتيازات المجحفة التى تضمنها عقد تأسيس الشركة، وغاب عن العاهل المصرى أن الخصم لا يكون حكماً عادلاً، وأن مصالح الدول الاستعمارية لا تعترف بالصداقات الشخصية، فجاء حكم الامبراطور وبالا على الحقوق المصرية، وانحيازاً الى المصالح الفرنسية (١٢) .

كان سعيد - ومن بعده اسماعيل - يثقان ثقة عمياء فى نزاهة ملوك أوروبا، وفرنسا بالذات، على عكس مؤسس الأسرة العلوية محمد على الذى كان شديد الحذر من ناحية الأطماع الأوروبية، ولم يكن يحسن الظن بهم، ولا يسمح لهم بالتغلغل فى شئون البلاد تحت ستار المشروعات والمصالح المشتركة وعمل على حماية الاستقلال الوطنى من الوقوع فى براثن النفوذ الأوروبى، فرفض بشدة مشروع شق قناة السويس حين عرضه عليه «فرديناند «دليسبس» وأتباع الفيلسوف الفرنسى «سان سيمون» الذين سيطرت عليهم، الى حد الهوس، فكرة ربط القارات بالقنوات الملاحية، واستبدل بمشروع القناة بناء القناطر الخيرية لتنظيم الرى الدائم وزيادة الثروة الزراعية، وإن كان الموقف الراض للهيمنة الأوروبية لم يمنع محمد على من اقتباس أساليب النهضة الأوربية فى تأسيس مشروعه الكبير، فبعث البعثات الى هناك، واستقدم العلماء والخبراء الى مصر، ليعملوا تحت عينه الثاقبة، ورقابته الصارمة، ومضى وزئيه عباس الأول على هديه فى مقاومة النفوذ الأوروبى، وإذا كان عهد عباس يتميز بالجهالة والتخلف والرجعية، إلا أن استمساكه بالاستقلال الوطنى هو الحسنة الوحيدة التى تذكر له، فسلم البلاد، بعد أربع سنوات شداد الى من جاء بعده، وهى خالية من النفوذ الأجنبى.

بلاهة الوالى سعيد:

فلما كان عصر سعيد. نجح «دليسبس» فيما فشل فيه أيام أبيه، واستغل ضعف شخصية الوالى الجديد وانبهاره الشديد بالحضارة الفرنسية،

وصداقته الحميمة مع الامبراطور نابليون الثالث، فى الحصول على امتياز شق قناة السويس وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء فادحة، ولم يترث سعيد فى دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم، وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه فى سلامة النوايا الفرنسية، ثم بلغت به البلاهة - وليس النخوة - أن استجاب لمطلب صديقه الامبراطور نابليون الثالث بإرسال كتيبة من الجيش المصرى لتحارب الى جانب القوات الفرنسى فى المكسيك (١١) .

كان نابليون الثالث يحلم بإقامة امبراطورية فرنسية فى العالم الجديد، فانتهاز فرصة قيام ثورة فى المكسيك ضد نظامها الجمهورى وعمل على إذكاء نارها، وحاول تحريض انجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين، فلم تأبه الدولتان لتحريضه، فتحمل وحده مسئولية التدخل، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية، فلما تخرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوى صديقه الحميم سعيد باشا، وأبت شهامة الوالى المصرى أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقى أن يذهب الجيش المصرى ليحارب فى بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداة من بعيد أو من قريب، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندى وضابط تحت قيادة البكباشى السودانى خيرة الله محمد، وأبحرت الكتيبة الى المكسيك فى عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التى فرضت عليها فى شجاعة تحسد عليها حتى أن القائد الفرنسى وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنودا، وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم

أفرادها بمن فيهم قائدها، ولم يبق منهم سوى ٣٠٠ جندي عادوا الى باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم، فاستعرضها الامبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة، وبعد وصولهم الى الاسكندرية استعرضهم الخديو اسماعيل - بعد وفاة سعيد - في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافا بشجاعتهم.

ولم تكن حملة المكسيك هي الوصمة الوحيدة التي دمغت عهد سعيد بالخضوع للنفوذ الأوروبى، فهو أول من مد يده بالاستدانة من البنوك الأوروبية، ومهد الطريق للوعر أمام خليفته اسماعيل فمضى فيه الى النهاية التي أطاحت به، وهوت بمصر الى مستنقع الاحتلال. وفي ذلك يقول مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) وهو خير أوروبى: وإلى سعيد باشا يرجع الفضل التعس في عقده أول قرض اقترضته مصر من أوروبا، وخرج على سياسة أبيه محمد على وأخيه ابراهيم باشا اللذين استطاعا أن ينهضا بالبلاد، ويجاهد في سبيل استقلالها ذلك الجهاد الذى كلل بالنصر دون أن يكون لدهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك. وقد أورد المؤرخ إلياس الأيوبى معلومة لم أعثر عليها عند غيره، وهى أن سعيد باشا قدم الى صديقه دليسيبس - عند بدء المشروع - كل المتوافر عنده من المال، وقدره خمسمائة ألف ريال، وتحمل على نفقته الخاصة تكاليف حفر ترعة المياه العذبة التى قامت الشركة بإنشائها بأيدي المصريين، حتى إذا فشلت الشركة فى تسويق الأسهم الباقية المعروضة للبيع، أخذت الشهامة سعيد باشا فاشترى الأسهم وأنقذ الشركة من إخفاق محتم، وأنه ولولا وقوف سعيد

باشا، بجهده وماله وسلطانة - الى جانب صديقه الحميم، لما رأى المشروع النور، وتكشفت خبايا المشروع وما فيه من افتئات على الحقوق المصرية، وبعد أن انهالت أصوات النقد والملام على سعيد باشا لتفريطه فى مصالح البلاد، لم يسع سعيد إلا أن يعترف بخطئه وتسرعه فى توقيع عقد الامتياز، بلا ترو لصديق، وهو فرنساوى، فخاطبوه .. أو خاطبوا حكومته .. أما أنا فلست أستطيع سحب امتياز أعطيته (!!).

ويعزو الورخ عبد الرحمن الرافعى خضوع سعيد باشا للنفوذ الأوربى إلى ضعف شخصيته، وانبهاره بالأوروبيين وشدة ركونة إليهم، وميوله الفرنسية التى جعلته ينصاع لتأثيرات «دليسيس»، وأضرابه، حتى أخذ الأجانب يسيطون أيديهم على مرافق البلاد، ويستطيرون على الحكومة وسيادتها، ويشمخون بأنوفهم، وصار للقناصل والجاليات الأوروبية نفوذ لم يكن لهم من قبل فى عهد محمد على وإبراهيم وعباس الأول.

وإذا كان القرض الذى استداناه سعيد (وهو أحد عشر مليون جنيه) يتواضع بالقياس إلى القروض الفادحة التى اقترضها اسماعيل، فإن درجة خضوع سعيد للنفوذ الأوربى تهون بالمقارنة إلى ما ارتكبه إسماعيل. إسماعيل. فقد فتح البلاد على مصاريحها أمام المراهبين والأفاقين والمغامرين من حثالات الدول الأوربية، وجعل منهم بطانته وخاصته وأصحاب رأى والمشورة .. وانتهت سياسته الخرقاء إلى تطويق البلاد بسلاسل النفوذ الأوربى، وانهار صرح الاستقلال السياسى والاقتصادى الذى كسبته مصر فى عهد محمد على.

الخصم والحكم:

كان إسماعيل أوربي النزعة، مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها، ويعتقد فيهم حسن الدية، ولم يفتن إلى مطامعهم الاستعمارية، وبلغت به السذاجة أن لجأ إلى صديقه الامبراطور نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا، وقد شعر إسماعيل - في بداية حكمة - بفظاعة الالتزامات التي كبلت مصر بأعباء جسيمة، فأزعم إلغاءها إنطلاقا من الشعار الذي أعلنه بأن تكون القناة ملكا لمصر، لا أن تكون مصر ملكا للقناة، فاعترض على البنود التي تلزم الحكومة المصرية بتقديم عشرين ألف عامل لحفر القناة بالسخرة، وتفرض على مصر أن تدفع للشركة تعويضات في حالة تقصيرها عن توفير هذا العدد، واعترض على إعطاء الشركة حق تملك جميع الأراضي الواقعة على ضفتي القناة وإعفائها من الضرائب.. إلخ. ورفضت الشركة الفرنسية التنازل عن هذه الامتيازات، وحرصت الصحف الفرنسية على شن حملة ضد حكومة مصر، وتعزيد حق الشركة في هذه المكتسبات، وكان من الطبيعي أن ينحاز الرأي العام الفرنسي إلى جانب مصالح الاستعمارية ومن خلفه دوائر المال والبنوك والحكومة.. فماذا يعمل خديو مصر إزاء هذا التكتل الاستعماري؟؟ لجأ إلى صديقه الحميم نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع دون أن يدرك بأن امبراطور فرنسا لا يمكن أن يتخذ موقفا محايدا يعارض المصالح الاستعمارية لبلاده، وتجاهل إسماعيل الحقيقة البديهية بأن

الخصم لا يمكن أن يكون حكماً عادلاً.. وأن سياسات الدول الاستعمارية لا تعرف الصداقة الشخصية، وأن امبراطور فرنسا لا يستطيع إلا أن يحابي سياسة بلاده مهما كانت درجة المحبة مع خديو مصر، واستخدم «دليسبس» كل أسلحته لاحتباط مسعى إسماعيل بما فيها سلاح المرأة، وهي في هذه الحالة الامبراطورة «أوجيني» التي كانت تربطها بدليسبس قرابة عائلية، فلجأ إليها للتأثير على زوجها الذي ارتضاه الخديو حكماً.

الحكم الجائر:

وفي عام ١٨٦٤ أصدر الامبراطور حكمه ويقضى بإلزام الحكومة المصرية دفع تعويضات باهظة إلى الشركة الفرنسية مقابل تعديل بعض بنود العقد، وبلغت هذه التعويضات ٨٤ مليون فرنك (ثلاثة ملايين و٣٦٠ ألف جنيه مصري). وإذا علمت أن كل رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم بها الامبراطور، وانها تقارب نصف رأس مال الشركة. ويصف الرافعي هذا الحكم بأنه من الأحكام الجائرة في التاريخ، لأنه بنى على أسباب لا يسيغها عدل أو منطق، وإنما هو حكم قضت به «عدالة» نابليون الثالث، وخرجت مصر من هذا التحكيم بصفقة المغبون، واعتبرت الشركة حكم الامبراطور فوزاً مبيهاً كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر، ولو أن إسماعيل استمسك بشروطه ولم يقبل تحكيماً، لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة في العمل إذ كان كل شيء معلقاً على الأيدي العاملة المصرية، ولولاها لوقف المشروع وقضى عليه بالفشل دون أن تحرك

مصر ساكنا، ولكن شاء حظ مصر العاثر أن يركن إسماعيل إلى «العدالة الأوربية، فوقع عليها الظلم والاعتساف.

ربة السحر والجمال :

أما مؤرخ عصر إسماعيل - إلياس الأيوبي - فيرى في هذا الحكم نصرا للخديو على الشركة، بزعم أن إسماعيل حقق به تحرير البلاد من قيد كانت مغولة به، وله في ذلك حجج وتبريرات طويلة، إلا أن هذا الحكم الجائز - من وجهة النظر الوطنية - لم يوهن علاقة المودة بين الخديو والامبراطور، وانما زادت قوة ورسوخا، حتى أن إسماعيل عندما أقام الاحتفالات الأسطورية، بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ذهب بنفسه إلى فرنسا لدعوة الامبراطور وزوجته أو جينى، وأتاب نابليون زوجته لحضور الاحتفالات، فلما جاءت اهتز لها عرش الخديو ووضعتها على رأس الجمع الحاشد من ملوك وأمراء أوربا، وبدأت في نظر مؤرخى ذلك العصر كأنها إلهة الجمال والسحر والجلال، أو كأنها بين وصيفاتها في هذا الجو المخملى، أشبه بكليوباترا وهى تصعد مياه نهر السندس لتقابل مارك أنطونيو. وبلغ من انبهار الناس بها أن قال الأيوبي: من يدرينى أن تلك الامبراطورة الجميلة الأندلسية المولد والنشأة، قد تكون سائلة بيت عربى رفيع العماد، أو فرع دوحة ملكية أظلتها سماء «الحمراء، الشعرية فى غرناطة، مسقط رأس تلك الامبراطورة الجميلة، ومنبت صباها (١١).

لقد أنفق الخديو إسماعيل القناطير المقنطرة من الذهب والفضة على هذه الاحتفالات، كى يبدو أمام ملوك أوروبا بمظهر الثراء الباذخ،

وكانوا جميعا يعرفون ان إسماعيل ابتز هذه الأموال من عرق الشعب الكادح ليقدّم أطايب الطعام، وأثمن ألوان الشراب، حتى أن فرنسا شرها قال بعد أن أتى على كل محتويات مائدت: لقد أكلت ثروة ثلاثة فلاحين مصريين (١١) .

والأكثر دهشة أن عدالة السماء انتقمت من كل هؤلاء الذين أكلوا ثروة الفلاحين المصريين وحشوا بها بطونهم، وأصابتهم اللعة بعد عودتهم إلى ديارهم، ولم تمض بضعة شهور حتى كانت ألمانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا (حرب السبعين) وهزمتها هزيمة منكرة.. هوت بسمعتها إلى الحضيض، وإذا بالأمير الألماني الذي كان يراقص أوجيني في قصر الجزيرة ويبادلها عبارات المجاملة الكاذبة، يطيح بعرش زوجها الامبراطور نابليون الثالث، أما «أوجيني» التي بدت كأميرة الأحلام في مصر، فقد هوت من عالق العز، وزال عنها جمالها، وذبلت فتنتها التي سحرت عاهل مصر، وإذا بها تنجو بحياتها على سطح قطار حملها إلى إنجلترا، وهبطت إلى محطة لندن وهي معفرة الثياب والوجه وليس معها إلا القليل من المال والمتاع، وذابت في زحام العاصمة اللدود أن يشعر بها أحد، وعاشت في عزلتها الباردة وهي تعاني آلام الشيخوخة حتى هزمها الموت.

تطور الحياة البرمائية فى مصر

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
زكى زكى بطرس

مجلس شورى النواب

عرفت مصر الحياة النيابية لأول مرة فى تاريخها الحديث فى شكل «مجلس شورى النواب» الذى أقيم عام ١٨٦٦ بإيعاز أو بإيحاء من الخديو إسماعيل. ولم يكن لهذا المجلس سلطات برلمانية كما هو الحال فى النظم الديمقراطية العريقة مثل: تقديم الأسئلة والاستجابات وسحب الثقة من الحكومة، ولم تكن له صلاحيات دستورية لأنه لم يكن فى مصر دستور يفصل بين السلطات، ويحدد صلة كل منها بالآخر، ومع ذلك يبقى لهذا المجلس شرف البداية، ولا يعيبه أن هذه البداية كانت متواضعة، فكل الكائنات الحية كانت فى نشأتها مجرد نطفة أو جنين ضعيف ثم لا يلبث الوليد أن يستوى خلقا شديداً المراس. وقد جرت على هذا المجلس سنة التطور الطبيعى، وتوفرت له عناصر الاكتمال والنضوج من خلال المحن والكوارث التى تعرضت لها مصر فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وكانت أشدها محنة الاحتلال البريطانى الذى دأب على إجهاض أى محاولة القيام حياة نيابية كاملة، والحيلولة دون أن يملك الشعب المصرى زمام أمره، وقد

يبدو غريباً أن يحدث ذلك على يد بريطانيا العظمى - أم الديمقراطية ولكن تزول الغرابة إذا تذكرنا أن الدول الاستعمارية ترى في الديمقراطية صناعة أوروبية خالصة مقصورة على الشعوب البيضاء، ولا يجوز تصديرها إلى دول المستعمرات (١١) .

لماذا فكر إسماعيل في إنشاء هذه المؤسسة النيابية التي يفترض أن تنتقص من سلطانه المطلق؟ وتحد من هيمنته على كل مقدرات البلاد؟
لاشك أن إسماعيل، وهو يوقع فرمان إنشاء مجلس شورى النواب، فعل ذلك ضمن مشروعه الكبير لتحديث مصر، واقتباس مظاهر الحضارة الأوروبية، لقد أقام مدارس البنات، ونشر التعليم، وشاد القصور والأوبرا ودار الكتب .. فلماذا لا يستكمل معروضات «الفتريفة» الحضارية بهذا المجلس الذي صنعه على عينه، وخلقه بيده، وحدد له الاختصاصات الضئيلة التي لا تتجاوز مناقشة الموضوعات التي تحيلها إليه الحكومة، أو الاقتراحات التي يتقدم بها النواب .. ثم .. لاشيء بعد ذلك .. فليس للمجلس أن يمارس أبسط حقوق المجالس النيابية منذ نشأتها وهو: مناقشة الميزانية العامة للبلاد ومعرفة مصير الأموال التي يقدمها دافعوا الضرائب (١٢) .

ليس لنا أن نلوم إسماعيل على بخله في منح المجلس سلطات فعلية، فالمجلس جاء «منحة» من ولي النعم، وليس استجابة لمطلب الشعب، وفي مثل هذه المنح والأعطيات لا يليق بالمتلقى أن يحدد شكل الأعطية ونوعها وحجمها، وإنما عليه أن يظهر مشاعر الامتنان والتشكرات لكل ما جادت به الإرادة السنية (١٢) وهو ما فعله أعضاء المجلس حيث

أسرفوا في تمجيد وتقديس الذات الخديوية إلى حد العبودية أثناء ردهم على خطب العرش (١١) ولا بد أن نلتمس لهم العذر، لأن النظام السياسي كان استمرارا للحكم المطلق الذي فرضه محمد علي منذ تنكر للإرادة الشعبية التي أختارته وأجلسته على الأريكة المصرية رغم أنف السلطان العثماني، فإذا جاء حفيد محمد علي ليفتح هذه النافذة الصغيرة لينفذ منها شعاع ضئيل من نور الديمقراطية، فلا بد أن يقابل عمله بالامتنان دونما إسفاف أو إسراف في العبودية (١١).

ديكور للتجميل :

لم يكن إسماعيل يتمنى أن يصنع مجلسا يشاركه الحكم أو يشكل قيادا على حريته المطلقة، وإنما كان أقصى ما يبتغيه أن يقيم بناء شكليا أو «ديكورا» يجمل صورته أمام ملوك أوروبا، فيظهر لهم في شكل العاهل المتحضر الذي لا يقل عنهم في الأبهة والمدنية، ولكن.. لم تمض بضع سنين حتى تطورت الأمور على غير ما كان يقصد إسماعيل، وإذا بالأعضاء الذين أريد لهم القيام بتمثيل دور «النواب» قد اندمجوا في أدواهم، ونزجوا أقنعة «التمثيل»، وامتلكوا زمام المبادرة، وفرضوا أنفسهم على الحياة السياسية، وصاروا شركاء في تقرير مصير البلاد بعد أن تدهورت الحالة المالية، وبعد أن غرق إسماعيل في مستنقع الديون، وأوشكت مصر أن تغرق معه في هاوية ليس لها قرار، وبات استقلالها مهددا، والدول الأوروبية تتربص بها وتتلمظ، عندئذ تحمل هؤلاء النواب المسئولية، وتقدموا الصفوف ليدرأوا عن مصر شبح الاحتلال. ولكن باءت جهودهم بالفشل بسبب وطأة النفوذ الأجنبي، وسلبية السلطان

العثماني، وتخاذل الأريكة الخديوية. وسوف يذكر التاريخ للحياة النيابية الوليدة أنها شبت عن الطوق، ومرت بأطوار النمو والارتقاء، واستخلصت حقوقها البرلمانية بأظافرها، وانتزعت سلطاتها من برائن أحفاد محمد على الذين جبلوا على الاستبداد والطغيان.

شريك مخالف:

هل كان إسماعيل، وهو يضع لبنات مجلس شورى النواب، يتوقع أن ينقلب «الهزار» إلى «جد»؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلى شريك مخالف شرس؟ وأن يصبح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية: أننا هنا سلطة الأمة.. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (١١) قالها عبدالسلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩م عندما توجه رياض باشا - وزير الداخلية ورمز الاستبداد - وهو منتفخ الصدر إلى قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة، حتى تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين - الإنجليزي والفرنسي - لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية، وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء، فأعدوا مشروعاً مضاداً، يقضى بأن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشؤون المالية، وإصلاح مفاصل الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجبيين، وشعرت الحكومة بما تعدّه المعارضة الوطنية، فبيتت النية على إجهاض المشروع الوطني، والتمهيد لإعلان إفلاس مصر، واستصدرت مرسوماً خديوياً بفض المجلس قبل مواعده، وما كاد

رياض باشا يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة حتى انبرى له النائب الجريء عبدالسلام المويلحي (وتذكر هذا الاسم جيدا فسوف تلتقي به كثيرا في تلك الأحداث الجسام) وقال للباشا رياض: كيف ينفض المجلس وهو ينظر بعد في القانون الخاص بالشئون المالية؟ إن الأهالي قد أنابوا عن أنفسهم نوابا للمحاماة - يقصد الدفاع - عن حقوقهم، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالي على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه ومن المستحيل أن ينفض المجلس (!!).

وبهت رياض باشا لهذه اللهجة التي لم يتعود سماعها من مصري ينتمي أبوه إلى فئة التجار، فقال مستكبرا: ماذا تقول حظرتكم؟ مستحيل فض المجلس؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديونا المعظم.. هل حظرتكم فاهم قيمة مسئولية ما تقوله؟ واتجه رياض إلى بقية الأعضاء لتخويفهم حتى لا ينضموا إلى النائب الجريء، وقال لهم: ما أظن حظرات إخوانك يوافقون على ما تقول..! وكانت المفاجأة أن اندفع الأعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم وأعلنوا تضامنهم معه في كل ما يقول.. وهم رياض باشا بالنهوض إيدانا بإنهاء الجلسة، عندئذ صاح عبدالسلام المويلحي في وجهه: إننا هنا سلطة الأمة.. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) عندئذ وجم رياض لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التي أعادت إلى الأذهان أحداث الثورة الفرنسية، لقد قالها «ميرابو» في وجه مندوبى الملك لويس السادس عشر حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب قبل مناقشة القضايا التي كانت بين أيديهم، وصارت هذه العبارة الفتيل الذى أشعل الثورة.. وتداعت الذكريات في رأس رياض وهو يسمع نفس العبارة بلسان مصري

مبين، فعاد إلى مقعده صائحا: يعلى حظرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين
ثاروا على حكومتهم؟ يعلى حظراتكم الآن.. بعمائمكم وجبيكم مثل
نواب أوروبا وأمريكا؟؟ ورد النواب الإهانة بعشرة أمثالها، وصاح أحمد
العويسى: يا باشا أنت الآن تشتم نواب أمتك التى تعطيك أنت وغيرك
مرتباتكم الشهرية، وقال عبد الشهيد بطرس: إن كلامك هذا وقاحة
والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه، وقال
أحمد الصوفانى: أوافق العضو على رد الإهانة للناظر حتى يعلم أن فى
البلاد أمة حية، ولها نواب يدافعون عن كرامتها، وهذا قال عبدالسلام
المويلحى: أسمعت يا باشا...؟؟ أرايت عاقبة تسرعك فى الكلام..؟
اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب.. بل مسألة نواب لهم عقول
تفهم جيدا رغبات الأمة التى أنابتهم عنها.. أليس من العيب، وأنت
وزير فى وزارة يزاملك فيها وزير انجليزى وآخر فرنسى، وهما فى
الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة، ثم تجمع أمس - أمام الوزيرين
الأجنيين - أصحاب الجرائد وتقول لهم: إن الحكومة عازمت على فض
مجلس شورى النواب غدا.. فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة
واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج.. تقول
عن نواب بلادك.. مصر العزيزة.. ونحن جميعا درسنا فى الأزهر
الشريف! واختتم الشيخ حسن عبدالرازق هذه الملحمة الوطنية بقوله: إن
ما قاله المويلحى يعبر عن أفكارنا جميعا.. فصاح النواب: موافقون..
موافقون.. فلم يملك رياض باشا إلا أن غادر قاعة المجلس وهو يهذى:
إذن أنا منسحب.. أنتم عصاة.. أنتم ثوار.. فتوجه المويلحى بمخاطبة
كاتب الجلسة: لاتحذف حرفا واحدا مما قيل فى جلسة اليوم.. حتى إذا

نقلته الجرائد غدا علمت الأمة جميعا من هم الهمج: النظار أم النواب (١١) .

واستجاب النواب لطلب المويلحي باعتبار المجلس فى حالة انعقاد دائم.. وتناوب الأعضاء على المبيت فى القاعة.. حتى اهتزت أعصاب الحكومة، فاستقالت ثم توالى الأحداث التى أفضت إلى عزل إسماعيل ثم نشوب الثورة العربية.

سنة التطور:

تذكر أن هذه الواقعة حدثت سنة ١٨٧٩ أى بعد ثلاثة عشر عاما من قيام المجلس الذى أراد صانعه أن يكون برلمانا سوريا، وشاءت الإرادة الشعبية أن يكون برلمانا حقيقيا، ولم يرد على خاطر إسماعيل أن سنة التطور لابد أن تمضى فى طريقها إلى مالا نهاية، وأن الخطوة التى قطعها لابد أن تتلوها خطوات حتى يبلغ الكتاب أجله، ويملك الشعب المصرى زمام أمره ويفرز رجالا يعرفون حقوقهم البرلمانية ويتمسكون بها، إن غالبية النواب الذى واجهوا استبداد رياض باشا بهذه الصورة القاسية، هم نفس النواب الذين تشكل منهم مجلس شورى النواب عند ولادته، ولكن الأحداث صهرتهم، والمحن أنضجتهم، فهى خير مدرسة لتفريخ القيادات الوطنية. وعندما رسم الخديو إسماعيل طريقة انتخاب أعضاء المجلس، توخى أن يكون الانتخاب محصورا فى عمد البلاد ومشايخها، ولم يترك للشعب حرية الانتخاب حتى لا يفلت الزمام من يده، وحتى لا يتسلل إلى عضوية المجلس بعض العناصر المثقفة التى لاتخفى سخطها على الخديو وحكمه الأتوقراطى وتبذيره أموال الشعب.

ونهمه الشديد فى امتلاك الأراضى حتى صار يملك خمس الأقطان المصرية .

إبعاد المثقفين :

جاء تشكيل المجلس - كما لاحظ المؤرخ عبدالرحمن الرافعى - على الصورة التى أرادهم ولى النعم من العمدة وكبار ملاك الأراضى، وخلصوا من العناصر المثقفة أو المعارضة . أما طبقة التجار والصناع فلم يكن لهم ممثلون إلا النزر اليسير الذى لا يؤثر فى طابع المجلس . وكذلك خلا من الطبقات المتعلمة التى تخرجت من المدارس والبعثات العلمية منذ عهد محمد على، فهؤلاء لم يكونوا ممثلين فيه، لأن نظام الانتخاب فى ذاته لم يجعل لهم حظا فى عضوية المجلس، أضف إلى ذلك أن هذه الطبقة كانت إلى ذلك العصر منصرفة إلى مناصب الحكومة، ولم تتجه إلى الحياة الحرة، ولم تألفها بعد، فكانت بحكم هذه الظروف جزءا من الأداة الحكومية، وبذلك حرم المجلس من هذه العناصر الحرة المثقفة التى تبعث فى الهيئات النيابية نورا من الحياة والحرية والاستقلال فى الرأى، وتبث فيها روحا من الشعور بالواجب والشجاعة الأدبية، والتطلع إلى المثل العليا .

ولم تكن فى البلاد - حين تأسس المجلس - صحافة تلبه الأفكار، وترشد النواب إلى واجباتهم وتبصرهم بحقائق الأمور، وتشر مداولاتهم، وتستثير اهتمام الكافة بمباحثهم، ولائمة جمعيات سياسية تبث أفكارهم ومبادئها القويمة فى نفوس النواب، ويتألف منها ومن الصحافة رأى عام يراقب المجلس ويواجهه إلى الوجهة التى ينشدها .

ومن ناحية أخرى لم تكن فى البلاد ضمانات نظامية أو قانونية أو قضائية أو فعلية تحمى حرية الآراء وتكفلها. فكل هذه الظروف كان لها أثرها فى تضيق حياة المجلس، وتحديد موافقه وخططه وأعماله.

سلطان المجلس:

رسم إسماعيل نظام مجلس شورى النواب فى لائحتين:

* اللائحة الأساسية: وتشتمل على بيان سلطة المجلس وطريقة انتخابه وموعد اجتماعه.

* اللائحة النظامية: وهى أشبه باللائحة الداخلية التى تنظم مداولاته.

وقد أوجز الرافعى ما جاء فى اللائحتين مستخلصا نظام المجلس وسلطاته على النحو التالى:

أولا: إن المجلس لم تكن له سلطة قطعية فى أى أمر من الأمور، وهو إن كان يصدر قرارات فيما يعرض عليه من الشئون إلا أن هذه القرارات لا تعدو أن تكون «رغبات» ترفع إلى الخديو، وله فيها القول الفصل، ولم تحدد اللائحة الأساسية ولا اللائحة النظامية المسائل التى يبدى رأيه فيها، بل عبر عنها بأنها المسائل «التي تراها الحكومة من خصائصه»، وأشار فى بعض المواد إلى أنها المسائل المتعلقة «بالمنافع الداخلية، ويبدى رأيه أيضا فى المقترحات التى يتقدم بها الأعضاء».

ثانيا: يتألف المجلس من عدد لا يزيد على ٧٥ عضوا، ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها فى المديریات،

وجماعة الأعيان فى القاهرة، والاسكندرية، ودمياط، وكان عدد نواب كل مديرية بحسب التعداد فينتخب واحد أو اثنان عن كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره، وينتخب ثلاثة نواب عن القاهرة، واثنان عن الاسكندرية، وواحد عن دمياط.

ثالثا: يشترط فيمن ينتخب عضوا أن يكون مصريا، ومن المتصفين «بالرشد والكمال، ولا تقل سنه عن خمس وعشرين سنة، وأن لا يكون ممن صدرت ضدهم أحكام جنائية بالليمان أو من المحكوم عليهم بالإفلاس، أو الطرد من وظائف الحكومة بحكم، واشترط فى العضو العلم بالقراءة والكتابة فى الانتخاب السابع، أى بعد مضي ثمانى عشرة سنة على تأسيس هذا النظام، لأن مدة كل مجلس ثلاث سنوات، ومعنى ذلك أن النواب كانوا يعفون من هذا الشرط فى الانتخابات الستة الأولى.

ولوحظ فى هذا التمييز أن هذه المدة تكفى لانتشار التعليم فى البلاد، حيث يشترط فى الأعضاء بعد انقضائها أن تكون لهم دراية بالقراءة والكتابة، واشترط فى الناخبين أن يكون لهم إلمام بالقراءة والكتابة فى الانتخاب الحادى عشر، أى بعد انقضاء ثلاثين سنة على الانتخاب الأول.

رابعا: يحصل انتخاب نواب كل مديرية فى عاصمتها، وكل ناخب ينتخب العضو النائب عن قسمة، ويناط فرز أوراق الانتخاب بلجنة مؤلفة من المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى وقاضى المديرية.

خامساً: يجتمع المجلس شهرين في كل سنة، من ١٥ كيهك لغاية ١٥ أمشير (أى من منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير)، أما المجلس الأول فيجتمع من ١٠ هاتور إلى ١٠ طوبة (نوفمبر، يناير)، ويكون اجتماعه فى القاهرة، وجلساته سرية، وللخديو جمع المجلس أو تأخيرها أو إطالة مدة إجتماعه أو تبديل أعضائه «حله» وإجراء انتخابات جديدة «مادة ١٦ و ١٧ من اللائحة الأساسية».

سادساً: تعيين رئيس مجلس النواب ووكيله منوط بالخديو دون أن يكون للمجلس رأى أو ترشيح فى هذا التعيين «مادة ٣ من اللائحة النظامية».

سابعاً: يفتتح الخديو المجلس بمقالة «خطبة العرش» ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب لا يقطع فيه بشىء من الأمور التى يقتضى نظرها المجلس «مادة ٤ و ٥ من اللائحة النظامية».

ثامناً: ينتخب المجلس من بين أعضائه لجاناً تسمى «أقلاماً»، ومن أعمالها فحص صحة نيابة الأعضاء، وتعرض قراراتها على هيئة المجلس، ومن يقرر المجلس صحة انتخابهم تعرض أسمائهم على الخديو ليعطى كل واحد منهم «البيرولدى»، أى الأمر باعتماد عضويته.

تاسعاً: للمجلس توقيع عقوبات على من يتخلف من الأعضاء بدون عذر عن حضور الجلسات «مادة ١٢ من اللائحة النظامية».

عاشراً: يتمتع الأعضاء أثناء انعقاد المجلس بشىء من الحصانة النيابية، فلا ترفع عليهم دعوى «جنائية» فى أثناء الانعقاد إلا إذا ارتكب أحدهم جريمة القتل «مادة ٥٣ من اللائحة النظامية».

حادى عشر: إدارة نظام الجلسات منوطة برئيس المجلس، ولا يجوز للعضو أن يتكلم إلا إذا طلب الكلام وأذن له الرئيس بذلك ولا يتكلم إلا وهو فى موضعه، وتصدر القرارات بطريقة أخذ الآراء علانية وبالأغلبية.

وعلى المجلس احترام رأى الأقلية، والإصغاء لأقوالها وملاحظاتها (مادة ٣٥ من اللائحة النظامية، وهذه القاعدة من أهم أركان النظام النيابى).

ثانى عشر: أعضاء المجلس يحضرون إلى المجلس بملابس «الحشمة اللائقة، وجلوسهم فيه يكون «بهيئة الأدب» (مادة ٤٠)، ولا يجوز لأى عضو نشر مناقشات المجلس أو طبعها إلا بإذن من الرئيس، وإلا كان عرضة للجزاء الذى يوقعه به المجلس (مادة ٥٤).

هذه هى القواعد الجوهرية التى على أساسها أنشئ مجلس شورى النواب، وخلصتها أنه مجلس استشارى ينتخب أعضاؤه بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات، ويجتمع شهرين فى كل سنة، وجلساته سرية، وليس له رأى نافذ فيما يعرض عليه من الشئون. ولاريب فى أن المجلس النيابى الذى يقوم على هذه القواعد لا يمكن أن يؤثر تأثيرا عمليا فى سياسة الحكومة، مالم يتطور نظامه مع الزمن، ويكتسب حقوقا ومزايا جديدة، ولو جعل إسماعيل باشا للمجلس سلطة قطعية فى شئون الحكم، وخاصة فى مسألة الضرائب والقروض، لبعث فيه روحا من الحياة والنهضة، ولأمكن أن تنال مصر على يده مزايا عظيمة، فإن تصرفات الحكومة المالية كانت فى حاجة إلى رقابة فعلية

تتولاها هيئة نيابية، ولو وجدت هذه الرقابة لوضعت حدا للقروض
الجسيمة التي تلاحقت في عصر إسماعيل وأفضت إلى التدخل الأجنبي
في شئون مصر.

نائبان مشاغبان

كان مجلس شورى النواب - النواة الأولى للحياة النيابية بمصر - أقرب إلى المجالس المحلية منه إلى المجالس البرلمانية التي عرفت في أوروبا قبل قرون والتي عرفت في مصر فيما بعد، فلم يكن للمجلس صلاحيات تبيح له مناقشة السياسة الخارجية والداخلية وحتى النظر في الميزانية العامة للبلاد، وهو أبسط حقوق المجالس النيابية بل هو الحق الذي كان سبباً في نشأة البرلمان الإنجليزي، واقتصرت مهمة أعضاء مجلس شورى النواب على التداول في المسائل المحلية البحتة مثل نشر التعليم الابتدائي وردم البرك والمستنقعات وضريبة المواشي والتخفيف من وطأة السخرة على الفلاحين وإلغاء القانون الذي يبيح للحكام ضرب العمد (!!) وبقيت مهمة المجلس في الإطار الذي حدده الخديو إسماعيل، والتزم الأعضاء بالصلاحيات التي جادت بها أريحية ولي النعم، ولم يكن لهم أن يخرجوا عليها، ولم يكن من المتصور في ظل الحكم الاستبدادي أن تظهر أجنحة المعارضة داخل المجلس.. وليس صحيحاً ما زعمه بعض كتاب الغرب بأن النواب رفضوا الجلوس في

مقاعد اليسار المخصصة للمعارضة، لأنه لم تكن هناك معارضة أصلاً.. ولأن المعارضة مرتبطة بوجود أحزاب، بعضها يؤيد الحكومة، والبعض يعارضها، ولم يكن في مصر أحزاب في تلك الفترة من تاريخها السياسى.. بل كان من المستحيل أن يسمح «إسماعيل» بظهور معارضة لحكمه حتى أنه أمر بطرد نائبين ظهرت منهما بوادر الشغب داخل المجلس (!!) وقد افتتح الخديو إسماعيل أول جلسة لمجلس شورى النواب بالقلعة يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ واكتشف رئيس المجلس إسماعيل باشا راغب أن اليوم يصادف عيد ميلاد الخديو، فاغتتم الفرصة ليوجه إلى ولى النعم آيات التبريك، ويعلن اعتبار اليوم عيداً سنوياً تعطّل فيه مصالح الدولة، وصار ذلك تقليداً سار عليه ملوك الأسرة العلوية. ثم ألقى خطاباً في العرش فكانت أول خطبة من نوعها تعرفها الحياة السياسية المصرية. ولم يرد في الخطاب أى ذكر لوظيفة المجلس وحدود سلطاته أو المهام الملقاة على عاتق الأعضاء باستثناء «تذاكر المنافع الداخلية وإعلان الآراء السديدة، أما مصير هذه الآراء السديدة ومدى التزام الحاكم بها، فهو شىء لم يتطرق إليه خطاب العرش ولو على سبيل التلميح.

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن هذا الخطاب من الوثائق الهامة فى تاريخ الحياة النيابية بمصر. ويصف خطبة العرش بأنها فى مجموعها سديدة المعانى، وجيزة العبارة، وأهم ما فيها أنها قررت قاعدة الشورى فى نظام الحكم، واستندت فى تقريرها إلى القرآن الكريم، مما يجعلها قاعدة لا محيص عنها، ويثبتها فى نفوس الشعب، وفيها تمجيد لنظام الشورى وإشادة بمزاياه ومنافعه، وإعلان بأن الغاية

من الحم هي منفعة الجمهور، فرود هذه المبادئ الهامة في النطق الخديو هو خير دعاية لها وإعلان عنها،

ولأدرى كيف فات على مؤرخنا الكبير أن الشورى تفقد مفعولها إذا لم تكن ملزمة للحاكم، ولا يكفي تمجيد الحاكم لنظام الشورى والإشادة بمزاياه، إذا لم يقترن ذلك بإعلان الحاكم احترامه لما تسفر عنه الشورى. وبذلك يتجنب المزالق التي تنجم عن الانفراد بالرأى. ولو كان إسماعيل صادقاً في احترام مبدأ الشورى منذ البداية، لما انزلق إلى الهاوية التي انتهت بخلعه، ووقوع البلاد فريسة للنفوذ الأجنبي والاحتلال الإنجليزي.

أما الرد على خطاب العرش فقد تكفلت به لجنة من عشرة أعضاء صاغوا خطابهم في قالب تمجيد وتقديس الذات الخديوية، يكاد يقرب من العبودية - على حد تعبير الرافعى - مما لا يتفق والروح النيابية الصحيحة، ويتضمن خلاصة لتاريخ مصر، وما كان لها من المجد والسؤدد في سالف العصور، وما آلت إليه من الاضمحلال والتقهقر إلى أن تولى زمامها محمد على باشا، فنهض بها وأعاد مجدها القديم، ونوه بفضل إبراهيم باشا لمؤازرة أبيه في أعماله الجليلة، وما أعقب عصرهما من انكماش نهضة التقدم، إلى أن تولى الخديو إسماعيل الحكم فاستأنف العمل لنهضتها، وأفاض الجواب في ذكر مآثر إسماعيل، ثم أظهر ابتهاج المجلس لما ناله الخديو من تعديل نظام وراثته العرش وحصره في أكبر أنجال الوالى بعد أن كان في أكبر أفراد الأسرة العلوية. أما من حيث الأسلوب فقد كان خطاب الرد صورة أدبيات العصر التي تهتم بالسجع المتكلف، والعبارات الركيكة، والتملق المرذول.

وفى الجلسة التالية تشكّلت خمس لجان أو (أقلام) وفقاً للمعرف الحكومى السائد. وجاء تشكيل اللجان على أساس إقليمي.. فهذه لجنة الشرقية وأخرى للبحيرة وهكذا.. وليس على أساس المهام الموكولة إلى المجالس النيابية مثل لجنة الشئون الدستورية ولجنة الأمن القومى ولجنة الميزانية.. إلخ وانتهى الدور الأول لمجلس شورى النواب فى ٢٤ يناير ١٨٦٧ أى أن فترة الانعقاد لم تستغرق سوى شهرين تداول فيها الأعضاء حول المشاكل المحلية.. وفى جلسة الختام ألقى رئيس المجلس خطبة وجيزة أعرب فيها عن التشكرات للخديو على منشأته العظيمة الموجبة لأزدياد العمران،.. وعلى الأخص إنشاء هذا المجلس. وشكر الأعضاء على سديد أفكارهم التى أبدوها أثناء مداولاتهم. أما كيف تمت هذه المداولات.. وماهى القضايا التى تداولوها.. فهو الذى يهمنا ونحن نرصد بدايات الحياة النيابية..

حول طريقة المناقشات وحدودها يقول الرافعى: كان للمجلس أن يتداول فيما تعرضه عليه الحكومة من الشئون ويبدى رأيه فيها، كما أن له أن يتداول فى الاقتراحات التى يقدمها أحد الأعضاء، فإذا تقدم عضو بأى اقتراح، يعرضه رئيس المجلس على الهيئة لتتحدث أولاً فى: هل تنظر فيه أم لا.. فإذا استقر رأيها على المداولة فيه ترسل صورته إلى المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) ليحاط به علماً، ثم يطرح على بساط البحث، ويتداول الأعضاء فيه، ويحيلونه فى الغالب على لجنة تنتخبها الأقلام (اللجان) فإذا أتمت اللجنة بحثه قدمت عنه تقريراً يطبع ويوزع على الأعضاء، ثم يتداولون فيه، وإذا استقر رأى المجلس على قرار فى موضوعه، يرسل القرار إلى المعية السلية لعرضه على الخديو ليقرر فيه

مايراه، وإذا استدعت المناقشة حضور بعض كبار الموظفين لتوضيح وجهة نظر الحكومة يحضر الناظر (الوزير) المختص أو الموظف الفني فيدلى بالإيضاحات المطلوبة، ويكون حضور اللظار أو كبار الموظفين بناء على طلب المجلس أو برأى الحكومة.

مقترحات الأعضاء:

أما المقترحات التي تقدم بها الأعضاء وشغلت جلسات الدور الأول فتعطينا صورة عن القضايا التي كانت تشغل الرأي العام في ذلك الوقت. وقد استخلصها الرافعى من المضابط الأصلية المحفوظة في مكتبة البرلمان. ويرجع الفضل في جمعها وتبويبها وتنسيقها إلى الأستاذ محمد خليل صبحى رئيس قلم مكتب مجلس النواب. فأدى بهذه الجهود خدمة للتاريخ يستحق من أجلها الشكر والثناء. وقد أوجز الرافعى أهم المقترحات التي بحثها مجلس شورى النواب فيما يلى:

١ - أول المقترحات التي تقدم بها الأعضاء اقتراح من هلال بك أحد نواب الدقهلية فى بحث مسألة السخرة ووضع نظام يخفف من وطأتها، فتداول الأعضاء عدة جلسات فى هذه المسألة، ثم أحييت على لجنة (قومسيون) سميت لجنة (العمليات) مؤلفة من خمسة أعضاء، وهم محمد بك سعيد، وحسن أفندى شعراوى، ويوسف محمد، والسيد أحمد الشريف، والشيخ محمد الصيرفى.

وقد بحثت اللجنة هذه المسألة واشترك معها فى البحث إسماعيل باشا صديق وسلامة بك إبراهيم، وثاقب باشا، وعلى بك مبارك، وكان إفاد هؤلاء المهندسين من طرف الحكومة لارتباط مسألة السخرة

بمشروعات الري والهندسة، فقدمت اللجنة تقريراً مطولاً خلاصته تنظيم السخرة على أساس اعتبارها من المنافع العامة، وأنها مفروضة على من تتراوح أعمارهم بين ١٥ ، ٥٠ سنة من أهل البلاد التي تستفيد من أمال السخرة، وجعلها مبنية على قاعدة المساواة بين الأهليين (والمساواة في الظلم عدل)، فوافق المجلس على تقرير اللجنة، وطلب عمل إحصاء للأنفس تطبيقاً لهذه القاعدة حتى يؤخذ الأنفار للسخرة بالدور.

واستتبع بحث السخرة إثارة مسألة أخرى أوعزت بها الحكومة، وكان المجلس في غنى عنها وهي ضريبة على المواشي وحثتها في ذلك أن أعمال المنافع العامة التي تنفذ بواسطة السخرة تقتضى مهمات وأدوات يجب شراؤها بالثمن، ولما كانت المواشي الموجودة بالأقاليم مخصصة لأعمال الزراعة، فوجب أن يفرض عليها مقدار معلوم من الضريبة، بما يوفى ثمن هذه المهمات، وعلى ذلك وافق المجلس على فرض هذه الضريبة، ومقدارها عشرون قرشاً في السنة على كل رأس من مواشي الزراعة كالأبقار والجاموس والثيران والخيول والبغال، أما الجمال ففرض على كل رأس منها ثلاثون قرشاً، وعلى كل رأس من الحمير عشرة قروش، واستثنيت من هذه الضريبة مواشي المدن والبادر.

٢ - اقترح إبراهيم أفندى الشريعى رئيس لجنة المنيا، النظر في مسألة تقسيط الأموال الأميرية، وتحديد مواعيد لدفعها تسهيلاً لسدادها، فأحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء وهم: محمد أفندى شعير، ونصر الشواربى، وميخائيل أثناسيوس، ومحمد عفيفى،

وحميد أبوستيت، ورأت اللجنة وجوب تحديد مواعيد للسداد فى أوقات
جنى المحاصيل توفيراً لراحة الأهالى فى دفع الأموال، وقد حضر
حافظ باشا وزير المالية إلى المجلس بعد أن قدمت اللجنة تقريرها فى
هذا الموضوع، وأوضح وجهة نظر الحكومة، وهى أن رأى المجلس فى
محله، ولكن الحكومة لايمكنها تعديل مواعيد الضرائب لأنها مرتبطة
بدفع فوائد ديونها فى المواعيد المحددة لسداد الأموال، واستحسن تأجيل
النظر فى هذه المسألة إلى السنة المقبلة، إذ ينظر المجلس فى مسألة
الديون ومسألة التقسيط معا، فأقر المجلس ذلك.

٣ - اقترح أتربى بك أبو العز أحد نواب الغربية، تعميم المدارس
(الإبتدائية) بإنشاء مدرسة فى كل مديرية، فأقر أعضاء المجلس
الاقتراح وحبذوه، وظهر منهم الميل الشديد إلى تعميم التعليم بين
طبقات الأمة كافة، وأحالوا المشروع على لجنة مؤلفة من عمر أفندى
أبو يحيى، ومحمود حمودة، وعلى سيد أحمد، والسيد محمود العطار،
وأحمد أفندى أباطة، وأنتهت اللجنة فى تقريرها إلى وجوب إنشاء
مدرسة فى كل مديرية وكل محافظة، ويكون التعليم فيها مجانياً،
وحضر شريف باشا ووافق باسم الحكومة على تقرير اللجنة، غير أنه
طالب تأجيل إنشاء المدارس فى السويس والقصير والعريش حتى يتم
إنشاء المدارس فى المديرىات والمحافظات الأخرى، فوافق المجلس على
ذلك، وأفضى شريف باشا فى بيانه بالجهود التى تبذلها الحكومة فى
سبيل نشر التعليم، وأنهى إلى المجلس أن الخديو وقف على المدارس
جميع الأطيان التى يتألف منها تفتيش الوادى، فقابل المجلس هذا البيان
بالشكر والدعاء للخديو.

٤ - اقترح سليمان أفندى عبدالعال من نواب أسيوط النظر فى وضع نظام لسندات التعامل بين الناس، وأحيلت هذه المسألة على اللجنة المؤلفة لبحث مسألة التقسيط، وحضر إسماعيل صديق باشا حين المناقشة فيها، وأنهى إلى المجلس أن الحكومة مشغلة بسن قانون عن الرهون.

٥ - اقترح ميخائيل أفندى أثناسيوس من نواب المنيا إلغاء نظام العهد (جمع عهده)، وخلاصة هذا النظام أن الحكومة فى عهد محمد على باشا كانت تعهد إلى بعض الأعيان والأمورين ورجال الجهادية جباية ضرائب بلاد بأكملها ممن كان أهلها غير قادرين على زراعة جميع زمانها أو متأخرين فى سداد مالها، فكان المتعهدون يتكلفون بسداد الضريبة من مالها الخاص إذا لم يجبوها من الأهلىن، وقد أدى هذا النظام إلى إرهاب الفلاحين لأن المتعهدين كانوا يسخرونهم لمصالحهم الخاصة فألغته الحكومة سنة ١٨٥٠ إذ أصدرت أمرها باسترجاع البلاد من المتعهدين ثم عاد العمل به فى أوائل عهد إسماعيل، فضج الناس من مساوئه، فلا غرو إن قوبل اقتراح ميخائيل أفندى أثناسيوس بالاستحسان.

وحبذ الأعضاء فك العهدة وإعادة الأطيان إلى أصحابها، ثم قرروا إحالة المسألة على لجنة انتخبت لهذا الغرض، مؤلفة من الشيخ العدل أحمد، وأحمد على، والحاج شتا يوسف وأحمد عبدالصادق، ومحمد الوكيل.

وانتهت المناقشة فى الموضوع بأن قرر المجلس فك العهد جميعها ابتداء من سنة ١٢٨٤ هـ ووافقت على هذا القرار ونفذته.

٦ - اقترح محمد أفندى حمادى من نواب جرجا، وضع نظام لضبط عملية تحصيل الأموال فى المديرىات لمنع العبث فى قيد المتحصلات، وذكر أن الأهالى فى الوجه القبلى يدفعون المال ليد (الشاهد) ويقيد ما يدفعونه فى ورق عادة ويبقى المتحصل عند (الشاهد) لآخر الشهر حتى يحضر الصرف، وإنه لطول المدة وعدم القيد بالدفاتر المعتمدة يحصل الخبطة ومغشوشية فى الإيراد.

٧ - اقترح سليمان أفندى الملوانى من نواب الغربية، منع مجازاة العمد بالضرب، وقال الشيخ محمد الشواربى بمنع الضرب عن العمد وغيرهم من الأفراد، وأن يرفع من القانون النص الذى يبيح الضرب للحكام، وتناقش الأعضاء طويلا فى هذه المادة، ثم صرح رئيس المجلس بأن القانون الذى تجرى الحكومة وضعه وتنقيحة منصوص فيه على منع الضرب فاكتفى المجلس بذلك.

٨ - اقترح هلال بك النظر فى الأطيان الناشئة عن زيادة المساحة من صالحة وبور، وإضافتها بالمال إلى أصحاب الأطيانا المتداخلة فيها أو الملحقة بها.

٩ - اقترح الشيخ محرم على من نواب الدقهلية فتح قنطرة البوهية وإزالة ما بها من السدود التجرى المياه فى ترعة البوهية ولا تحرم بلاد مركز السنبلاب من الرى

١٠ - اقترح الشيخ العدل أحمد من نواب الدقهلية. إعادة فم البحر الصغير على النيل بدلا من فمه كان على ترعة المنصورة لسهولة وصول مياه الرى إلى البلاد الواقعة عليه.

١١- واقترح على بك خفاجى نائب دمياط توصيل مياه ترعة الشرقاوية إلى البلاد الكائنة بشطوط دمياط .

١٢- واقترح كل من حميد أوستيت ومحمد سحلى من نواب قنا إصلاح الرى بحوض سمهود الواقع على حدود مديرية قنا وعمل مصرف للحوض المذكور .

وفى تعليق الراقى على مقترحات الأعضاء ومداولاتهم بأنها كان يبدو عليها حسن القصد، والرغبة الصادقة فى خدمة المصالح العامة، وإصلاح حالة البلاد من الوجهة الاقتصادية، وتحسين حالة الأهلىن الإجتماعية، كما يبدو عليهم الإتزان فى الآراء، وسلامة المنطق، والخبرة بالمسائل المحلية التى تباحثوا فيها، وكان يعوذهم - إلى حد ما - الاستقلال فى الرأى، والإضطلاع بالمسائل العلمية والمالية، أما الحكومة فكانت تعنى بتتبع مباحثات المجلس . وتوفد رجالها فى بعض الجلسات للاتصال بالأعضاء فى مباحثهم وإطلاعهم على وجهة نظرها، وكان حضورهم يحكم صلة التفاهم بين الأعضاء والمجلس، وكان أكثر رجال الحكومة عملا فى هذا الصدد:

إسماعيل باشا صديق مفتش عموم الأقاليم وقتئذ، وصاحب الحظوة الكبرى عند الخديو إسماعيل .

ولم يتناول الأعضاء فى مباحثهم بدور الانعقاد الأول إلا الإصلاحات المحلية ، أما المسألة المالية التى كانت تشغل الأفكار فى ذلك الحين فإنهم لم يعرضوا لها، كما لم يطلبوا إطلاعهم على ميزانية الحكومة ليتباحثوا فيها، ولم يبدأ تطلعهم إلى البحث فى المسألة المالية إلا فى دور الانعقاد الثانى .

قصة كاذبة:

وقبل أن نمضى مع مجلس شورى النواب فى دورته الثانية يهمنى الإشارة إلى قصة روج لها بعض الكتاب الأجانب حول موقف المعارضة ومكانها أثناء الجلسة الأولى للمجلس. فقد زعموا أن شريف باشا - وزير الداخلية إذ ذاك - تحدث إلى النواب أثناء دخولهم القاعة، وأفهمهم أن المجالس النيابية تنقسم دائماً إلى حزبين: أحدهما حزب يؤيد الحكومة، والآخر يعارضها، وأنه يجدر بهم أن يؤلفوا من بينهم هذين الحزبين. ويختار كل منهم الحزب الذى يتفق مع ميوله، فالأعضاء المؤيدون للحكومة يجلسون على اليمين، ونواب المعارضة يجلسون فى اليسار، وتمضى الراوية الموضوعة فتزعم أن النواب استنكروا أن يكون من بينهم من يعارض الحكومة (!!) وجلسوا جميعاً فى مقاعد اليمين إعلاناً عن ولائهم للحكومة والعرش.. فأفهمهم شريف باشا أنه لا بد أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار.. فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعهم إلى مقاعد اليسار (!!).

وقد تكفل الرافعى بتنفيذ هذه القصة المختلقة التى تهدف إلى التهمك والسخرية من الحياة النيابية المصرية فى مراحلها الأولى. فهى ولاشك من مخترعات بعض الكتاب الأوربيين الذين يطيب لهم اختلاق أمثال هذه الحكاية. يقول: لقد بحثنا كثيراً فلم نجد لها سنداً من أقوال شاهد عيان ولم يرد ذكرها ولو تلميحاً فى مضابط المجلس. على أن الراوية فى ذاتها لا يسيغها المنطق، فإن نظام المجلس وحدوده واختصاصه ملابساته، كل ذلك لا يدع مجالاً لتأليف حزب للحكومة وحزب

للمعارضة.. فالأحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة، ولم يكن لمجلس شورى النواب هذا الحق أصلاً، هذا من الجهة.. ومن جهة أخرى فقد شهد أحد الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (جليون دنجلار) حوادث مصر في الفترة من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٧٥ وله عن مشاهدات فيها مذكرات ورسائل تكام فيها عن مجلس شورى النواب، فلم يذكر هذه الحكاية، ولا أشار إليها، ولو كان لها ظل من الواقع لما فاتته أن يذكرها، وهذا يقطع ببطلانها، وكل ما ذكره المسيو «دنجلار» عن موقف المعارضة في المجلس: أنه ظهر من بين أعضائه نائبان معارضان أبديا رأيهما بما يخالف وجهة نظر الحكومة، فكان جزاؤهما الطرد من المجلس بأمر الخديو باعتبار أنهما عضوان مشاغبان وخطر على الأمن العام (١١) .

فهذه الرواية يسيغها العقل ويؤيدها المنطق، فإن نزعة الحكومة الاستبدادية تأبى أن يقف نائب في ذلك العصر موقف المعارضة، فلا غرابة أن تبادر الحكومة إلى طرد النائبين المعارضين من المجلس، وكنا نود إن نعرف من هما هذان النائبان الجريئان اللذان ظهرا بهذا المظهر المشرف في أدوار الانعقاد الأولى لمجلس شورى النواب ولكلنا لم نظفر بهذه الأمنية (١١) .

الفلاح الفصيح

لكى نكون منصفين فى الحكم على مجلس شورى النواب يجب أن نعيد قراءة خطبة العرش التى تليت باسم إسماعيل صبيحة افتتاح المجلس بالقلعة فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ م، والتى حدد فيها إسماعيل مهمة المجلس فى التداول فى المنافع العامة وإبداء الآراء السديدة ، وجرى الأعضاء من أوليات حقوق المجالس النيابية، وهى مناقشة الميزانية العامة للبلاد.. ولقد رأيت كيف استهل إسماعيل خطبته بذكر مناقب جده محمد على وأبيه إبراهيم باشا وما لهم على مصر من أفضال جعلتها مليئة عامرة بالخيريات بعد أن كانت خاوية على عروشها. كما عرضت عليك رأى المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ، فى هذه الخطبة وكيف أنها وثيقة هامة فى تاريخ الحياة النيابية بمصر، وأنها فى مجموعها سديدة المعانى، وجيزة العبارة ، وقررت قاعدة الشورى فى نظام الحكم.. إلخ.

أرى من كمال البحث، واتساع الرؤية أن أعرض عليك رأيا آخر لباحث معاصر هو الدكتور لويس عوض، ففى رأيه أن أهم المعانى

التي قصد الخديو إسماعيل إيصالها إلى الأعضاء - ليس مجرد التباهي بما أداه جده وأبوه لمصر من خدمات - وإنما إعلانه بأنه يعد عهده امتدادا واستكمالاً لعهد محمد علي إبراهيم باشا، وإدانتته صراحة لعهد عباس الأول وسعيد باشا الذي عده انقطاعاً بل انقلاباً في تاريخ مصر الحديث. وهذا - في رأي لويس عوض - بمثابة إعلان من جانب إسماعيل أن سياسته مبنية على المبادئ التالية: أولاً: بناء الدولة العصرية بكافة مقوماتها المادية والمعنوية على أرض مصر.

ثانياً: اتباع سياسة استقلالية عن الباب العالي على عكس عباس الأول، واستقلالية عن الدول الأوروبية على العكس سعيد.

ثالثاً: تدعيم روابط مصر بأوروبا لبناء الدولة العصرية على غرار ما فعل محمد علي إبراهيم باشا بمنطق تعامل الند من الند.

أما المعنى الثاني الهام الذي أراد الخديو إسماعيل إيصاله لأعضاء برلمان الأول فهو أن حدود اختصاصهم تقف عند السياسة الداخلية وليس لهم أن يتدخلوا في السياسة الخارجية.

وأما المعنى الثالث الهام الذي اهتم الخديو إسماعيل بإبرازه، فهو أنه يعتقد فقط بحدود الشورى التي قالت بها الشريعة الإسلامية، فالمجلس إذن مجرد مجلس استشاري، وليس له أن يتصور أنه سلطة شعبية داخل الدولة يمكن أن تملأ إرادتها على العرش أو على السلطة التنفيذية. (راجع كتاب الدكتور لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ المبحث الأول: الخلفية التاريخية - الجزء الثاني - الهيئة العامة للكتاب).

باطن المعانى :

ويمتد الخلاف بين رأى لويس عوض والرافعى إلى خطاب الرد على خطبة العرش الذى أعده عشرة من أعضاء المجلس . فالرافعى انتقد الخطاب ووصفه بأنه ملىء بالزراية، وصيغ فى قالب تمجيد وتقديس للذات الخديوية يكاد يقترب من العبودية، وفى اعتقاد لويس عوض أن الرافعى أخطأ الفهم لأنه وقف عند الحروف والعبارات ولم يتغلغل فى باطن المعانى . بل يرى أن الرد على خطبة العرش نموذج مجدد من خطبة الفلاح الفصيح الذى غلف مطالبه فى معسول الكلام، وعبر عن مراده بالأدب المصرى التقليدى الذى يحسبه من لا يفهم المصريين نفاقا ورياء .

وهذا نص الرد على خطبة العرش:

«بعد ما تشرفنا بالإصغاء للمقالة الجليلة، الجامعة جوامع الكلم الجليلة، نبادر إلى الاعتراف بما حوته بغاية الانشراح وكمال الارتياح . ونقول: إن ما قطفناه من زواهر الأخبار التاريخية وعرفناه من سواف الديار المصرية، أنها كانت فى الأعصار الخالية راقلة فى حلل المفاخر الحالية، وأن بقية الأقطار كانت تستمد من نيل معارفها الوافر، معترفة بأنها مغترفة فى الأصل من نيل عوارفها الزاخر . لكن لتداول أيدي من لم يحسن تدبير ملكها من الملوك السالفين ، تناوبتها نوائب الزمن، وتناولتها أيدي المحن، حيناً بعد حين، فاندurst معالمها الباهرة وانطمست آثار مفاخرها الزاهرة، ولعبت بها أيدي الدهور وتكاثرت فيها الحروب والشرور حتى رجعت القهقري واصبح غيرها من الممالك فى

أنواع التمدن متقدما وملكها متأخرا وقاسى أهلها من الذلة والمسكنة مما صاروا به فى غاية الحقارة والمهانة، إلى أن أراد الله تعالى أن يعيد شبابها بعد الهرم، ويجدد ما كان من بنيان محاسنها قد انهدم وينقذ أهلها من هذه المهالك، وينظمها فى سلك أحسن الممالك: فشرفها بجد العزيز جنتم كان محمد على باشا، فأعاد لها من العمارية ومحاسن الآثار الأصلية ما كان قد تلاشى، وأفرغ وقالبه فى إصلاح حالها، وأعمل سديد رؤية وشديد عزمه فى إعادة جمالها وكمالها. حتى أزاح عنها تلك الوخامة وألبسها حلل الشهامة والفخامة وأحكم معالم الإحكام وأقام بها دعائم العدل بين الأنام، ودون فيها دواوين المعارف المتسقة. وجمع بها أصناف المآثر المفترقة. وجدد فيها القوانين العسكرية وانشأ دوارس المدارس العلمية والحكومية حتى ظهرت بعد الخفا وازهرت أقلتها بزهور الصفا، وعاد إليها من البهاء والبهجة ما كانت فقدته فى سالف الأيام، وانتظمت مصالحها الأهلية والملكية بحسن تدبيره أحسن نظام، مع ما فازت به من غرائب الصناعات الفائقة، وعجائب الآثار الرائقة، مما شهود لنا جميعا، وتبوأنا به بيتا من العز رفيعا، فضلا عما أورثها من الغنى الأتم والفخار الأعم من الاستحكامات الملكية وإحكام العمليات الوطنية العائدة بعظيم النفع على عموم الرعية حتى بذلك حسدت مصرنا الأمصار ومصرنا بحمد الله متقدمين فى درجات العمار.

وقد كان والد العزيز الأكرم عوننا لوالده، وهو الجد الأمجد من حال حياته ممضيا الطرق الموصلة إلى التقدم والعمار بسديد آرائه وشديد عزماته. ولما آلت إليه الحكومة سلك سبيل أبيه، وبنى على تأسيساته الباهرة مما حسن مساعيه، وأخذ ينشئ ما يكمل به رونق الوطن،

ويجدد من العمارية والآثار الجليلة ما يبقى على ممر الزمن: من انشاء
المجالس الحقانية وتكثير الرجال الحربية والاستحكامات الملكية، وغير
ذلك مما عقدته نيته، وأضمرته طويته فحسدتنا الأيام عليه فلم نتمتع
بنافع حكومته إلا قليلا حتى نقله الله إليه. ثم تولى على الأقطار
المصرية وولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت
همة مصر السابقة، وضعفت حركة تقدمها الفائقة إلى أن نفحتنا
النفحات الإلهية، واسعفتنا العناية الربانية بالحضرة الإسماعيلية،
وأعطى القوس باريها، لطف من الله بهذه الديار ومن فيها، وتولاها،
العزیز بن العزیز ذلك الجانب الأفخم، والدواری الأكرم فقام فى تنظيم
أمرها على ساق وقدم وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى تجديد ما
انهدم وإحياء ما انعدم وأخذ يداوى تلك العلل، ويسد ما تخلل بعد أبيه
من الخلل وسعى فى مقاصد أبيه وجده باذلا فى مواجهات التقدم
والتمدن الوطنى غاية جهده، شاغلا باله باقصى أنواع العمارية، مديرا
فكره فيما يستدعى لهذه الأقطار كمال الرفاهية، فأبدى من ذلك ما لم
يكن فى الحساب وأراها من البهجة وأسباب الثروة ما لم تره فى سالف
الأحقاب، ورتب ملكها أحسن ترتيب، ونظم عقده فى سلك غريب
بأسلوب عجيب. ومن تمام عناية رب العالمين أن ألهم سلطاننا الأعظم،
ولا غرو لأن الملوك من الملهمين، حصر وراثته الحكومة على التأييد فى
نسل إسماعيل بأن يتولاها أكبر أولاده بعد عمره المديد: فيالها من فكرة
جليلة رائقة أسست فى هذه الديار من دواعى العمار الأسباب الفائقة،
واستلزمت تحسينا لأحوالها وتأمينا لحالتها واستقبالها أطال الله عمر
سلطاننا المهاب، وذلك دعاء إن شاء الله مستجاب. ثم ازدادت الهمهم

الاسماعيلية بصرف أفكاره الخيرية العلية، فيما يعلى قدر الوطن، ويرقى انتظام حاله على أسنى سنن، ومن كمال همته السنية، وتماز رأفته ورحمته بالرعية، وشغفه بدوام راحتهم وتماز رفايتهم، اقتضت إرادته العلية إنشاء مجلس شورى أهلية وطنية، لما يعلمه من أن جمع الآراء فى أمور العالمين، والمداولة فى مصالح الرعية مع عقلاء الوطنيين من مقتضيات حسن النظام وموجهات كما لاللتام، وتماز راحة الأنام. وفوض أعضاء ذلك المجلس لعموم الأهالى حتى ما يحكمون فيه من الأمور بواقع مألوفهم وعرض جميع ذلك إلى حضرة الوالى تبرؤا من غوائل المغدورية، وتوفيرا لدواعى العدالة العمومية. فكنا نحن المنتخبين من سائر الجهات، المصادقين بموسم دولة الحضرة الخديوية بأمر الأوقاف.

وإذا كان إنشاء هذا المجلس الأنيق من أجل المساعى الحميدة، وأتم نعمة أسداها وفوض ولى النعم عبيده، فمن الواجب الأهم التشكر لتلك الحضرة العلية، والتباهى بتلك المنقبة البهية. ورفع أكفنا آناء الليل وأطراف النهار بالدعوات فى أجل الأوقات وسائر الحالات أن يخلد عز قطرنا هذا بدوام سعود افندينا الأفخم ولى عهده حضرة محمد توفيق باشا الأعز أفكارهم بجاه خاتم الرسل الكرام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. (الرافعى: عصر إسماعيل، ج ٢).

الاعتراض الوحيد:

والا اعتراض الوحيد، من جانب لويس عوض، على هذا الرد الذى وضعت له لجنة الرد على خطاب العرش هو أسلوبه السقيم القائم على

الإسراف فى الكليشيهات اللغوية والجناس وبقية زخارف المقامات وقد كانت خطبة العرش أرقى أسلوبا وأشد تركيزا من رد النواب . ومع ذلك فلا ينبغي أن يصرفنا ذلك عن تأمل المعانى التى تضمنتها هذا الرد .

وأهم ما جاء فيه أنه يبدأ بتصحيح كلام إسماعيل فى أدب شديد . إسماعيل يقول : إن جده محمد على انتشل الشعب المصرى من العدم والانحطاط فجعل لمصر كيانا ونشر المدنية فيها ، فيجيبه النواب بأن مصر لم تكن دائما زرية ولا منحطة وإنما كل من يدرس «الآخبار التاريخية» و«سوالف آثار الديار المصرية» يعرف أن مصر كانت فى تاريخها القديم أم المدنية والعمران وينبوع العلوم والفنون والآداب الذى ارتوت منه كل الحضارات الأخرى باختصار : لا تباها بجدك العظيم فلحن أيضا لنا وجود أعظم . والمبدأ الثانى الهام الذى أوضحه نواب البلاد هو أن انحطاط الأمة المصرية بعد مجدها القديم لم يكن من انحطاط المصريين أنفسهم ولكن من انحطاط ملوكهم : «لكن لتداول أيدى من لم يحسن تدبير ملكها من الملوك السابقين ، تناوبتها نواب الزمن» . والشاهد على ذلك يا مولاي أن ملكين من أسرتك ، عباس وسعيد ، خربا كل آيات المدنية والعمران التى أقامها الملكان الآخران محمد على وإبراهيم باشا ، على أرض مصر . وإعلان مبدأ أن فساد الأمم من فساد ملوكها ، إعلان خطير لأن فيه تحميلا ضمنيا لإسماعيل نفسه للمسئولية عن عمار مصر أو خرابها .

والمبدأ الثالث الهام الذى أعلنه النواب يشبه أن يكون برنامجا للعمل رسمه النواب للخديو إسماعيل فخطبة العرش غامضة ليس فيها تفصيل واحد عما ينتوى الخديو إن يفعله لمصر غير قوله أنه سعيد بأنه

سيستكمل ما بدأه محمد علي وإبراهيم باشا من المدنية وال عمران . أما النواب فيحددون له أن محمد علي وإبراهيم باشا لم يجددوا مجد مصر القديم إلا بالعمل على إزالة الفساد والفوضى المملوكية بإزاحة «الوخامة» وعلى إقرار الأحكام وإقامة «دعائم العدل بين الأنام» وعلى نشر التعليم « وإنشاء دوائر المدارس العلمية والحكمية» ، أى إنشاء مدارس العلوم والآداب وعلى بناء قوة مصر العسكرية «من الاستحكامات الملكية» وإحكام العمليات الوطنية العائدة بعظيم النفع على عموم الرعية حتى بذلك حسدت مصرنا الأمصار، وتألّبت على محمد علي وحطّمته .

والمبدأ الرابع الذى أعلنه الرد على خطاب العرش هو إدانته لعهد عباس وسعيد بوصفه عهدا مخريا للمدنية «ثم تولى على الأقطار المصرية ولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت همة مصر السابقة، وضعفت حركة تقدمها الفائقة» . أما المبدأ الخامس الذى أعلنه النواب فى الرد على خطاب العرش فهو أن المصريين يعدون نجاح إسماعيل فى تغيير فرمان وراثته العرش فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ عملا حضاريا خطيرا، لان نظام الوراثة العثمانى الذى كان يحصر وراثته العرش فى أرشد أعضاء البيت الملكى ملأ القصر الملكى بدسائس الأمراء والطامعين ورجال البلاط فخرّب الحياة السياسية المصرية وحال دون استقرار البلاد .

ومن أهم ما ورد فى الرد على خطبة العرش اصرار النواب على تلقيب الخديو اسماعيل آنا «بعزيز مصر» (وتولاها العزيز بن العزيز) وأنا آخر «بسلطان مصر» (أطال الله عمر سلطاننا المهاب) ، رغم علمهم بأن

الباب العالى رفض تغيير لقب إسماعيل إلى «عزيز مصر» حتى لا يصبح السلطان عبدالعزيز عبدالعزيز، كما رفض تغيير لقبه إلى «السلطان إسماعيل»، لأن لقب «السلطان يضع والى مصر التابع على قدم المساواة مع سلطان تركيا المتبوع، فتم التراضى على أن يحمل إسماعيل لقب «الخدو» التى يقال أنها تعنى شيئا قريبا من «الإلهى» باللغة الفارسية واصرار النواب على التمسك بلقب «العزيز» أو بلقب «السلطان» يحمل معنى التحدى للباب العالى والنزوع إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية.

ديكور.. أم منحة:

والخلاف بين الرافعى ولويس عوض حول تقويم مجلس الشورى لا يقف عند تحليل خطب العرش والردود عليها، وإنما يمتد إلى فكرة إنشاء المجلس نفسه والأسباب التى دفعت الخديو إسماعيل إلى خوض المعترك البرلمانى، مما ألقى على المجلس شبهة «الديكور» أو «المنحة».. وهو ما يقول به الرافعى، وهو ما يرفضه لويس عوض فى فصل من أمتع فصول كتابه المذكور فيقول:

الشائع بين المؤرخين أن الخديو إسماعيل حين استحدث فى مصر الحياة النيابية فأنشأ أول برلمان مصرى باسم «مجلس شورى النواب» فى ١٨٦٦، إنما فعل ذلك تحقيقا لسياسته العامة وهى أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا. وبهذا تكون الحياة النيابية فى مصر «منحة» من الخديو، وليست ثمرة كفاح ديمقراطى أو مطالبة شعبية، مما يفض من أهلية الشعب المصرى للحياة الديمقراطية. وهو رأى لم يسأم الاستعمار البريطانى من ترديده ليس فقط فى عصر إسماعيل، ولكن

طوال فترة الاحتلال البريطاني من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٦ . وقد شارك الاستعمار الأوروبي الإستعمار البريطاني هذا الرأي الذى تبناه الاستعمار الأمريكى أيضا بعد خروج أمريكا من الحرب العالمية الثانية الدولة الأعظم بين الدول العظمى . وقد كان طبيعيا أن يتبنى الاستعمار هذا ليتسنى له حكم مصر بالحديد والنار مباشرة أو من خلال الأوتوقراطية المصرية المستبدة لكى يقمع إرادته ويعرقل تقدمه ويحول دون خروجه من ظلمات العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث، فيضمن بذلك تبعيته وييسر نهبه .

وقد وقع فى هذا الفخ مؤرخ كبير مثل عبدالرحمن الرافعى حيث يقول فى الجزء الثانى من كتابه «عصر إسماعيل»، ثم إن تأسيس هذا المجلس من غير أن تتبعه حركة مطالبة من الأمة جعله يأخذ شكل المنحة، ومن هنا نشأت سلطته ضئيلة ونفوذه يكاد يكون شكليا . ومن جهة أخرى فنظام الانتخاب كان له أثر بال فى تكوين المجلس، ذلك أن حصر حق الانتخاب فى العمد والمشايخ أسفر عن انتخاب معظم النواب من بين العمد وأعيان البلاد، حتى صار جديرا بأن يسمى «مجلس الأعيان» . وهو يقول:

«ولو جعل إسماعيل باشا للمجلس سلطة قطعية فى شئون الحكم، وخاصة فى مسألة الضرائب والقروض، لبعث فيه روحا من الحياة والنهضة ولأمكن أن تنال مصر على يده مزايا عظيمة، فإن تصرفات الحكومة المالية كانت فى حاجة إلى رقابة فعلية تتولاها هيئة نيابية . ولو وجدت هذه الرقابة لوضعت حدا للقروض الجسيمة التى تلاحقت فى عصر إسماعيل وأفضت إلى التدخل الأجنبى فى شئون مصر» .

وفى تقديرى - يقول لويس عوض - إن المثاليين من طلاب الكمال دفعة واحدة ينتظرون من كل شيء أن يكون كالسيد البدوى، يولد بأسنانه كاملة، ويريدون من الطفل أن يمشى دون أن يحبو ويتعجلون أن يروا فى مصر مجلس العموم البريطانى أو البرلمان الفرنسى دون ثورات أو فلسفات ثورية سابقة. ومع ذلك فهم يعلمون أن ٨٠٠ سنة من التاريخ الإنجليزى والتشنجات الشعبية الانجليزية تفصل الماجنا كارتا Magna Charta (١٢١٥) أيام الملك جون King John عن البرلمان الانجليزى اليوم، وإن قرونا دموية تفصل «مجلس الطبقات Etats G'e'eneraux (١٣٠٢) أيام الملك فيليب الرابع Pbilippeiv عن البرلمان الفرنسى اليوم. ومع ذلك فهم يعلمون أن البرلمان الانجليزى احتاج إلى حرب أهلية امتدت خمس سنوات من ١٦٤٠ إلى ١٦٤٥ وإلى اعدام ملك هو شارل الأول ليقرر مبدأ أن التاج الانجليزى لا يحق له فرض الضرائب دون موافقة البرلمان أى بعد أربعة قرون من الماجنا كارتا، تاريخ بدء الحياة الدستورية فى إنجلترا.

وهم يعلمون أنه حتى صدور قانون التصويت العام فى إنجلترا عام ١٨٦٠ كان حق انتخاب أعضاء البرلمان الانجليزى محصورا فيمن يدفعون للدولة ضريبة قدرها ٥٠ جنيه سنويا ، وإن هذا النصاب كان قبل قانون الإصلاح الأعظم فى ١٨٣٢ مائة جنيه سنويا.

وفى فرنسا تقرر مبدأ التصويت العام فى دستور ثورة ١٨٤٨ فأى عجب أن تبدأ مصر حياتها النيابية عام ١٨٦٦ بمبدأ «حصر حق الانتخاب فى العمد والمشايخ» ، وأى عجب فى أن تبدأ مصر حياتها النيابية بإصرار التاج المصرى على الاستئثار بحق فرض الضرائب وعقد القروض بدون موافقة ممثلى الأمة؟

ويستطرد لويس عوض: وليس صحيحاً ما يفترضه الرافعي واللورد كرومر من أن إسماعيل أنشأ «مجلس شورى النواب» منحة منه ومدة على الأمة المصرية ليزيد من «رونق الحكم وبهائه» بلغة الرافعي أو كمجرد «ديكور» بلغة اللورد كرومر، «من غير أن تسبقه حركة مطالبة من الأمة». فمن يتأمل تحول «مجلس الأحكام» من هيئة عسكرية بحتة في عهد محمد علي وعباس الأول إلى هيئة مدنية تضم أعيان البلاد المصريين وذواتها الاتراك المتمصرين. ومن يتأمل انتقال الأغلبية في مجلس الأحكام إلى أيدي الأعيان المصريين، ومن يتأمل كثرة صراعات سعيد باشا مع «مجلس الأحكام» إلى حد البطش به مرتين خلال عهده القصير، ومن يتأمل انتقال رئاسة مجلس الأحكام من أحد أمراء البيت المالكي وهو الأمير إسماعيل إلى شريف باشا يستطيع أن يرى بجلاء أن الملوك لا يمنحون وإنما يرخصون صاغرين، ويستطيع أن يرى بجلاء أن سعيد باشا «صديق الفلاح» لم يكن صديق الفلاح لمجرد طيب النوايا وحسن السجايا، وإنما صادق الفلاح تحت ضغط اجتماعي قوى نشأ من استفحال طبقة جديدة تكونت في مصر من أوساط الملاك الزراعيين وغير الزراعيين المصريين هي طبقة المشايخ والعمد، ويستطيع أن يرى بجلاء أن كل حاكم مصري استقلالي النزعة وقع في تناقض أساسي مع الاستعمار العثماني - بل وأي استعمار على إطلاق القول - وقع نتيجة لذلك في مأزق الاختيار بين إرضاء سيده التركي وإرضاء رعاياه المصريين، فأثر إرضاء الرعايا لأنهم في نهاية الأمر رجاله وسنده في تحطيم التبعية على إرضاء سيده الذي لا يكتفى بشيء أقل من التبعية. فلا محمد علي حين أنشأ مجلس المشورة في

١٨٢٩ من ٩٩ من الأعيان المصريين إلى جانب ٥٧ من علماء الدين ورجال الإدارة، ولاسعيد حين أعاد إنشاء «مجلس الأحكام» من ١١ عضوا من الأعيان المصريين إلى جانب أعضائه من الذوات، ولا إسماعيل حين إنشاء «مجلس شورى النواب» بمرسوم ٢٢ أكتوبر ١٨٦٦ من ٧٥ عضوا ينتخبهم لمدة ثلاث سنوات عمد البلاد ومشايخها وأعيان القاهرة والإسكندرية ودمياط، لا هذا ولا ذاك ولا الثالث كان يمنح الأمة المصرية «منحة» الحكم الليابى، وإنما كان يتجاوب مع ضغط الطبقات المصرية الجديدة فى الريف والحضر التى بدأت تتخلق فى مصر درجة درجة منذ أن صفى بونايرت نفوذ المماليك وأملاكهم ومصر الحكم المصرى حتى تحولت إلى طبقات قادرة على الحركة الإجتماعية والسياسية وعلى الفكر الإجتماعى والسياسى بعد أن أصبحت قادرة على الحركة الاقتصادية.

وقد سار محمد على وسعيد وإسماعيل فى نفس اتجاه التمسير والتجاوب مع الضغط المصرى للمشاركة فى الحكم والإدارة، فواجهوه بهذه المجالس النيابية لا حبا منهم فى الديمقراطية، فقد كانوا جميعا أوتوقراطيين، ولكن تحالفا مع المصريين فى مواجهة الباب العالى. وقد كان طبيعيا جداً منهم أن يجعلوا من هذه المجالس النيابية مجالس «مشورة» لا مجالس تشريع حتى لا تنتقل السلطة الفعلية من أيديهم إلى أيدي الطبقات الجديدة. وما تاريخ الديمقراطية المصرية إلا تاريخ هذا الصراع على السلطة بين «العرش» و«الأمة» ثم بين «العرش» و«الشعب»، وكان محور هذا الصراع هو أسس الدستور والبرلمان، أما ملوك مصر الذين قبلوا التبعية للباب العالى (عباس الأول وتوفيق وعباس الثانى)

أقبلوا التبعية لانجلترا (السلطان حسين والملك فؤاد) فقد دخلوا فى صراع رهيب مع حركة الديمقراطية المصرية، وحلوا أزمة الاختيار بين السيد الأجنبى ورعاياهم المصريين بالتحالف مع السيد الأجنبى لتجميد إرادة الأمة المصرية.

فإسماعيل الذى كان يعد لإعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية فى ١٨٦٩ مع افتتاح السويس أنشأ تمهيدا لذلك «مجلس شورى النواب» منتخبا من أعيان المصريين ليواجه إرادة تركيا بإرادة مصر. وقد أكد هذا معنى خطيرا فى التاريخ المصرى وهو أن تاريخ الديمقراطية المصرية كان دائما الوجه الآخر من تاريخ القومية المصرية ومن دعوة «مصر للمصريين» فى جميع المجالات، ومن تاريخ الكفاح من أجل استقلال مصر. فخريطة مصر السياسية عبر قرنين من الزمان تسجل بصورة رتيبة أن كل عهد بطش بالديمقراطية المصرية كان يقترب دائما بمحاولة نفس القومية المصرية وتذويبها فى ولاءات وإطارات روحية أو ثقافية أو حضارية أشمل منها ولاسيطرة لمصر عليها تحت شعار وحدة العالم العثمانى أو وحدة العالم الإسلامى أو وحدة العالم العربى أو وحدة مصر والغرب أو الشرق.

الأزمة المالية

سواء ولدت الحياة النيابية المصرية فى شكل «منحة» من ولى النعم الخديو إسماعيل، أو جاءت استجابة للأفكار العصرية التى غرس بذرتها رفاعة رافع الطهطاوى فى عهد محمد على ونضجت ثمرتها فى عصر إسماعيل، فمما لا شك فيه أن سنة التطور التى هى أقوى من القوانين والإرادات الخاصة، فرضت على مجلس شورى النواب أن يمضى فى طريق النمو والارتقاء. وجاءت الأزمة المالية التى تفاقمت بسبب سفه الخديو لتعجل بلضج المجلس الوليد، وتضعه فى موضع المسئولية النيابية، حتى لو تم ذلك على غير رغبة الخديو وهواه، بل نقول أن هذه الأزمة التى استحكت حول رقبة إسماعيل، فرضت عليه أن يفرع إلى نواب الأمة، ويستنهض همته ليقفوا إلى جانبه فى مواجهة النفوذ الأجنبى الذى استفحل حتى أوشك أن يضع البلاد ومعها العرش على حافة الهاوية.

ومن هنا نتبين أن الأزمة المالية - وما يتصل بها من فرض الضرائب على الأهالى - كانت سببا من أسباب تطور الحياة النيابية فى

مصر، مثلما حدث في إنجلترا عندما اضطر الملك «جون» إلى التوقيع على وثيقة العهد الأعظم «الماجنا كارتا» في سنة ١٢١٥ ويلتزم بمقتضاها بعدم فرض ضرائب إلا بعد الرجوع إلى البرلمان. الأمر الذي أدى في النهاية إلى تطور النظام البرلماني في إنجلترا، وإعطاء مجلس العموم سلطات كانت حكرا على الملوك من قبل. وحدث في مصر في أواسط القرن التاسع عشر ما حدث في إنجلترا في القرن الثالث عشر.

سوف نرى في غضون هذا البحث كيف اضطر إسماعيل إلى الاستنجاد بمجلس شورى النواب ليسمحوا له بفرض ضرائب جديدة توفر له سيولة نقدية تخفف من القبضة الأوروبية الجديدة التي أخذت بخناقهم. وكان رجوع الخديو - سليل الأتوقراطية والحكم المطلق - كسبا دستوريا هاما، وتحولا خطيرا في مجرى العلاقات الأزلية بين الشعب المصري وحكامه، فلأول مرة يكتسب الشعب هذا الحق الذي افتقده منذ قرون سحيقة حيث كان الحكام والسلاطين والأباطرة ينفردون بفرض الضرائب على الشعب دون استئذان أو استشارة، ويستخدمون في جبايتها وسائل القمع والبطش والإرهاب (١١) .

● كيف انتقلت الأزمة المالية من الشرنقة الصماء في قصر إسماعيل إلى دهاليز مجلس شورى النواب؟ وكيف تسالت من أيدي دهاقنة المال والبنوك والسماسرة والمرابين إلى أيدي ممثلي الشعب، وقد كان محرما عليهم النظر في هذه الأمور السيادية التي اختص بها الخديو ويطانته؟

لقد مر دور الانعقاد الأول لهذا المجلس (من ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ إلى ٢٤ يناير ١٨٦٧) دون أن تسجل مضابط المجلس أية مناقشة حول

مسألة الديون أو الضرائب، ورأينا كيف انحصرت مداورات الأعضاء حول مسائل محلية بحتة مثل التعليم وردم البرك ونظام السخرة وإلغاء عقوبة الضرب على العمد وكان أقصى ما وصلت إليه المداورات حول مسألة الضرائب هو اقتراح من إبراهيم أفندى الشريعى (المنيا) بتقسيط الأموال الأميرية (الضرائب على الأقطان الزراعية) وتحديد مواعيد تقسيطها منعاً للفوضى وإرهاق المواطنين، ومع أن الاقتراح كان يتعلق فقط - بتنظيم عملية الدفع، وليس الحديث عن فداحة الضرائب - فإن الحكومة طلبت تأجيل النظر فى هذا الاقتراح إلى السنة التالية «نظراً لأن تعديل مواعيد الضرائب مرتبط بدفع الحكومة فوائد ديونها الأجنبية فى المواعيد المحددة لسداد الأموال الأميرية، مع وعد بأن يبحث المجلس مستقبلاً موضوع الديون وموضوع الضرائب وتقسيمها فى وقت واحد». فأقر المجلس وجهة نظر الحكومة.

مسألة عابرة:

كانت هذه هى الإشارة الوحيدة إلى موضوع «الضرائب والديون» التى وردت فى مساجلات دور الانعقاد الأول، وهى - وإن كانت قد جاءت عبر مسألة ثانوية هى تقسيط الأموال الأميرية - إلا أنها إشارة لها دلالة لايجوز أن تفوت على الباحث الذى يرصد التفاعلات التى كانت تجرى فى رحم الحياة السياسية المصرية، وتبشر بميلاد دور جديد للرأى العام المصرى، وأعنى به حق المشاركة فى مناقشة مسألة الضرائب والديون الأجنبية، وارتباط كل منهما بالآخر، وانعكاس كل

منهما على دافع الضرائب الذى أصبح من الآن فصاعداً مسئولاً عن تسديد الديون التى اقترضها إسماعيل.

فى يوم الإثنين ١٦ مارس ١٨٦٨ افتتح الخديو اجتماع المجلس فى مكانه المعتاد بالقلعة، وكان يصحبه كبار رجاله وعلى رأسهم شريف باشا رئيس مجلس الأحكام، وعبر الخديو عن أسفه للتأخير فى عقد المجلس عن مواعده بسبب وعكة صحية ألمت به وبعد اختيار عبدالله باشا عزت رئيساً للمجلس، قام خيرى باشا بإلقاء خطبة العرش. وهى خطبة طويلة أشار الخديو فيها إلى المسائل التى قررها المجلس فى دوره الأول، وما أنفذته الحكومة منها، وما لم تنفذه وبيان الأسباب، فذكر ما نفذ: إنشاء مدرستى بنها وأسيوط «والباقي تحت الإجراء، وفك العهد، وإضافة الأقطان الزائدة فى المساحة، وضم الأراضى القابلة للزراعة فى المساحة، وضم الأراضى القابلة للزراعة إلى من يرغبها من الأهلىين، وذكر أن ترتيب الأنفار للسخرة بالدور - طبقاً لقرار المجلس - متوقف على إتمام تعداد الأنفس، وأن مسألة سندات المعاملة موقوفة على إصدار قانون الرهون الذى كان موضع البحث.

أما عن مسألة تعديل أقساط الأموال الأميرية فقال عنها خطاب العرش: إن إجراء هذا التعديل لا يخلو من صعوبة «والحكومة لا تقصر عن إجراءاته حسب الإمكان، ووعد بإطلاع أعضاء المجلس على الأسباب التى أخرت تنفيذه، وطلب المذاكرة فى هذا الموضوع لتقريره على صورة مستحسنة، وأشار الخطاب إلى مشاريع الإصلاح التى تعتزم الحكومة إجرائها وعرضها على المجلس للمداولة فيها.

وختم الخطبة بقوله: «والواجب علينا الاجتهاد فى تدارك الأسباب الموصلة إلى عمارية الوطن، والله المرشد إلى أقوم طريق ومنه العناية والتوفيق».

وأعدت لجنة الرد على خطاب العرش جوابا مشتملا - فى رأى الرافعى - على العبارات المألوفة فى تقديم فروض التشكر للذات الخديوية، مع التنويه بمشاريع الإصلاح التى جاءت فى خطبة العرش، وأعرب المجلس عن ابتهاجه لما أذن به الخديو من إطلاع الأعضاء على الأحوال المالية للوقوف على الأسباب التى أخرت أقساط الأموال الأميرية.

وبالفعل، تشكلت لجنة من ثلاثة أعضاء انتقلت إلى ديوان وزارة المالية والتقت بوزيرها الجديد: إسماعيل باشا صديق المفتش الذى عين فى هذا المنصب مع الاحتفاظ بمنصبه الأسمى مفتشا لعموم الأقاليم، وبهذا القرار الخطير ارتفعت مكانة هذا الرجل الخطير، وتجمعت فى يده خيوط الأمور المالية كلها، وتهيأت له الفرصة كى يلعب الدور الأكبر فى إفساد الحياة السياسية بفضل قدراته الفائقة على النصب والاحتيال والكذب والتضليل. وقد وضحت هذه الخصال الذميمة فى أول لقاء له مع لجنة مجلس شورى النواب التى كلفت ببحث مسألة الديون بناء على إشارة من الخديو.

ماذا فعل هذا الأفاق مع اللجنة الثلاثية ؟

لقد أطلعهم على دفاتر مزيفة تحتوى على أرقام وبيانات مضللة، قلبت الوضع المالى من حالة السوء والتدهور، إلى حالة من الانتعاش

والرخاء.. وزعم لهم أن الميزانية تحتوى على فائض فى الإيرادات يبلغ مليونين و٥٨٤ ألف جنيه (!!) فى الوقت الذى كانت فيه الميزانية تئن من فداحة الدين (!!) ويصف الرافعى هذه الأرقام بأنها مبنية على الكذب والتضليل، وتخالف الواقع من كل الوجوه، فإن مصروفات تلك السنة (٨٦ - ١٨٦٩) زادت على إيراداتها بنحو عشرة ملايين جنيه، استدانتها الحكومة بقروضها المتلاحقة وديونها السائرة (!!) ولم يقم فى المجلس أحد يناقش الحكومة ويسألها عن سبب الضيق المالى الذى تشعر به ويستدعى عقد سلفه جديدة، إذا كانت الإيرادات تزيد على المصروفات بالمقدار الذى ظهر فى الميزانية (!!) وألف المجلس لجنة أخرى من خمسة أعضاء منهم أعضاء اللجنة الأولى للبحث عن الوسائل الأولى للبحث عن الوسائل الكفيلة بمعالجة الحالة المالية، فقدمت اللجنة تقريراً تدل القرائن والملاحظات على أنه موعز به من الحكومة، واقتربت زيادة الضرائب على الأتيطان بمقدار السدس وعقد قرض داخلى. رمزى زكى بطرس

وألقى إسماعيل صديق (المفتش) بيانا أمام المجلس خلاصته أنه، مع مايزعمه من زيادة الإيرادات على المصروفات، فإن الحاجة تدعو إلى زيادة الضرائب وعقد قرض داخلى بخمسة ملايين من الجنيهات، لأداء الباقي من ديون الحكومة، فوافق المجلس على وجهة نظره، وانتهت المناقشة فى المسألة المالية بنتيجتين سيئتين:

● الأولى: زيادة الضرائب على الأتيطان بمقدار سدس المربوط من الأموال لمدة أربع سنوات (وبعد انتهائها تقررت بصفة دائمة).

● الثانية: عقد قرض جديد زاد من عبء القروض، ولم يخصص شيء منه لسداد الديون السابقة، بل ابتلعه سياسة الإسراف التي كان يتبعها الخديو، وينفذها إسماعيل صديق. ولم يعقد القرض الجديد داخل البلاد، بل اقترضته الحكومة في الخارج من بيت (اوينهايم) المالي، ولعلها أرادت بذلك أن تكتم حقيقته وشروطه عن الأنظار، ولم يكن مقداره خمسة ملايين جنيه، كما وعد إسماعيل صديق باشا، بل كان مبلغا ضخما بلغ حوالى ١٢ مليوناً من الجنيهات. ويصف الراقى هذا التصرف بأنه دليل على مبلغ استهانة الحكومة بقرارات مجلس شورى النواب، وانفرادها بالتصرف فى المسائل المالية التى تعتبر الرقابة عليها من أخص حقوق الهيئات النيابية.

على كف عفريت:

لقد أخذت الغيوم تتجمع فى سماء مصر بسبب استفحال الديون التى اقترضها الخديو من بيوت المال اليهودية فى فرنسا وانجلترا، وبات مستقبل الديار المصرية وكأنه على كف عفريت بعد أن تكالب المرابون والسماسرة على أرض الكنانة، وكلهم يسعى إلى تلبية ظمأ الخديو إلى المال، وكان العقل المدبر لهذه الصفقات الخسيسة هو إسماعيل صديق (المفتش) الذى كان يعرف شبق سيده ومولاه إلى المال. فسخر عبقريته الفذة فى النصب والتحايل للحصول على القروض من أى سبيل.

● فمن يكون هذا الوزير الذى كانت حياته وصمة عار فى تاريخ مصر الحديث؟ والذى كان يوصف بأنه «الخديو الصغير» والصدر

الأعظم المصري،، رغم أنه خرج من قاع المجتمع، فهو ابن فلاح وصعلوك الأصل، طالما مد أجداده، بل أبوه ذاته، تحت الكرياج، وازرقت أرجلهم، ودفقت دما من تعاقب السياط عليها.. ولكن تصارييف القدر دفعت بأمه إلى قصر الأميرة «خوشيار» لتعمل مرضعة لابنها إسماعيل. وبذلك انفتحت أبواب العز أمام إسماعيل صديق ليصير أخا في الرضاعة للخديو إسماعيل، ورفيقا له في مراتع الصبا والشباب.. وظل يرافق الخديو وهو يصعد أريكة الحكم فحظى بالمناصب العالية ومنها وظيفة «المفتش» على أعمال دائرة الخديو أولا، ثم مفتشا على أعمال الحكومة المصرية ثانيا. فلما أطاح الخديو بوزير ماليته إسماعيل باشا راغب، وقع اختياره على إسماعيل المفتش ليتقلد هذا المنصب الخطير في وقت كانت فيه مالية البلاد تترنح تحت ضربات أصحاب الديون. ومن المؤكد أن هذا الاختيار لم يكن خالصا لوجه الله والوطن، وإنما لرغبة الخديو في اختيار رجلى يلبي كل نزواته. وإليك صورة وصفية لهذا الرجل الفذ كما رسمها إلياس الأيوبي مؤرخ عصر إسماعيل:

كان إسماعيل صديق هذا رجلا ماهرا في الواقع، ثاقب الرأي، متفقق الذهن، يدرى، كما لا يدرى غيره، كيف تستخرج اللقود من مدافنها، وكيف يتوصل إلى تحقيق الرغائب ونيل الأغراض، لا يوقفه في سبيل إحراز رضا مولاه هاجس، ولا يهمله أن يرتكب دنية، ولا إثما، إذا كانت تلك الدنية وذلك الإثم يعززان مركزه، ويظهرانه في مظهر الرجل المخلص، وكان علاوة على ذلك، هماما نشيطا، يحب الشغل، ويلج أبوابه برغبة أكيدة.

كما أنه كان كبير المطامع، شبقاً نساء وأموالا ولذائذ، فما استلم وزارة المالية، إلا وظهر الفرق حالا بينه وبين سلفه، وحل تشهيل الأعمال محل المطل فيها، والبت بسرعة في الأمور محل التخييط والتردد، ودفعت الأذونات المالية في أوقات استحقاقها، بدون إبطاء، لإدراك الوزير الجديد ما في عمل ذلك من المصلحة لمركز الحكومة، ولما كان اسماعيل صديق يفتقر إلى الخبرة في الأمور المالية - وإن صحت تسميته ماليا ولادة - فإنه اتخذ أخصاء من ذوى الدراية فيها، وتلقى عليهم دروسا عملية جعلته في مدة يسيرة كفلا لمقاومة أحذق عمليات السلفيات والاقتراض، ولم يعد يوقفه وسواس، مهما كان نوعه عن السوق مباشرة إلى ما يقصد من الأغراض، وبرع في ضروب المخاتلة براعة حملت البعض على إلباسه بحق قول القائل: إنما أعطيت الكلمة للإنسان لكي يخفى فكره، . وظهر ذلك جليا للماليين الغربيين الذين استمرأوا حلاوة التوسط بين الخديو والأسواق المالية للأوروبيين.

وسوف نرى صدق هذا الرصف في مسالك المفتش، وبراعته في الغش والتضليل والخداع.

قصة الديون:

لقد ظهر اسماعيل صديق في وقت مناسب تماما لأطماعه وجشعه وقدرته على جلب الأموال، وهو نفس الوقت الذى اضطربت فيه مالية البلاد بسبب ديون الخديو. وقصة الديون يجب أن تدرس من بدايتها لما لها من آثار جسيمة على استقلال مصر ووقوعها فريسة للاحتلال البريطاني لفترة تزيد على سبعين عاما.

لم تمد حكومة مصر يدها إلى القروض الأجنبية طوال عهد محمد على وحفيده عباس الأول، وكان سعيد باشا هو أول حكام الأسرة العلوية الذى اقترض من الخارج، ومضى إلى حتفه تاركاً لخلفه إسماعيل ديناً قدره أحد عشر مليوناً من الجنيهات، وبدلاً من أن يقوم إسماعيل بتسديد هذا القرض ويجفف ميزانية البلاد من أية أعباء خارجية، اكتفى بتسديد الفوائد المقررة على القرض الذى ظل ثابتاً، ولم يمض العام الأول من حكمه حتى بدأ ينتهج سياسة الاقتراض من البنوك الأجنبية. وفى خلال الأعوام الأربعة التالية كانت ديونه قد بلغت أربعة عشر مليون جنيه، بخلاف عشرة ملايين جنيه قيمة الديون السائرة المحلية، وبذلك بلغ مجموع الديون غداة نشأة مجلس شورى النواب: حوالى خمسة وثلاثين مليون جنيه، ورغم أن هذه السياسة الخرقاء كانت موضع استهجان المؤرخين، إلا أن إسماعيل لم يعدم محامياً قديراً يدافع عنه ويبرر لجوءه إلى الاقتراض. أما هذا المحامى فهو الدكتور لويس عوض. فهو يبرر لإسماعيل الاستدانة من الخارج لأن مشروعاته العمرانية والحضارية، ومشروعاته العسكرية ومشروعاته الاستقلالية تجاوزت حصيلة إيرادات الدولة التى قدرت فى الميزانيات «المربية» التى أعدها إسماعيل باشا المفتش بمبلغ سبعة ملايين و٢٩٠ ألف جنيه ورغم أن لويس عوض يعترف بأن هذه الميزانيات «مربية»، إلا أنه يعتمد عليها ويوافق عليها لأنها كانت تستخدم فى مشروعات حضارية، ومعنى ذلك أنه لا مانع من إرهاق ميزانية البلاد وتهديد استقلالها طالما أنها تستخدم فى أغراض حضارية، بل يمضى لويس عوض إلى ما هو أبعد لتبرير مسلك إسماعيل والرد على منقديه فى صيغة أدبية

عاطفية فيقول: وكانت أكثر مشروعات إسماعيل التي كان ينفذها بسرعة محمومة لاهثة، وكأنه يسابق الموت أو يريد أن يسطع مجده في السماكين بأسرع مما سطع مجد محمد علي: مشروعات استثمارية طويلة المدى لاتدر عائداً فورياً، ولذا انتفع بها من جاء بعده، ولم يصب هو منها إلا الارتباك المالي، ومثلها: حفر الترعة الاسماعيلية وحفر الترعة الإبراهيمية ومد السكك الحديدية وخطوط التلغراف وتوسيع الموانئ.. الخ. أو مشروعات خدمات مدنية وحضارية بلا عائد مادي مباشر مثل: نشر التعليم وإنشاء الكبارى وبناء الأوبرا والعناية بالصحة العامة، ورصف الطرق وتجميلها، أو مشروعات وطنية تحسب بحساب المجازفة: كبناء قوة مصر العسكرية والتغلغل في إفريقيا، ومشروعات لشراء سيادة مصر بالمال، وهذه يصعب تقييمها

هذه وجهة نظر مفكر ينظر إلى ديون إسماعيل نظرة مستقبيلية تقدمية، تتجاوز الواقع المرير الذي عانتها مصر وشعبها، ويتجاهل المصير الذي انتهى باحتلال مصر، ويستشرف خيوط النور التي انبثقت من وراء ليل طويل كالحلح السواد.

مجلس الأعيان

فى يقين بعض الباحثين فى تاريخ الخديو إسماعيل، أنه لم يشرع فى إقامة حياة شبه نيابة، إلا بعد أن ظهرت بوادر الأزمة المالية التى نجمت عن سياسة الاقتراض الويلة، وما جلبته على ميزانية البلاد من خراب، فتفتق ذهن إسماعيل عن فكرة قيام مجلس شورى النواب ليكون مجمعا لأعيان البلاد وكبار ملاك الأتبان، وهم الذين يتحملون العبء الأكبر فى ضريبة الأرض.. التى هى الشريان التاجى الذى يضخ المال الميرى فى خزينة البلاد، وهم أيضا أصحاب النفوذ والثراء فى الريف، وإليهم المرجعية فى حركة الفلاحين، ويدهم مقاليد الأمور فى مجتمع تحتم تقاليده بأن يحترموا كبيرهم، ويستمعوا له ويطيعوا، وقد صنع إسماعيل بيده هذا الكبير، عندما وضع نظام العمدة، فصار لكل قرية عمدة - وهى وصف مشتق من العميد أو العمود - يجرى انتخابه من كل أهل القرية انتخابا حرا مباشرا وعلينا، وفى يوم الانتخاب يجتمع الأهالى فى جرن القرية، مثلما كان يحدث فى مدن اليونان القديمة، وتعلن الحكومة عليهم أسماء المرشحين، فيتقدم الفلاح إلى الصندوق

تحت إشراف المأمور، ويعلن على الملأ اسم المرشح الذى يختاره، فيصبح صاحب الأغلبية (عمدة)، يعاونه مشايخ القرية الذى كانوا - قبل نظام العمدة - يهيمنون على شئون القرية، ويمثلون حلقة الوصل بين جهاز الدولة فى عليائه، وجموع الشعب فى الریف.

من هذا اليوم من عام ١٨٦٤ نشأت حلقة وسيطة فى سلسلة الجهاز الإدارى بين القمة والقاعدة، القمة التى تحكم البلاد حكما مطلقا، والقاعدة التى لا ترى من وجوه السلطة، على مدار العام، سوى وجه جابى الضرائب الذى ينقض عليهم كالوحش الكاسر، إذا حدث قصور أو تلاعب أو عبث فى جمع الضرائب، وحوله شر ذمة من القواصين فى أيديهم كرابيج لاسعة، وفى قلوبهم قسوة بالغة، وفى نفوسهم رغبة دفينّة فى الشر والإيذاء والتنكيل.

هكذا كان الحال فى عهد محمد على وولده إبراهيم وحفيده عباس الأول، فلما جاء سعيد - وكان ميالا بعواطفه نحو المصريين - منحهم حق تملك الأرض الزراعية بمقتضى اللائحة السعيدية الصادرة فى ١٥ أغسطس ١٨٥٨، فأحدثت طفرة هائلة فى الكيان الاجتماعى المصرى، كان لابد أن تعقبها طفرة سياسية آتت أكلها فى عصر إسماعيل، فقد ظهرت على قمة الهرم الاجتماعى طبقة كبار ملاك الأراضى - بعد أن كانت حكراً على الذوات الترك والشركس - وأصبح من حقها ومن واجبها أن تشارك فى صياغة الحياة السياسية المصرية بمقتضى ملكيتها لمصدر الثروة الأساسى - الأرض - وبمقتضى ارتباطها بالسواد الأعظم

من الشعب، فمن هؤلاء الأعيان كان العمدة، ومن العمدة كان الناخبون الذين اختاروا أعضاء مجلس شورى النواب.

أراد إسماعيل أن يمد يده إلى أعيان البلاد، ويتقرب إليهم لعله يسد الفجوة الموروثة بين حكام مصر وشعبها، وهي فجوة قديمة جعلت المصريين يتهيبون حكامهم، وينظرون إليهم نظرة الشك والكراهية، وبدأ إسماعيل أولى محاولات التقريب سنة ١٨٦٤ بأن دعا لفيفا من عمدة كل إقليم للاجتماع مع مدير الإقليم لدراسة الشئون والمشاكل المحلية، ثم ذهب إلى طنطا بدعوة من أعيان الغربية للاجتماع بهم، وهو في كل هذا يسعى إلى اجتذاب طبقة كبار الملاك لتقف إلى جانبه في محنة الديون، وإلى هذه الطبقة المصرية الأصيلة اتجهت أبصار إسماعيل الذكي لكي تشاركه هموم الديون وتبعاتها، ومن هذه المصلحة المشتركة أشرقت طلائع فجر الجديد للحياة النيابية، التي ما لبثت أن تطورت مع تفاقم الأمة وبعد أن كان المجلس الوليد ظللاً باهتاً للخديوية المطلقة، تشكلت ملامحه البارزة وصار له أنياب تقاوم النفوذ الأجنبي وتتصدى له، وتحبط محاولاته لإعلان إفلاس مصر.

أزمة ثقة:

كان إسماعيل يعرف في قرارة نفسه أن هناك أزمة ثقة بينه وبين المصريين واعترف هو نفسه بأنهم «محكومون بالضغط»، فأراد أن يكسب ثقتهم لتحقيق مشروعه الحضاري الكبير، وإقامة نظامه الجديد على زعامة الريف والأعيان، ليستطيع بهم، وبفضل نفوذهم ومكانتهم التغلغل في صميم الخلايا الريفية، وإرشاد الحكومة إلى خير السبل

لتحسين الإدارة وتدبير المال، وقد كانوا جديرين بذلك لمكانتهم بين الناس، ولما كان هؤلاء الأعيان يمثلون في ذاتهم الإرادة الحية للجماعة الريفية التي تهيمن على جوانب الريف، فقد رأى الخديو دعماً لجهازه الإداري وتقويته، تطعيمه بنخبة قوية من هذه العناصر، ليتمكن بهم من حمل رغباته إلى سائر أفراد الشعب، والاتصال بهم اتصالاً مباشراً، ولذلك تعمد إسماعيل أن يأتي تشكيل مجلس شورى النواب معبراً تعبيراً عملياً عن الحقيقة التي تقول إن السواد الأعظم من شعب مصر من الفلاحين، ولكي يستطيع الخديو أن يتصل اتصالاً مباشراً بشئون الملكية الزراعية وصميم الريف، كان لابد أن يكون ذلك عن طريق هيئة منتخبة من الملاك، وكان في استطاعة الخديو ألا يراعى هذا الشكل النيابي القائم على الانتخاب، فينص على تشكيل المجلس بالتعيين، فلماذا لجأ إسماعيل إلى الانتخاب عن طريق العمدة، ولم يلجأ إلى التعيين؟

يبرز الدكتور عبدالعزيز رفاعي في كتابه «فجر الحياة النيابية» لجوء إسماعيل إلى الانتخاب، وليس التعيين، رغبة منه في كسب طبقة كبار الملاك إلى جانبه لضمان معنى التعاون، وعلاج أزمة الثقة بينه وبين الفلاحين التي سار عليها أسلافه منذ محمد علي، ولذلك قصرت اللائحة الأساسية حق الانتخاب على طبقة أصحاب الأراضى من العمدة الأثرياء، ومن العناصر القوية الخبرة بشئون الزراعة والريف، ونظراً لعدم وجود هذه الطبقة في عواصم الحضر مثل القاهرة والاسكندرية ودمياط، فقد نصت اللائحة على تمثيل نظراء هؤلاء من تجار هذه المدن وأعيانها، وبذلك كان الانتخاب مقصوراً على طبقة كبار الملاك

ليتمشى ذلك وأهداف المجلس، إذ لم يكن الخديو بحاجة إلى تمثيل المتعلمين أو التجار، لأنه لم يكن يسعى لتحقيق أهداف «أمة».. بل يسعى إلى أهدافه على حساب الملكية الزراعية.

نظامنامه :

لقد وضع رسماعيل لمجلس شورى النواب لائحة تنظيمية «نظامنامه» تحدد طريقة الانتخاب وأسلوب المناقشة والحصانة.. إلخ أهم أركانها:

● يتألف المجلس من ٧٥ عضواً ينتخبون لمدة ثلاث سنوات، ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها في المديریات (المحافظات)، وأعيان القاهرة وينتخبون ٣ نواب، والاسكندرية ولهم نائبان، ودمياط ويمثلها واحد، على أن يكون التمثيل بحسب تعداد كل منطقة.

● يشترط فيمن ينتخب عضواً أن يكون مصرياً، ولا يقل سنة عن ٢٥ سنة، وأن لا يكون قد صدر ضده حكم في جنائية، أو حكم بالافلاس، أو حكم بالفصل من الحكومة من هيئة تأديبية، وأن يكون ملماً بالقراءة والكتابة في الانتخاب السابع (أى بعد ١٨ سنة) أما الناخبون فقد أشترط فيهم الإلمام بالقراءة والكتابة في الانتخاب الحادى عشر أى بعد ٣٠ سنة من تأسيس النظام الديبى (ومعنى ذلك أن الخديو كان يخطط لمحور الأمية خلال ٣٠ سنة).

● يعين الخديو رئيس المجلس ووكيله دون ترشيح من المجلس.

يفتتح الخديو المجلس بمقال الافتتاح (خطبة العرش) ويرد عليها

المجلس دون إبداء رأى قاطع فيما ورد فيها .

● يتمتع أعضاء المجلس بالحصانة البرلمانية أثناء انعقاده - فقط - إلا في جرائم القتل .

● لا يجوز لعضو أن يتكلم إلا بإذن من رئيس المجلس، وعلى المجلس احترام رأى الأقلية، والاصغاء لأقوالها وملاحظاتها، ويكون التصويب علنيا، والقرارات تتخذ بالأغلبية، ولا يجوز لعضو طبع أو نشر مناقشات المجلس إلا بإذن من رئيس المجلس .

● جميع قرارات المجلس استشارية، فهي بمثابة توصيات للخديو يفعل بها ما يشاء .

للخديو الحق فى دعوة المجلس للانعقاد، وفى مد دورته، أو تأجيلها وفى حل المجلس وتبديل أعضائه بإجراء انتخابات جديدة .

ينعقد المجلس شهرين كل سنة من ١٥ كيهك إلى ١٥ أمشير (منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير) ويكون اجتماعه فى القاهرة ، وجلساته سرية .

أسلافنا :

أسفرت أول انتخابات عن فوز ٧٥ عضوا نشر الرافعى أسماءهم حسب محافظاتهم فى الجزء الثانى من كتابه (عصر إسماعيل) حتى نتعرف على أسلافنا فى الحياة النيابية ونتبين مبلغ ما أدوا من واجبات النيابة وتكاليفها . وهم :

القاهرة : موسى بك العقاد، الحاج يوسف عبدالفتاح، السيد محمود العطار.

الاسكندرية: الشيخ مصطفى جميعى، السيد عبدالرازق الشورىجى.
دمياط : على بك خفاجى.

الغربية : أتربى بك أبوالعز، على كامل عمدة القصيرية، الحاج شتا يوسف عمدة أبو مندور، محمد حمودة عمدة برما، سيد أحمد رمضان عمدة قسطا، عبدالحميد زهرة عمدة حانوت، على أبو سالم دنيا عمدة مسهلة، سليمان الملوانى عمدة ميت حبيش القبيلية، أحمد الشريف عمدة ابيار.

المنوفية : الحاج على الجزار عمدة شبين الكوم، محمد أفندى شعير عمدة كفر عشنا، موسى أفندى الجندى عمدة منوف، أحمد أبو حسين عمدة كفر ربيع، حماد أبو عامر عمدة جنزور، على أبو عمار عمدة مليج، محمد الانبأبى عمدة جزى.

البحيرة: الشيخ محمد الصيرفى عمدة قليشان، حسنين حمزة عمدة البريجات، أحمد موسى عمدة نكلة العنب، الحاج على عمار عمدة ببيان، الشيخ محمد الوكيل عمدة سمخراط.

الشرقية والقليوبية: الحاج نصر الشواربى من قليوب، محمد الشواربى من قليوب، أحمد افندى أباطة من منيا القمح، الإمام الشافعى أبوشنب عمدة الخانكة، على حسن حجاج عمدة الرملة، الشيخ محمد جمال الدين عمدة الجديدة، محمد عبدالله عمدة الصنافين، المعلم

سليمان سيدهم عمدة بندق، بركات الديب عمدة القرين، محمد أفندى عفيفى عمدة الزوامل، عبدالله عياد عمدة كفر عياد.

الدقهلية: هلال بك، سيد أحمد أفندى نافع عمدة دنديط، محمد بك سعيد من نوسا البحر، إسماعيل أفندى حسن عمدة تمي الامديد، الشيخ محرم على عمدة السنبلالوين، الشيخ العدل أحمد عمدة جزيرة القباب.

الجزيرة: عامر أفندى الزمر عمدة ناهية، إبراهيم أحمد المنشاوى عمدة زاوية دهشور، عبدالباقي عزوز عمدة الرقق (الرقّة).

الفيوم وبنى سويف: حزين الجاحد عمدة العجميين، على سيد أحمد عمدة الزربى، زايد هندى عمدة جزيرة ببا، محمد حسن كساب عمدة الدويرة، جرجس برسوم عمدة بنى سلامة.

المنيا وبنى مزار: إبراهيم أفندى الشريعى عمدة سمالوط، حسن أفندى شعراوى عمدة المطاهرة، إسماعيل أحمد عمدة بنى أحمد، أحمد على عمدة الزاوية، أحمد حبيب عمدة القنت، ميخا ذيل اثناسيوس عمدة أشروبة.

أسيوط: سليمان أفندى عبدالعال من ساحل سليم (أبو محمود سليمان باشا وجد محمد محمود باشا)، عثمان محمود غزالى عمدة بنى رزاح، يوسف محمد عمر عمدة الشيخ تمي، رميح شحاته عمدة القوصية، عمر حمد عمدة الشغبة، عبدالعال موسى عمدة دروة.

جرجا: محمد حمادى عمدة بلصفورة، حميد أبوستيت من أولاد عليوة، عبدالرحمن حمد الله عمدة الجبيرات، عثمان أبو ليلة من الكتكاتة، عطية مهران من ناحية نزه، أحمد سلطان عمدة بNDAR.

قنا وأسوان: عمر أفندى أبو يحيى عمدة أبو مناع، محمد سحلى
عمدة فرشوط، على إبراهيم عمدة حجازة، أحمد أفندى عبدالصديق
من أسوان، أحمد على إسماعيل عمدة السليمية.

قوة حقيقية :

وفى قراءة نقدية لأسماء هؤلاء الأعضاء لاحظ الدكتور لويس
عوض أن هذه العائلات ظلت تشترك فى الحياة العامة وفى حكم البلاد
خلال الثورة العربية، وحركة الحزب الوطنى الخديوى، وثورة ١٩١٩
حتى ثورة ١٩٥٢ وهى عائلات: العقاد والعتار من القاهرة (ليس
بالضرورة أصلاً أو ملاكاً) وجميعى والشورى من الاسكندرية،
والشواربى من القليوبية، وأباطة من الشرقية، وأبو العز والشريف من
الغربية، والجزار وشعير والجندى وأبو حسين من المنوفية، والوكيل من
البحيرة، والزممر من الجيزة، والشريعى وشعراوى من المنيا، وسليمان
من أسيوط، وأبوستيت من جرجا، وأبو سحلى من قنا، وليس معنى ذلك
أن كل الباقين لم يكن لهم أو لسلهم دور فى الحياة العامة أو أنهم
انقرضوا كعائلات، فمنهم من كانت لهم سطوة الملكية الزراعية دون أن
يشتغلوا مباشرة بالسياسة، ومنهم من لا تزال أسماء عائلاتهم دارجة
حتى اليوم دون أن يكون لهم دور بارز فى الحياة العامة مثل عائلات
الصير فى أبوشنب وعياد ودنيا وكساب ودوس وهلال .. الخ. ولكن
المهم - فى رأى لويس عوض - أن أعضاء مجلس شورى النواب فى
عهد إسماعيل - حتى من انقرضت أسماؤهم - كانوا فى عصرهم قوة

حقيقية فى البلاد لأنهم كانوا يمثلون طبقة عريضة من العمى والمشايخ فى البلاد تبلغ الآلاف عىءاء، وبذلك يمثلون أصحاب المصالح الحقيقية فى الريف المصرى .

أوروبا تتساءل :

ولقد أءء مىلاء أول مجلس نيابى مصرى، ءوباً كبيراً بين الرأى العام الأوروبى حتى أن صحافة انجلترا وفرنسا وبلجيكا خلعت عليه معاييرها الدستورية أوصافاً كثيرة أبءءته عن حقيقة ومرماء، وقد رصد الدكتور عبدالعزىز رفاعى بعض تعليقات الصحف الأوروبية، وكيف أن مصر على أبواب التءول إلى ملكية دستورية برلمانية، وذهب بعضها إلى ءء المقارنة بين المجلس المصرى الولىء ومجلس الشيوخ الفرنسى، ومجلس ءولة بها، وكان لتمثيل العناصر المسيحية فى المجلس أطيب الأءر فى ءءاية لإسماعىل والتءليل على سماءة عصره، وقد رءب أءرار فرنسا بأنباء نشأة المجلس كعمل فرىء فى الشرق، ألا أن وقعه كان مقلقاً لءكومة فرنسا خشية أن يكون محاولة لسلخ مصر عن تركيا (صءيقة فرنسا وقتئء) وإقامة ءكم وطنى نيابى فيها، واستفسرت الءكومة الفرنسية من نوبار باشا الذى كان متواجءا فى بارىس عن صحة هذا الاحتمال، فقال لهم إن المجلس النيابى لىس أكثر من ءءوىء لمسعى الخءىو لتقوية جهازه الإءارى واستكماله على أساس العرف المتبع فى انتخاب رؤساء القرى والإعلاء من شأنهم بءافع الرغبة فى تنمية الثروة المصرية، ووضع بءلك ءءا للشائعات ءول النظام الجءىء .

أما رد الفعل فى تركيا فكان سيئاً، وقالت صحفها أن إسماعيل وضع
لمصر دستورا ومجلسا نيابيا، وكان من شأن هذه التعليقات أن تسيء
إلى علاقة الخديو بتركيا، ولم ترحب الحكومتان الانجليزية والفرنسية
لهذا التطور لأن الدولتين كانتا تعملان على الإبقاء على حالة
مصر السياسية فى حدود التبعية لتركيا. ولذا كانت نشأة المجلس مثيرة
لفضولهما، فلما أوجس إسماعيل خيفة من الآثار العكسية أو عز إلى
نوبار أن يؤكد للدولتين بأن القصد من المجلس إرساء قاعدة للتعاون
بينه وبين شعبه.

نكبة القروض

سارت الحياة شبه النيابية التي أقامها الخديو اسماعيل، في خط متواز مع الأزمة المالية التي صنعها اسماعيل بيديه، وتسبب فيها باسرافه وتبذيره وعدم تبصره بعواقب الافتراض من البنوك الأجنبية، فكلما اشتدت وطأة الأزمة المالية، شعر أعضاء مجلس شورى النواب بثقل المسؤولية، فالبلد بلدهم، والأرض أرضهم، وعليهم يقع عبء تسديد الديون الباهظة التي اقترضها الخديو، وإذا كانت الحكومة - ممثلة في وزير المالية الكذوب إسماعيل باشا صديق - تقدم لهم بيانات مضللة حول انتعاش الحالة الاقتصادية وزيادة الإيرادات على المصروفات، فإن هذه الأكاذيب لم تفلح في تزييف الحقائق المرة التي كان يشعر بها النواب في قرارة أنفسهم، ولا يستطيعون الإفصاح عما يخالج شعورهم من قلق وتذمر، فهم أصحاب المصالح الحقيقية، وملاك الأطيان التي تتزايد عليها الأموال الأميرية بطريقة تفضح حالة الانتعاش الكاذب الذي تروج له الحكومة حتى تخدع الناس، وتستنزف ما في جيوبهم من نقود.

وفي ١٦ مارس ١٨٦٨ افتتح الخديو دور الانعقاد الثاني للمجلس بالقلعة، وألقيت خطبة العرش فحفلت مثل سابقتها، بذكر مناقب ولي النعم، والانجازات العظيمة التي تحققت على يديه دون أى اشارة إلى القروض التي عقدها مع المرابين اليهود، ولم يتطرق إلى المشاكل المالية الداخلية، باستثناء الرد على مطلب سابق بتعديل مواعيد سداد أقساط الأموال الأميرية. وتهرب الخديو من تنفيذ الاقتراح بحجة أنه لا يخلو من صعوبة، وقال أن الحكومة لا تقصر عن إجراءاته حسب الامكان. ووعد بإطلاع أعطاء المجلس على الأسباب التي تؤخر تنفيذه.

لقد انعقدت هذه الدورة في وقت استحكمت فيه الأزمة المالية، وصارت الخزينة خاوية حتى أن الحكومة عجزت عن دفع مرتبات الموظفين، وتعرضت البلاد إلى حالة من العسر الاقتصادي بسبب هبوط أسعار القطن، بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، واستغناء المصانع الأوروبية عن استيراد الأقطان المصرية، فعادت الأسعار إلى مستواها القديم، وتعرض الفلاحون إلى أزمة رهينة قصمت ظهورهم، لأنهم اعتادوا - أثناء ارتفاع الأسعار - الاستدانة من المرابين بفوائد فاحشة وصلت إلى ٤٨ ٪ في السنة (١١) وبلغ مجموع الديون المتراكمة على الفلاحين حوالي مليون و٤٠٠ ألف جنيه، أضف إلى هذا ما أصيبت به البلاد من قحط في الحبوب بسبب هبوط فيضان النيل. وإصابة الثروة الحيوانية بالطاعون.

موارد جديدة:

وبدأت الحكومة تفكر في البحث عن موارد مالية جديدة سواء من المصادر المحلية أو الخارجية. وبالنسبة للداخل هداها تفكيرها إلى

مشروع بإعفاء المواطنين من الخدمة العسكرية مقابل دفع بدل نقدي (ثمانين جنيهاً) وعرضت الحكومة المشروع على مجلس شورى النواب تمشياً مع سياستها في إشراك النواب في الأمور المالية، فكان أمراً طبيعياً أن يستحسنه العمدة وكبار الملاك لينفسح المجال أمام كل منهم لافتداء أتباعه من الجندية بدفع البديل النقدي، فلم تكن الجندية وقتئذ تشجع على الانخراط في سلكها، وذكرىات حروب محمد علي لاتزال ماثلة في النفوس، كما كانت أساليب الجندية بطبيعتها تدفع للنفور منها، لذلك ما كادت الحكومة تعرض المشروع على المجلس حتى وافق على دفع البديل العسكري نقداً، ومن ثم استطاعت الحكومة أن تفتح لماليتها مصدراً كبيراً للتنمية إيراداتها على حساب هذه الفئات، بل وعلى حساب الطبقات الفقيرة ذاتها أيضاً، فقد كان ذلك القانون مشجعاً لهم - برغم فقرهم - على إرهاق أنفسهم من أجل التخلص من الخدمة العسكرية، ليضمنوا لأبنائهم العافية بدل المعاناة من سيئاتها.

ومن المسائل التي لها علاقة مباشرة بالقضية المالية، مسألة الأراضي البور التي أرادت الحكومة أن تجعل منها مورداً مالياً، فعرضت على أعضاء مجلس الشورى مشروعاً لضمها إلى الملاك في حدود نظم مالية معينة، وقبول المشروع بالموافقة والرضا من جانب النواب لأنه يضيف إلى ممتلكاتهم الزراعية مساحات جديدة، وفي نفس الوقت يحقق للحكومة مصدراً مالياً خاصة إذا عرفنا أن مساحة هذه الأراضي بلغت مليوناً ونصف مليون فدان، ولا تحتاج إلا إلى الماء لتصبح أرضاً زراعية ترفع من حجم الضرائب التي تجب عليها الحكومة، وانسياقاً وراء عمليات زيادة الموارد المالية للدولة. وافقت الحكومة على اقتراح بعض أعضاء المجلس بتسجيل الأراضي الزراعية، وترغيب

الأهالى بتحريـر حجـج أملاكهم بالمحاكم ، والتـصريح لكل مالك باثبات ملكيته أمام القضاء ، مقابل رسوم تدخل خـزينة الدولة . وهكذا قام مجلس شورى النواب بإسـعاف الحكومة بالموارد المالية التى تنقذ خـزينةـها الخاوية عن طريق بيع أراضى الفيضان (طرح النهر) وأراضى الجزائر وضم الأراضى البور للملاك نظير اجراءات مالية ، ثم فرض ضرائب جديدة على الأراضى البور والمالحة والبرارى وتوسيع الرقعة الزراعية بالتشجيع على اصلاحها وزيادة امكانياتها على تقبل ضرائب أخرى ، وجاءت هذه القرارات بدعم هدف الحكومة من خلال تكليف كبار الملاك بالتزامات جديدة ، وعندما أثار بعض النواب مسألة امتلاك الأراضى الواقعة على جانبى الاسماعيلية ، رحبت الحكومة بالاقترح اذ وجدت فيه وسيلة لزيادة المساحات الزراعية وتنمية الانتاج الزراعى ، وبالتالي مصدرا جديدا من مصادر المال ، وبعد مناقشة مستفيضة قرر المجلس إعطاءها للراغبين بمثل الطريقة التى اتبعها المجلس فى توزيع أراضى البرارى السابقة بالمجان لاجال محدودة ، على أن تدفع عنها الضرائب بعد مضي مدة واعتمد الخديو اسماعيل هذه القرارات ، وعهد الى وزارة الداخلية بتنفيذها . (راجع كتاب فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة للدكتور عبدالعزيز رفاعى) .

بوابة الجحيم :

إلى هنا .. وبعد هذا العرض الموجز .. يمكن القول ان حكومة الخديو اسماعيل ، ومعها مجلس شورى القوانين ، خطت خطوات عملية لمواجهة الأزمة المالية ، واتخذت التدابير الكفيلة لزيادة الموارد ، وسد حاجة الخـزينة العامة الى المال ، وتدبير مصادر جديدة تقبل الميزانية

من عثرتها، وتجنب البلاد مغبة الوقوع فى براثن المرابين الاجانب.. ولكن.. ما حدث لم يكن فى الحسبان.. فبينما كان المجلس يشارك الحكومة فى همومها المالية، كان الخديو اسماعيل يبعث أعوانه إلى باريس للتفاوض مع البنوك وبيوت المال للحصول على قروض، ويفتح بوابة الجحيم حتى يشبع نهمه إلى المال، ويغدقه فى أمور لاتعود على البلاد بأى منفعة، ويتخلى عن العهد الذى قطعه على نفسه عشية جلوسه على الأريكة الخديوية بأن يتجنب المسلك الوعر الذى سلكه عمه سعيد باشا عندما استن سنة الاقتراض من الخارج. وقال اسماعيل فى حشد من قناصل الدول الأجنبية: «إن أساس الادارة هو النظام والاقتصاد فى المالية، وسأبذل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد، وقد عازمت أن أرتب لنفسى مخصصات محدودة، لا أتجاوزها أبداً.

«لقد ندد اسماعيل، حينما تبوأ العرش بإسراف سلفه سعيد، لأنه اقترض أحد عشر مليوناً من الجنيهات.. ولكن لم تمض عدة شهور حتى نقض العهد، واتخذ من الاقتراض عادة سنوية ظلت ملازمة له حتى بلغت القروض فى نهاية عهده أكثر من ١٢٦ مليون جنيه انجليزى (١١) فى وقت لم تكن حالة البلاد المالية تستدعى الاقتراض، لأن مصر تعد - كما يقول المؤرخ عبدالرحمن الراقى - من أغنى دول العالم، وتستطيع اذا وجدت ادارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج إلى القروض. وينقل الراقى عن مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) وهو مؤلف مجهول عاش فى مصر خلال هذا العصر وألف فيه كتابه القيم: اقترض اسماعيل أول قروضه عام ١٨٦٤ (يعنى

فى العام التالى لجلوسه على العرش) وتذرع لتسويفه بحاجة الحكومة إلى المال لمقاومة الطاعون البقرى الذى انتاب البلاد، ولسداد أقساط ديون سعيد باشا.. فأما مقاومة الطاعون البقرى فكانت حجة واهية لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون، ولم يرد بميزانية ١٨٦٤ مما أنفقتة الحكومة فى هذا الصدد سوى ١٢٥ ألف جنيه، وتعجب المؤلف من أن تلجأ الحكومة إلى الاقتراض برغم ما جاء فى الميزانية من زيادة الدخل على المنصرف. وقال أن السبب الحقيقى لهذا القرض الأول هو أن اسماعيل لم يحقق وعود الاقتصاد التى قطعها على نفسه، بل سار سيرة بذخ وهوى وإسراف، واستكثر من شراء الأتبان والأملك لنفسه والإنفاق عليها، فهذه الأسباب هى التى جعلته يعقد القرض الأول، وما كان سداد ديون سعيد ولا الإنفاق على مقاومة الطاعون البقرى الا ذريعة شكلية لذر الرماد فى العيون (١١). هذا ما يقوله مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) الذى يصفه الرافعى بأنه كاتب مشهود له بتحرى الحقائق، والاعتدال فى الرأى، وليس فى كلامه مبالغة، لأن المعروف عن اسماعيل باشا أنه كان بطبعه ميالاً إلى الاستكثار من المال والعقار، وظهرت عليه هذه الميول منذ ولايته الحكم، فقد كان نظار أملاكه يرغمون الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو، حتى صار مالكاً لخمس أطيان القطر المصرى (١١). أما مدام (أولمب إدوار) فقالت فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر) لم يكن اسماعيل يهتم الا بجمع الملايين، وكان يقتلى الأتبان فى كل ناحية قدر ما يستطيع، ويلجأ إلى السخرة لزروعها واستصلاحها، ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة. تاركاً

لمن يخلفه في الحكم أن يسدد ديونه، حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتي بعده .

مدافعون عن القروض :

ومع ذلك لم يعدم إسماعيل باشا من يدافع عن سياسة الاقتراض ويجد لها ألف مبرر، ويضعها في قائمة الأعمال الصالحات التي أراد بها الخديو خير مصر ونفعها . والعمل على استقلالها عن تركيا . والرغبة في أن يضع مصر في مصارف الدول العظمى ولو عن طريق السلف والدين . انظر ما يقوله مؤلف كتاب عصر اسماعيل - إلياس الأيوبي - عن مبررات ديون اسماعيل، في فصل جعل عنوانه «السحاب في السماء» : أن تنفيذ الخطة التي رسمها اسماعيل لنفسه، يوم ارتقى عرش جده وأبيه، استلزم مصاريف جمة للتمكن من إزالة جميع العقبات - أيًا كان نوعها وسببها - فاضطر إلى الاستدانة والاقتراض، ولما كانت مصر من أغنى بلاد الأرض، وكان المشهور عن الأمراء الشرقيين عموماً، عدم التدقيق في المحاسبة، وعن (اسماعيل) على الأخص، سعة سماحة الكف، وعظم كرم النفس، فأما المالين الغربيين، لاسيما اليهود، أظهروا من الاستعداد لإجابة جميع طلباته أغرب ما يتصوره الإنسان، بل بالغوا، في بادی أمرهم، في إغرائه على الاستدانة منهم إلى حد من المرغبات والمحبيات يكاد لا يتخيله التصور: فتلا الاقتراض منهم الاقتراض، واسماعيل في تلهبه الفائق لتحقيق أمنيته السامية لا يفكر في أن يعمل للأعباء المالية ولكيفية تراكمها حساباً، ولا يرى من نفسه ميلاً مطلقاً إلى تقدير عواقبها، بفعل تربيته ومنبته ومركزه،

فاستمر فى سيره السريع وعينه غير شاخصتين إلا إلى المرمى الفخيم الذى كان سيره يدنيه منه، ولا يهمله من أمره إلا أن يرى الذهب طوع بئانه دوماً (١١) .

فما هى الأمنيات الساميات التى طمحت إليها نفس اسماعيل، واستهون من أجلها أن يضع الأغلال فى عنق بلاده ويجعلها تحت رحمة المرابين اليهود؟. هل إغداقه الرشاوى والهدايا على السلطان ويطانته الفاسدة من أجل تغيير نظام وراثته العرش مما يعد من المصالح العامة التى تعقد من أجلها القروض؟.. وهل شراء قصر (الأميركون) على ضفاف البسفور لينزل فيه الخديو بضعة أيام من المنافع القومية التى يهون من أجلها استقلال مصر وحريتها وكرامتها؟ بعد أيام من جلوسه على عرش مصر، توجه اسماعيل إلى الآستانة ليقدم إلى السلطان عبدالعزیز فروض الولاء، ويوجه له الدعوة لزيارة مصر، فلبى السلطان الدعوة، وقضى فى مصر عشرة أيام تمتع فيها بكل ما وفره له الخديو من عناصر المتعة والنعيم، وعندما غادر السلطان الديار المصرية عائداً إلى بلاده حشد له الخديو من الهدايا والتحف والنفائس ما ملأ جوف سفينة بأكملها.. كما غمس فى جيب الصدر الأعظم - رئيس الوزراء التركى - ستين ألفاً من الجنيهات .. بخلاف ما حصل عليه الآخرون .. لماذا فعل اسماعيل ذلك؟. ولماذا أغدق كل هذه الأموال من دم الشعب المصرى؟ من أجل أن يستصدر من السلطان فرماناً بتغيير نظام توارث العرش. حتى يؤول إلى أكبر أبناء اسماعيل، بدلاً من النظام القديم الذى يورث العرش لأكبر أفراد الأسرة العلوية (١١) . وقبضت السلطنة العثمانية الثمن: ثلاث ملايين جنيه ابتلعها السلطان

فى كرشه، وزيادة الجزية السنوية التى تدفعها مصر لتركيا من ٤٠٠ ألف جنيه عثمانى، إلى ٧٥٠ ألفاً، أى ما يقرب من الضعف (١١). وقد لا يعلم القارئ أن مصر تحملت أعباء هذه الزيادة الجسيمة حتى عام ١٩٥٥ التى بلغت ٢٥ مليون جنيه عدا فوائدها، لأن حكومة تركيا استدانّت على (حس) الجزية المصرية من دول أخرى، وتعهدت الحكومة المصرية بتسديد أقساط الديون إلى تلك الدول وظلت تدفعها إلى عام ١٩٥٥ م. يقول الرافعى عن هذه الخسارة الفادحة التى تكبدها اسماعيل من أجل تغيير نظام الوراثة: من الاسراف فى القول ما يزعمه بعض المؤرخين أن اسماعيل قصد بسعيه فى هذه المسألة مصلحة البلاد، وأغلب الظن أن الباعث له على هذا التغيير، هو ما كان بينه وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل، وعمه عبدالحليم من الشقاق والشحناء، ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما، وكان الأميران أيضاً لا يكتمان كراهيتهما لإسماعيل، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهم من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه. وقد اغتتم حكام تركيا وذرو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس، ليبتزوا من أموال مصر ما تصل إليه أيديهم، فقد بذل الأميران عبدالحليم ومصطفى فاضل أموالاً طائلة فى الآستانة لإحباط مسعى اسماعيل، فاستفادت من الناحيتين، ولكن اسماعيل كان أكثر مالا، وأعز جانباً، فنجح فى مسعاه، وهكذا كان للمال الأثر الفعال فى نفوس حكام الآستانة (...). ولا يعد هذا التغيير فى نظام التوارث مكسباً كبيراً لمصر حتى تبذل من أجله تلك التضحيات المالية الباهظة، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا القول، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش إلى

(توفيق) ولم تكن ولايته خيراً على البلاد (...) ولاننسى انه فى عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى، وكان عليه جانب كبير من تبعه وقوعه، فلو لم يتقرر نظام التوريث الجديد، لكان جائزاً أن يخلف اسماعيل على العرش أمير أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق.

القرض الأول :

روى إلياس الأيوبي قصة القرض الأول حينما كلف الخديو أثناء وجوده فى باريس وزيره المقرب نوبار باشا بالتفاوض مع بيوت المال فى شأن ذلك القرض . واستغرقت المفاوضات ثلاثة شهور تمكن بعدها من عقد الاتفاق فى ٢٤ سبتمبر ١٨٦٤ ، وبموجبه تعهد المتعاقدون بأن يدفعوا إلى الحكومة المصرية خمسة ملايين جنيه انجليزى على أربع دفعات متساوية تقدم الدفعة الأولى فى نوفمبر من نفس العام، أما الدفعات الثلاث فتقدم فى يناير وفبراير وابريل ١٨٦٥ ، وأن تسدد لهم الحكومة المصرية (لاحظ أن الحكومة المصرية هى التى تلتزم بالسداد وليس الخديو الذى اقترض من أجل قضية شخصية بحثة) ذلك المبلغ بفوائده على خمسة عشر قسطاً سنوياً، قدر كل قسط منها ٦٢٠ ألفاً و ٢٩٤ جنيهاً وأن تكون إيرادات مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة ضماناً لذلك، وتحول رأساً إلى الدائنين (لاحظ مرة أخرى أن ضمانه القرض إيرادات حكومية صرفه .. وليس إيرادات الدائرة السنية أو الخاصة الخديوية) . أما الرافعى فيروى أوجه الصرف فى هذا القرض، فيؤكد أن اسماعيل لم ينفق شيئاً يذكر من قرض ١٨٦٤ على مرافق البلاد العامة، بل أنفق معظمه على توسيع دائرة أطيانه وأملاكه،

واشترى فى ذلك الحين قصر (الأمريكون) على ضفاف البوسفور ليتخذه مقراً له عندما يزور الآستانة، ولم يكن لولاية مصر قصور خاصة فى هذه المدينة ينزلون بها من قبل، ولكن اسماعيل رأى من استكمال مظاهر البذخ، أن يكون له قصر فخم لا يقل بهاء عن قصور السلاطين، فابتاع ذلك القصر، وأنفق المبالغ الطائلة فى توسيعه وزخرفته، ثم بدأ ينشئ القصور الفخمة فى مصر، فشرع فى إقامة سراى الجيزة المشهورة وكان التصميم على أن تكون داراً أنيقة، ثم اتسعت فصارت قصراً فخماً، وتعددت المباني حولها، وتمدت الطرق الجميلة بين الجيزة والجزيرة، وأنفقت الأموال جزافاً فى سبيل انشائها.. وكل هذه النفقات الباهظة جعلت الخديو يفكر فى قرض آخر.. ولما تمض ثمانية شهور فقط على القرض الأول (١١).

وليس من ضير - يقول الرافعى - أن يبتلى ولى الأمر ما شاء من القصور والساريات، ولكن إذا كانت مالية البلاد لا تسمح بنفقات تلك المباني، ولا سبيل إلى أقامتها إلا من القروض، فلا تسوغ الاستدانة لهذا الغرض، لأنه لا يجوز أن تقترض حكومة رشيدة قرضاً ما لإنفاق قيمته على مثل هذه الكماليات.

الخديو الفنجري

فى رأى بعض المؤرخين المدافعين عن السياسة المالية للخديو إسماعيل، أنه لم يقدم على الاستدانة من الخارج، إلا من أجل مصر ورفعة شأنها بين الأمم، وتحقيق المزيد من استقلالها عن السلطنة العثمانية، ولما كان كرش السلطنة لا يهضم إلا الذهب الرنان، فقد كان إسماعيل مضطرا إلى الاقتراض من الخارج لسد بالوعة الاستانة كى يحصل على الفرمانات الشاهانية التى تثبت استقلال مصر وتدفع بها بعيدا عن الهيمنة التركية (١١).

حسناً.. فمبدأ الاستقلال الوطنى هدف مشروع لا يختلف عليه مصرى يؤمن باستقلال بلاده عن أى نفوذ خارجى، ولكن ما هو معنى الاستقلال فى مخيلة الخديو إسماعيل حتى يناضل من أجله، ويبذل فى سبيله النفس والنفس؟ هل كان معناه طرد قوات الاحتلال العثمانى من مصر؟ الجواب بالنفى.. لأن مصر لم يكن على أرضها جندى عثمانى واحد منذ عصر محمد على، ولم يكن يربطها بالدولة العلية سوى أداء أقساط الجزية المقررة منذ عام ١٥١٧م عندما فتحها سليم الأول، والتى

ظلت مصر تدفعها حتى عام ١٩٥٥ م. وتحقق استقلال مصر - عمليا - في مضمون فرمان ١٨٤١ م الذى أعطى مصر طعمة لمحمد على وذريته يحكمونها هنيئا مرثيا بعد استصدار الموافقة الشرعية من خليفة الاستانة، وباستثناء هذا القيد الشكلى، فقد كان محمد على يتصرف فى شئون مصر تصرف المالك فى ملكة دون اعتبار للباب العالى، وكانت صورة استقلال مصر - فى عهد محمد على - جليلة كالشمس، وهل هناك أوضح من بناء قوة مصر الذاتية ممثلة فى الجيش المصرى الذى صال وجال فى أنحاء الشرق الأوسط، وبلغ من الجسارة أن دق أبواب الاستانة نفسها متحديا السلطان الجالس على عرش آل عثمان (١١) .

أى استقلال كان يسمى إليه إسماعيل، ويسوغ له خلق مصر بالديون؟ وهل نقل ولاية العرش من أكبر أفراد الأسرة العلوية إلى أكبر أنجال الوالى مما يحقق استقلال مصر عن تركيا؟ وهو الإجراء الذى دفع فيه إسماعيل ثلاثة ملايين جنيه ليطعم فم السلطان عبدالعزيز، بخلاف ما حصلت عليه بطانة السلطان من هدايا وأموال؟ وماذا جنت مصر فى هذا الصراع العائلى والعناد الشخصى سوى الابتلاء بحكم توفيق.. الخديو الذى خان بلاده، وفتح أبوابها للاحتلال الانجليزى (١١) وماذا عاد على مصر من هذا الاستقلال، الذى سعى إليه إسماعيل، وأهدرت فى سبيله الملايين من دم قلبها؟ لقد أدت كل جهود إسماعيل «الاستقلالية» إلى ضياع استقلال مصر.. ووقوعها تحت الوصاية الأجنبية التى بدأت بإنشاء صندوق الدين، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر، ثم تعيين لجنة تحقيق أوروبية، ثم تعيين وزيرين أجنيين - أحدهما انجليزى والآخر فرنسى - لهما حق الاعتراض على

أى قرار وزارى، ثم انتهت بطرد الخديو أولا، واحتلال مصر ثانيا..
وتصدع صرح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها
العظيمة من عهد محمد على (!!).

صرح الحضارة:

ويرى المدافعون عن سياسة إسماعيل الخرقاء، أنه أنفق هذه
القروض على مشروعات تمدين مصر وتحديثها، ونقلها - حضاريا - من
خريطة أفريقيا المظلمة، إلى خريطة أوروبا التى تشع بالنور والثقافة
والعلم والمدنية.. إلخ. وكلها أهداف جليلة.. ولا ننكر أن إسماعيل أقام
صرح الحضارة الحديثة.. ولكن.. هل أنفقت كل هذه القروض على
المشروعات العمرانية؟ أم أن نصيب هذه المشروعات كان ضئيلا
بالقياس إلى الأموال التى أهدرت على بناء القصور والملاعب
والمراقص والملاهى والحفلات المخملية والليالى الحمراء التى تضاهى
أساطير ألف ليلة وليلة (!!)

* هذا هو السؤال الذى يجب أن نطرحه كي نمنع الخلط بين
الأوراق، ونفرز عمليات التعمير والتحديث التى اتخذت ستارا للتغطية
على عمليات السفه والتبذير.. بل التخريب.. فى ظل نظام سياسى
يختلط فيه المال العام مع المال الخاص للخديو.. وحيث لا توجد
فواصل وحدود بين ما هو عام.. وما هو خاص (!!).

ثم.. من يقول إن التحديث يستوجب الاقتراض من الخارج،
وتحميل ميزانية البلاد فوق طاقتها.. واعتصار أموال الناس لتسديد فوائد
القروض - ولا نقول القروض نفسها - لأن ميزانية البلاد ناءت بهذه

الأحمال الثقيلة، وعجزت عن الوفاء بها.. مما وضع البلاد على شفا الإفلاس (!!).

لقد أقام محمد على منشآت التحديث والتعمير وأرسل البعثات وأقام الجيش واشترى المدرعات والمدافع والبرارج، ولم يقترض قلدا واحدا من الخارج، وقديما أقام الملك خوفو الهرم الأكبر ولم نسمع أنه مديده إلى لثيم، وشاد ملوك مصر وسلاطينها العمائر والمساجد والقناطر والسدود وشقوا الترع والمصارف دون أن يقترضوا من الأجانب، وكان هؤلاء العواهل - وهم أدنى ثقافة من إسماعيل المتفرنج - يدركون مخاطر التدخل الأجنبي في شئون مصر، ولو نظر إسماعيل في تاريخ أبيه وجده، لتعلم منهما خطر التعامل مع الأجانب، وبلغ حرص محمد على في هذا المجال شأوا كبيرا، حتى أنه رفض منح شركة انجليزية امتياز مد السكة الحديدية بين القاهرة والسويس، ورفض شق قناة السويس لأنه كان يدرك أن هذا المشروع سيضع مصر تحت وصاية الدول البحرية الأوروبية، وهو مالم يفتن إليه سعيد أو إسماعيل، حتى ليصدق على كل منهما المثل الشعبي: يخلق من ظهر الشاطر خايب (!!).

شخصية الخديو:

وللأمانة : يجب أن نسبر غور شخصية الخديو إسماعيل، لعلنا نحيط بما كان يعتريها من ضعف وعيوب دفعت به إلى الهاوية، ولم أجد أصدق من الصورة الوصفية التي رسمها بقلمه المؤرخ عبدالرحمن الرافعي عن شخصية إسماعيل حيث اجتمع الجانب الحسن إلى الجانب السيء، وظهرت آثار الجانبين معا في أعماله وسياسته خلال الثمانية

عاما التى تولى فيها حكم مصر، ولما كانت أخلاق إسماعيل هى العامل الأول فى شخصيته، فإن دراسة أخلاقه تعطينا عنه صورة عامة، فلقد كان بلا مرء : اية فى الذكاء والفهم وسرعة الخاطر، وقوة الذاكرة، ومضاء العزيمة، وعلو الهمة، وكان شجاعا لا يعرف الجبن والإحجام، قوى الشخصية، عظيم المهابة .

وبعد أن يعرض الرافعى الجانب الإيجابى فى شخصية إسماعيل، والمشروعات العظيمة التى قام بها - مما لا يدخل فى موضوعنا الآن - ينتقل إلى الجانب السيئ من شخصية إسماعيل ويتمثل فى: بذخه وإسرافه، وعدم تقديره العواقب، وضعفه أمام الملذات والشهوات، وقد أدت به هذه العوامل مجتمعة إلى التبذير فى أموال الخزانة العامة، فلم تكفه الملايين التى كان يجبيها من الضرائب، بل عمد إلى البيوت المالية والمرابين الأجانب يستدين منهم القروض الجسيمة، ولا يخفى أن هذه القروض هى الوسيلة التى تذرعت بها الدول للتدخل فى شئون مصر، ووضع الرقابة المالية عليها (...) ولم يكن إسماعيل فى حاجة إلى من يبصره بمطامع إنجلترا والدول الأوروبية فى عصر، فإن تاريخ محمد على وإبراهيم، صفحة ناطقة بتطلع إنجلترا إلى وضع يدها على البلاد وما وقوفها فى وجه فتوحات إبراهيم وإثمارها بمصر فى مؤتمر لندن ١٨٤٠م ببعيد عن ذاكرة إسماعيل، فلم يكن ينقصه الاعتبار بالحوادث السياسية .

ثم يشير الرافعى إلى عيب كبير فى شخصية إسماعيل هو: ركونه الشديد إلى الأوروبيين والدول الأجنبية، واعتماده عليهم، وثقته بهم ثقة

لا حد لها، وهذه الثقة كانت من عوامل تورطه فى القروض الخارجية، فقد كان لحسن ظنه بالأجانب، لا يحسب حساباً لليوم الذى ينقلبون عليه، وتتحول تلك القروض إلى أداة للتدخل الأجنبى، ومن مظاهر هذه الثقة أنه عهد إلى الأجانب، من رعايا الدول الاستعمارية بمهام خطيرة من شئون الدولة، وأطلعهم على أسرارها، ومكن لهم من مرافقها، وفى عهده تعددت البيوت المالية والشركات الأجنبية التى تغلغت فى البلاد، وعهد إلى الأجانب بمناصب كبرى من التى كانت الحكمة تقتضى إبعادهم عنها، كتعيين السير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى حاكماً لمديرية خط الاستواء، والكولونيل غوردون حاكماً لها من بعده، ثم حاكماً عاماً على السودان، وهلم جرا.. كل هذه التعيينات ترجع إلى إصراف إسماعيل فى ثقته بالأجانب والاعتماد عليهم، وتلك نقطة ضعف كبير فى سياسته تبين لنا الفرق بينه وبين محمد على* (...).

والخلاصة - عند الراقى - أن عصر إسماعيل كان عهد تقدم وعمران اختلطت به أغلاط وأخطاء أفضت إلى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى، ولو خلت شخصيته من عيوبها لجعل من مصر (يابان) أخرى، ولصارت على يده دولة من أقوى الدول المستقلة وأعظمها شأنًا، ولكن هكذا شاء حظ مصر العاثر أن تتلاحق الأخطاء، وتختلط السيئات بالحسنات فى تاريخ إسماعيل، فاغتنتم الدول الاستعمارية الفرصة فى أغلاطه، والضعف الذى انتاب البلاد على عهده، ووجدت من ذلك سبيلاً إلى تحقيق أطماعها فى أرض الكنانة، والضعف فى كل عصر آفة الأمم، والقوة هى سياج حريتها واستقلالها.

قطار بدون سائق :

كان إسماعيل فى شططه واندفاعه نحو الغرب الأوروبى، أشبه بقطار بدون سائق يضبط حركته، ويلزمه التأنى فى المنحنيات التى تتطلب الهوينى، أو يجبره على الوقوف فى المحطات التى تستوجب ذلك، ومضى إسماعيل فى تقليد الأوروبيين فى عاداتهم وسلوكياتهم وملايسهم وسهراتهم، متناسيا أنه حاكم مسلم يحكم شعبا مسلما له موروثاته وعاداته وتقاليده، وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدى إلى نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعى تتطلب تهئية ذهنية وثقافية طويلة المدى، ولم يلتفت إلى ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج، بل بطش بمشاريخ الأزهر عندما عارضوه، وانتشى بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته، وانهاالت مقالاتهم بنزعته التحررية ومسايرته لروح العصر، ولم تكن هذه المقالات لوجه الله، وإنما مقابل الأعطيات التى كان يغدقها عليهم الخديو والتى بلغت خمسة ملايين جنيه فى تقدير بعض المؤرخين.

كان أقصى ما يريده إسماعيل: أن يبدو أمام ملوك أوروبا فى صورة الفلجرجى القاعد على أموال قارون، ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال، ولو عن طريق السلف من بيوت الريا والبنوك الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة، وهى أن هذه الأموال هى من خزائن بنوكهم، وهى بضاعتهم ردت إليهم فى أشكال من السفه والبيذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلا (١١).

انظر .. ثم أحكم .. بعد أن تقرأ هذه النادرة التي رواها إلياس الأيوبي في الجزء الأول من كتابه (عصر إسماعيل) :

ذهب الخديو لحضور المعرض الدولي في باريس، وصدرت الصحف الباريسية تبشيراً بوصول «خديو» مصر إلى عاصمة الإمبراطورية الفرنسية، ولما كان هذا اللقب جديداً على المسامع، أقبل الناس يتساءلون : خديو؟ ما هو الخديو؟ وأشرأبت أعناق أفهامهم إلى الوقوف على معنى الكلمة، بالتعرف بحقيقة الأمير المطلقة عليه، وكان (إسماعيل) قد ذهب إلى باريس، وجيوبه مملوءة بالنقود، وخزائنه المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه، ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربي في عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض، فباتت أحداثه إعجاب الجميع ولقبته الدوائر الاجتماعية (أسد اليوم)، وإنكسفت أمام أصفره الرنان، والمبذول بجود حاتمى، شمس جلالة السلطان عبدالعزیز على شدة سطوعها. ووقع في خلد العامة أن (الخديو) إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة، بعث إلى الحياة، ثانية، ليؤكد للملأ أن أقاصيص تلك الرواية إنما هي حقائق، لا حديث خرافة، وأنه (خليفة الفراعنة على عرش القطرين) أكبر ملك حلت قدماه أرض فرنسا، كما أنه أغنى عواهل الأرض قاطبة (11)

فتاة القصر :

ومن الأحداث التي وقعت خلال زيارة الخديو لباريس، تلك القصة التي رواها «الكونت دي لافيزون» في مذكراته، وهي أن أحد كبار النبلاء الفرنسية دعا الخديو إسماعيل إلى وليمة في قصره، بضواحي

باريس، فأجاب الخديو دعوته، وإذا به يرى قصرا بلغ من الجمال والجلال، وفاخر الرياش، مالم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبدا، في حوزة غير الملوك، فأعجب (إسماعيل) به أيما إعجاب، وبعد تناول الغداء - وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين - أبدى لمضيفه استحسانه العظيم لقصره، فشكره النبيل على تطفه، وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالى شديد، فأحب مساعدته بشكل لا ينجرح له إحساسه، فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره، وكان الرجل على شدة احتياجه إلى النقود، لا يرى في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البداء الفخيم، وتخرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض، فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحملة على العدول عن رغبته في المشتري، فأجاب : إنى قد أبيع يا مولاي، مقابل خمسة ملايين من الفرنكات.

ولم يكن القصر يساوى أكثر من مليون ونصف مليون فرنك، ولكن إسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهى طائرة، وقال : إنى اشتريته منك بهذا المبلغ، وحرر له فى الحال حوالة بثمنه على أحد الببوك بباريس، ولم يجد الرجل مفرا من قبول البيع، غير أن إسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعا، وعرف أنها ابنة النبيل، فقال بابتسام جميل مخاطبا والدها : (على أنى لا أحسبك تمنع فى تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليدا لذكرى استحسان الخديو مصر، ظرفها وآدابها ولكيلا يقال أنى زرتك لأجرك من قصرك).

وبدلاً من أن يعلق المؤرخ (الأيوبي) على هذا التصرف بالاستنكار والزراية والتنديد بخديو مصر الذى يبدد أموالها فى السفه والفجور، نراه

يقول: فكان لهذه الهبة الجلية، وكيفية منحها، رنة إعجاب فى العاصمة الفرنسية، جعلت (إسماعيل) موضع رشارات البدان. والتفادات الأعين، حيثما توجه، وأينما حل، وسهلت عليه جدا تحقيق الرغائب السامية الدائرة فى فؤاده، ألا وهى القضاء على القيدىن المقيدين لاستقلال بلاده، وهما: ما تبقى من ظل السيادة العثمانية، والامتيازات الأجنبية (١١).

يد مثقوبة:

بالله عليكم.. هل رأيتم أشد سخفا من هذا التبرير الأبله لسفاهة خديو مصر؟ وهل فطنتم إلى هذا الربط المتعسف بين يد إسماعيل المثقوبة، وبين استقلال مصر، وتبديد الملايين من أجل كشف ما تبقى من ظلال السيادة العثمانية والامتيازات الأجنبية..؟ وأين الفوائد التى عادت على رفعة مصر ورقىها فى عيون الأجانب، من إغداق خمسة ملايين فرنك على فتاة هيفاء فرنسية ذات خمسة عشر ربيعا (١١).

أنه الضعف الذى يصيب المؤرخ حين يكتب فى ظل العصر الذى يؤرخ له، فيطلق لقلمه عنان الرياء والمديح وتبرير الفساد، ويجعل من الفسيخ شريات حتى يحظى برضاء سادة العهد الذى يكتب فيه، ولا غرو أن يفوز (الأيوبى) بالجائزة الأولى فى المسابقة التى تمت عام ١٩٢٣ تحت رعاية الملك فؤاد بين المؤلفين لوضع كتاب يؤرخ لعصر أبيه.. ومع ذلك فالكتاب حافل بالنوادى التى تكشف عن فساد إسماعيل وتصرفاته الخرقاء، وتبذيره المال فى وقت كانت مصر تئن فيه من

وطأة الديون حتى أن السلطان عبدالعزيز أصدر في عام ١٨٦٨ م فرمانا يغل يد الخديو عن الاستدانة الأجنبية لمدة خمس سنوات عاشها إسماعيل كما يعيش الفأر في المصيدة، فلما أوشكت السنوات الخمس على نهايتها، شد الخديو الرحال إلى الاستانة ليعمل على تحرير نفسه من هذا القيد، ولم يتورع أن يصحب معه والدته، الأميرة خوشيار، ليستخدمها في تطويع إرادة الحريم السلطاني ليسانده في مطالبه من السلطان وأخذ الخديو معه صفائح الذهب والهدايا التي تدخل السرور على قلب عبدالعزيز، وفي طليعة هذه الهدايا خمسمائة بندقية من طراز «مرتيني هنري»، دفعت مصر ثمنها لمعامل انجلترا، فلما حل عيد جلوس عبدالعزيز على عرش السلطنة، أقام إسماعيل في قصره، على ضفاف البوسفور، سلسلة من الولائم لكبار رجال الدولة، ختمها بوليمة خاصة لجلالة السلطان، بذل فيها من صنوف اللذات، وأريق فيها من المشارب ما لم يقع في خلد أحد، وتوج ذلك جميعه بأن قدم للسلطان «طقم» سفرة من صنع باريس، كل آنيته من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، وقد استعمل في تزيينها من الماس وحده ما يزيد على خمسة آلاف قيراط (١١).

قائمة الرشاوى:

يقول (الأيوبي) في لهجة المعجب بسخاء سيده: على أن هذا جميعه، رغم جسامته، لم يكن بالنسبة إلى اللاحق إلا كنسبة التوابل إلى الطعام الحقيقي، فإن (إسماعيل) لم يمض على إقامته في الاستانة شهران، حتى كانت قائمة أعطياته وهداياه كما يلي:

* مليون جنيه عثمانى للسلطان عبدالعزيز.

* خمسة وعشرون ألف جنيه انجليزى للصدر الأعظم (رئيس الوزراء).

* خمسة عشر ألف جنيه لوزير الحربية.

* عشرون ألف جنيه إلى كبار رجال السراى السلطانية.

ومن جانبها قامت الوالدة باشا باستمالة قلوب الحريم السلطاني، وفوق الهدايا النفيسة التى قدمتها إلى نساء الوزراء العثمانيين وكبار موظفى السراى، تقربت من السلطانة ذاتها - والدة عبدالعزيز - وأولمت لها اللوائى الفاخرة، وقدمت لها من التحف الثمينة ما لا يمكن وصفه، أو حصره، مما أكسب مصالح إسماعيل فى السراى السلطانية صوتاً غير قابل للرفض، وهذا تقدم إسماعيل بمطلبه، واستجاب له عبدالعزيز، وأصدر له فرمان الذى يسمح له باستئناف الاقتراض : إنى شاء.. ومتى شاء.. وكيفما شاء (١١).

وعاد إسماعيل إلى مصر فرحاً مبتهجاً بهذا الانتصار.. وتزينت الاسكندرية ثلاثة أيام.. وكذلك القاهرة.. ودقت البشائر، وعزفت الطبول، وأقبل عليه الوزراء والكبراء مهئينين بهذا الأنجاز الباهر.. وكان ولى النعم قد جاب الديب من ديله.. وما علموا أنه عاد بالنكبة والدمار على مصر.. إذ لم تمض سوى أيام حتى كان إسماعيل قد استدان أفدح وأكبر قروضه الأجنبية وهو القرض الذى أطلق عليه المؤرخون بحق: القرض المشئوم لفداحة قيمته وقد بلغ ٣٢ مليون جنيه (١١).

القرض المشؤم

فى أغسطس ١٨٧٢ عاد الخديو إسماعيل من الآستانة، بعد أن قضى فيها سحابة الصيف، وفتح على البهلى جعبته العامرة بالذهب والفضة ليغترف منها السلطان وأمه وزوجاته وحاشيته، عساه يحظى بالرضا السامى، ويفك القيد الذى فرضه عليه السلطان بعدم الاقتراض من الدول الأجنبية، وفعلت الرشاوى فعلها الساحر، واستطاع إسماعيل أن يشتري الذمم الخرية فى ذاك البلاط الفاسد، فأعطاه عبدالعزيز صك التحرير والانعتاق، وسمح له بأن يقترض كيفما شاء.. ومتى شاء.. وأنى شاء.. ورقص إسماعيل طرباً لهذا النصر المؤزر.. وما درى أن السلطان منحه الحبل لى يشنق نفسه.. فكان رقصه أشبه برقصة الطائر وهو يترنح من سكرات الذبح.. لقد رفعت الرصاية عن إسماعيل فمضى فى طريق الغواية الى نهايته، كأى وريث سفيه، ما أن يرفع عنه الحجر حتى يبدد أمواله دون حساب لغدر الزمان (١١). وقيل أن يصل إسماعيل إلى ديار المحروسة، كانت أنباء النصر المبين قد سبقته، فاكتست الاسكندرية أزهى حلها ثلاثة أيام بلياليها، وكذلك القاهرة،

ودقت البشائر، وعلقت الزينات، توافد كبار رجال الدولة على القلعة يقدمون التهاني إلى أميرهم لحصوله على حق الاقتراض دون استئذان السلطان، وكلهم يمني نفسه بهجرة من الثروة التي ستهبط من بنوك أوروبا !!.

فهل رأيت اختلالاً في القيم، وتدهوراً في معاني الوطنية، أبشع مما حدث في هذا العصر الذي صار فيه الاقتراض غاية المني، ودليل استقلال وحرية.. بلد يقيم الأفراح والليالي الملاح - ليس لأنه تحرر من الاستعمار الأجنبي - ولكن لأنه دخل «خية» الاقتراض الأجنبي (١١). بعد عودة الخديو إلى عاصمة ملكة، وصلته الدفعة الأولى من الصفقة في شكل فرمان ١٠ سبتمبر ١٨٧٢ وفيه يعترف السلطان بالامتيازات التي سبق أن حصل عليها إسماعيل من دار السعادة، وبعد ١٢ يوماً وصلته الدفعة الثانية ممثلة في «الخط الشريف» برفع الحظر على الاقتراض الخارجي، ولكن حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان. فقد تبين إن رجال البلاط العثماني خجلوا من تدوين هاتين الوثيقتين في السجلات الرسمية - وأن لم يخجلوا من قبض الرشوة التي دفعت ثمناً لهما - فلما دارت الأيام، وخلع السلطان عبدالعزيز ثم قتل، رفض مدحت باشا - الصدر الأعظم والمصلح المعروف - الاعتراف بالفرمانين، ولكنه أخذ بنصيحة سفير إنجلترا في الأستانة، وصاحب الكلمة النافذة في الدولة العليا، واضطر إلى الاعتراف بهما لوجود تأشيرة السلطان عليها.

هذه مجرد طرفة، وإن كانت كالحبة وسمجة، ولكنها تعطيك صورة عن عاقبة التعامل مع اللصوص بعد توزيع الغنائم، ونعود بعدها إلى مشاهدة وقائع التراجيديا المصرية التي صنعها إسماعيل.

الديون السائرة :

أراد الخديو أن يمارس حريته بعد خروجه من الاعتقال، ويستمتع بعادته المرذولة في الاستدانة من الخواجات، فأقدم على عقد أفدح قرض في تاريخه، وهو القرض الذي سماه الماليون «القرض الكبير»، وسماه الرافعي «القرض المشئوم»، وهي تسمية أصدق، نظراً للمصائب التي نجمت عنه، ووضعت مصر على شفا الإفلاس، وعجلت بسقوط إسماعيل، واحتلال مصر احتلالاً عسكرياً دام سبعين عاماً أو يزيد. وقبل أن أعرض عليك قصة هذا القرض المشئوم، سأقدم إليك بياناً مختصراً عن القروض التي سبقته، وقبل هذا وذاك لابد أن نكون على بينة من القروض الداخلية التي استدانتها الخديو من أبناء شعبه، وهي التي يطلق عليها اسم «الديون السائرة»، وتشتمل على المشتريات والاستجرات والمعاملات المدنية والتوصيات، وتشتمل كذلك على الإقادات أو البونات (الأذون) المالية، أو بونات الروزنامة أو بونات الدائرة السنوية، وهي عبارة عن كمبيالات تكتب بقيم مختلفة مسحوبة على الدواوين المتقدمة تحت الإذن، موقفاً عليها من وزير المالية أو من ينوب عنه، وتستحق الوفاء في الميعاد الموضع بها، وكانت هذه البونات تودع بالخزائن ليشتريها الراغبون، وبعد مساومتهم على سعر الفائدة، يدفعون صافي قيمتها للخزانة، ويتسلمون الكمبيالات، ويتاجرون فيها، وعند حلول موعد السداد يقدمونها للخزانة ويقبضون قيمتها. وكان

المرابون الأجانب المقيمون بمصر من أكثر الفئات إقبالاً على شراء هذه الكمبيالات لارتفاع سعر فائدتها. ولم يكن للديون السائرة حساب معروف، بل كان الخديو كلما احتاج إلى المال، استدان بقدر ما تصل إليه يده، وقد اختلفت الآراء في تقدير حجم هذه الديون لصعوبة حصرها، فمؤلف كتاب (تاريخ مصر المالي) يقدرها سنة ١٨٧٤ بحوالى ٢٦ مليون جنيه، وقدرها آخرون بحوالى ٢٨ مليون جنيه، وجاء فى الوقائع المصرية بتاريخ أول ابريل ١٨٧٣ أنها بلغت ٢٥ مليون جنيه. وهذا طبعاً بخلاف ديون الدائرة السنوية (أطيان الخديو الخاصة) وقد بلغت أربعة ملايين جنيه بفائدة كانت تصل إلى ٢٤ ٪ سنوياً.

مسلسل القروض :

كان هذا حجم القروض الداخلية .. والآن نتكلم عن القروض الخارجية التى استدانها الخديو من بيوت المال اليهودية فى فرنسا وإنجلترا، وسبق أن ذكرت لك أن إسماعيل، عندما جلس على عرش البلاد سنة ١٨٦٣ ندد بسلفه - سعيد باشا - لأنه اقترض أحد عشر مليوناً من الجنيهات، وانتقده انتقاداً لاذعاً لأنه أقدم على هذا الفعل الربيل، ووعد بتسديد هذا الدين فى أقرب فرصة حتى يظهر مالية مصر من أى نفوذ أجنبى .. ولكن .. شتان ما بين الأقوال التى يتفوه بها الحاكم فى مستهل حكمه ليخدع بها شعبه، وما بين الأفعال التى يدمر بها شعبه، وإليك بيان القروض السنوية التى استدانها إسماعيل :

* فى العام التالى لجلوسه على الأريكة المصرية، افتتح إسماعيل مسلسل القروض بخمسة ملايين و ٧٠٤ آلاف و ٢٠٠ جنيه استدانها من

بيت «فروهلينج وجوش» الانجليزى بفائدة ٧٪ ويسدد على ١٥ سنة. أما المبلغ الحقيقى الذى دخل خزانة مصر فهو أربعة ملايين و ٨٦٤ ألف جنيه بفائدة ١٢٪. أما أين ذهب الفرق فعلمه عند حاشية الخديو وسماسترته والقوادين الذين كانوا يقبضون عمولاتهم مسبقاً.. وقد رهنّت الحكومة لسداد فوائد هذا القرض: ضرائب أطيان مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة.

* فى العام التالى (١٨٦٥) اقترض إسماعيل ٣٨٧٠٠٠ ر ٣ جنيه من بنك «الانجلو إيجيپتيان»، لم تتسلم مصر منها سوى ٢٧٥٠٠ ر ٢ جنيه وبفائدة فاحشة بلغت ٤٪ شهرياً أى ٤٨٪ سنوياً. أما الرهن فكان ٣٦٥ ألف فدان من أراضى الدائرة السنية.

* فى العام التالى (١٨٦٦) وهو عام تكوين مجلس شورى النواب، اقترض إسماعيل من بنك «فروهلينج وجوش» ثلاثة ملايين جنيه لشراء أملاك الأميرين حليم وفاضل، ولرشوة السلطان حتى يوافق على تغيير نظام وراثة العرش. ولم تتسلم مصر منها سوى ٢٦٤٠٠ ر ٢ جنيه.

* وفى العام التالى (١٨٦٧) اقترض إسماعيل من البنك «الإمبراطورى العثمانى» مبلغ ٢٨٠٠٠ ر ٢ جنيه، والسبب غير معروف، أو بحجة تسديد دين سعيد باشا، أو لتحويل الديون السائرة إلى دين ثابت. ولكن بقى كل شىء على حاله، ولم تتسلم مصر من هذا المبلغ سوى ١٧٠٠٠ ر ١ جنيه.

* وفى العام التالى (١٨٦٨) اقترض إسماعيل ١١٨٩٠٠ ر ١ جنيه من بنك «أوينهايم»، لم تتسلم مصر منها سوى ٣٨٤ ر ١٩٥ جنيه، أى أن سعر القرض ٦١٪ وخصص لسداد أقساطه: إيرادات الجمارك

وعوائد الكبارى وإيراد الملح ومصايد الأسماك . وكان من شروط هذا القرض أن يكف الخديو عن الاستدانة لمدة خمس سنوات . ورغم فداحة الفرق بين قيمة القرض الحقيقية والاسمية ، فقد أنفق منه الخديو نحو مليونين فى الاستدانة لرشوة السلطان ويطانته ، وأنفق جزءاً منه على إتمام قصوره فى عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى باشا بالأسكندرية وتأثيثها بفاخر الرياش ، ومن هذا القرض أيضاً أنفق النفقات الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وقد بلغت مليوناً ونصف مليون جنيه ، وإليك تعليق المؤرخ عبدالرحمن الرافعى على هذه المسألة : أنظر كيف أن نفقات تلك الحفلات كانت من القروض ، فكان الخديو فى هذا الموقف شبيهاً ببعض الذوات والأعيان فى الاستدانة للإنفاق على إقامة الحفلات والولائم ، والظهور بمظهر الفخفة والبذخ ، أمام قوم ليس فى قلوبهم ذرة من الإخلاص لمضيفهم ، فإن ضيوف القناة ، ومعظمهم من ذوى الرؤوس المتوجة ، وأصحاب النفوذ والسلطان المالى والسياسى فى أوروبا ، هم الذين استعبدوا مصر بعد أنتهاء تلك الحفلات ، وهم الذين ضربوا عليها الوصاية الشديدة الوطأة ، ولقد أحدثت نفقات حفلات القناة فراغاً كبيراً فى الخزانة ، وبدأت مظاهر الضيق والارتباك تبدو على وزارة المالية ، لقرب المواعيد المضروبة لأداء أقساط الديون ، ولم يكن فى خزائنها ما يفى بذلك ، فاضطر الخديو تفريجاً للضائقة ، وكتماناً لأسرارها ، أن يستدين من أحد معارفه ٣٠٠ ألف جنيه ، وقبلت وزارة المالية أن تخصص سندات بفايدة ١٤ ٪ لمدة ثلاثة أشهر ، ويدهى أن قبول هذه الشروط القاسية دليل على ما وصلت إليه الحالة من الضيق والإعسار .

غلطة قاتلة :

فى غضون هذا الوضع المتردى الذى كان يتطلب حكمة وتعقلاً، أقدم الخديو إسماعيل على غلطة قاتلة بتعيينه إسماعيل باشا صديق (المفتش) وزيراً للمالية، فكان أشبه بالقط الذى سلموه مفتاح الكرار. فعاث فيه فساداً ونهباً وغشاً وتلفيقاً. وكان بارعاً فى جلب الأموال بالنصب والاحتياىل دون خوف لأنه كان مطمئناً إلى أن مهمته الأساسية هى إسعاد مولاة، وتدبير الأموال التى تنعشه من أى سبيل. وكان يبتكر أساليب لا تخطر على بال عتاة النصابين والأفاقيين منها أنه فى صيف ١٨٦٩ باع للتجار الأجانب نصف مليون أردب من بذرة القطن، والقطن لا يزال قائماً على سيقانه فى الأرض. وتسلم الثمن نقداً وعداً.. فلما تم جنى القطن وحل موعد تسليم البضاعة ذهب المشترون إلى الشون لاستلام البذرة فلم يجدوا شيئاً، وتبين لهم أن الوزير باع البذرة إلى مشتريين آخرين.. أى أنه باعها مرتين.. وعندما ارتفعت أصوات المشتريات بالاحتجاج، استدعاهم الوزير وقال لهم: ولا تزعلوا.. كم دفعتمهم فى ثمن الأردب؟ قالوا : دفعنا ٧١ قرشاً. قال: وأنا اشتريت منكم الأردب بسعر ٧٨ قرشاً.. واتفقوا على أن تدفع لهم القيمة كمبيالات بفائدة ١٢ ٪ سنوياً.. أى أن ربحهم من الصفقة الوهمية ١٨ ٪ سنوياً وتكررت هذه العملية أكثر من مرة، وتبين للجنة التحقيق الأوروبية أن الحكومة كانت تبيع للتجار الأجانب غلالاً ليست فى حوزتها، ولا ينتظر أن تحوزها، وتقبض ثمنها فوراً، فإذا جاء موعد التسليم، اشترت الحكومة الغلال من ذات التاجر الذى باعته إياها، ودفعت ثمنها أوراقاً وسندات على الخزانة مع فوائد تصل إلى ٢٠ ٪ ولا تحتسب

الفوائد على المبلغ الأصلي الذى دفعه التاجر، بل على المبلغ التالى المقدر ثمناً لغلالة.. وبهذه السرقات الفاحشة كانت خزينة الحكومة تنزف أموالاً بلا حساب أو عقاب.

قرض الدائرة السنوية :

ولما حل عام ١٨٧٠، والخديو مقيد بعدم الاقتراض من الخارج طبقاً لشروط قرض ١٨٦٨، ويمقتضى فرمان الباب العالى، لم يجد إسماعيل بدأ من الاقتراض لحسابه الشخصى، فاستدان من البنك «الفرنساوى - المصرى»، ٨٦٠ر ١٤٢ر ٧ جنيهاً بفائدة ٧٪ بضمان أطيانه الخاصة، ولذا سمى هذا القرض: قرض الدائرة السنوية الثانى، وصدر بواقع ٦٧٪ فقط بعد استبعاد السمسرة والعمولة، فكانت النتيجة: إنه لم يدخل من القرض إلى خزائن الخديوى سوى خمسة ملايين جنيه، حتى بلغ العبء الذى احتمله الدائرة السنوية سنوياً لأداء هذا القرض ٦٦٨,٩٦٠ جنيهاً أى ١٣٪ تقريباً من رأس المال المدفوع، وزعم الخديو أنه عقد هذا القرض ليستخدمه فى إنشاء مصانع السكر ومد السكك الحديدية فى أطيانه لنقل محصول القصب. وعند إنشاء المصانع والسكك بلغت تكاليفها أضعاف ما تستحقه، فضلاً عن أن أرباحها تقل عن فوائد الدين. ولهذا القرض حكاية يرويها إلياس الأيوبى وتكشف عن سفاهة الخديو. فيقول إن الذى قدم هذا القرض هو محل «بيشوفشهم وجولد شمدت» ونال فى مقابل ذلك امتيازاً لتأسيس بنك يدعى «البنك الفرنساوى - المصرى»، كان الخديو نفسه أكبر مساهميه، واكتتب بربع أسهمه أى بما بلغت قيمته... ٦,٢٥٠ فرنك، وقام مؤسسه ببعض شئون تصدير القرض،

وعلى الرغم من تصديره بواقع ٧٠٪ فقط، وبالرغم من هبوط صافي التصدير إلى ٦٧٪، فإن القرض لم يغط سوى ثلثيه فقط، ولم يكتتب أحد في الثلث الباقي، فأوصيت الحال خفض أسعاره، وكانت النتيجة أنه لم يقبض منه سوى خمسة ملايين جنيه فقط، ويحكى الأيوبي عن الأساليب السوقية التي كان يسلكها الوزير إسماعيل صديق للترويج لهذا القرض وتشجيع الناس على الاكتتاب فيه، فكان يذهب بنفسه على رأس فئة من رجال الحكومة إلى مقر البنك ليوهم الناس بثبات الموقف المالي، ويكون قدرة للسذج، ولو للحظة، ولكنه لم يجد قبولا عند الناس، وارتفعت أصوات الصحف الوطنية تطالب الباب العالي بالتدخل لمنع هذا القرض. وإذا بأنباء حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا تلقى بظلالها الكئيبة على الخديو بعد أن رأى عرش صديقه الحميم نابليون الثالث ينهار أمام الجحافل الألمانية. ويرى صديقه العزيزة «أوجيني» تهرب كجرذان السفينة، ولما عم الضيق واشتد الكرب، لجأ المفتش إلى سلاح الدعايات الكاذبة، فأشاع بين الناس أن الحكومة عازمة على بيع سككها الحديدية إلى شركة انجليزية، وتارة يزعم أن وزارة المالية على وشك أن تستبدل إفادات الديون السائرة بحيث تصيب منها ١٢ مليون جنيه، ونجحت هذه الدعايات في رفع سعر القرض المذكور إلى ٧٤٪.

قانون المقابلة :

في ذاك العام (١٨٧٠) بلغ مجموع الديون التي اقترضها إسماعيل ٣٣ مليون جنيه، في أقل من سبع سنوات، ومع ذلك يذكر مؤلف كتاب (موقف مصر المالي) أنه كان من الممكن إنقاذ الموقف، والخروج من

الأزمة الخائفة لو عدل الخديو عن خطته، وتنكب سبيل الأسراف والتبذير، ولما ضاقت سبل الاقتراض الخارجى أمام الخديو، تفتق ذهن وزير مالىته إسماعيل صديق عن حيلة يبتز بها أموال المصريين، فعمد فى البداية إلى زيادة الضرائب، ولكن هذا المعين لم يشبع حاجة الخزينة إلى الأموال، فابتدع المفتش طريقة تعد بمثابة قرض إجبارى يجبى من الأهالى، أو ضريبة جديدة تفرض على أطيانهم، وأعد لذلك قانوناً عرف باسم «قانون المقابلة»، وبمقتضاه يدفع مالك الأطيان مجموع الضرائب المربوطة على أرضه لمدة ست سنوات مقدماً، وفى مقابل ذلك يعفى من دفع نصف المربوط على الأرض إلى الأبد. أى يدفع المالك ضرائب السنوات الست دفعة واحدة، وتحسب لهم فوائد عن هذه الدفعة الواحدة بواقع ٨ر٥٪ وأساس هذا المشروع، على حسابان إسماعيل صديق، أن الدين العام يبلغ ضعف الضرائب العقارية عن ست سنوات، فإذا دفع الأهالى الضرائب مضاعفة عن هذه السنوات الست، سدد الدين كله، وفى مقابل ذلك تعفيهم الحكومة إلى الأبد من نصف الضريبة المربوطة على أطيانهم، وتعهدت الحكومة فى هذا القانون، بأن من يدفعون المقابلة لا يزداد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل، ولا يجوز مطالبتهم بسلفة ولو مؤقتة، ولا يجوز لوزير المالية - بعد الحصول على المبالغ المطلوبة - إصدار سندات على الخزانة أو استدانة ديون جديدة، ولا تجوز المطالبة بسلف مؤقتة ولو تحت تأثير قوة القاهرة كشرق أو غرب إلا بعد التصديق على ذلك من مجلس النواب، وقضى القانون أن تخصص المبالغ المدفوعة من المقابلة لسداد ديون الحكومة. وأرجو أن تضع خطين تحت العبارة التى تمنع وزير

المالية من الاستدانة أو إصدار سندات على الخزانة بعد الحصول على المبالغ المطلوبة،.. لأن إسماعيل صديق، العريق في المراوغة والتحلل من الأخلاق، سوف يستخدم كل الحيل للانعتاق من هذه القيود، بحجة أن المبالغ المطلوبة لم تكتمل (١١) فرغم أن الحكومة جعلت دفع «المقابلة» اختيارياً إلى أنها استخدمت التوريط بالنسبة للبشوات وكبار الأعيان، واستخدمت الضغط والإكراه والضرب بالكرباج بالنسبة لسائر الأهلين، ولولا الإكراه لما ارتضى الناس المخاطرة بأموالهم، لأنهم يعلمون براعة الحكومة في التحلل من العهود، ورغم ذلك لم تجمع الحكومة من أموال المقابلة سوى خمسة ملايين جنيه لغاية آخر سنة ١٨٧١. يقول الرافعى: وغنى عن البيان أنه لم يدفع شئ من هذه الملايين لتسديد الدين العام، أجنبياً كان أو سائراً، بل ابتلعتها هاربة الإسراف التى ابتلعت القروض الأخرى، وعلاوة عن ذلك فإن وزير المالية إسماعيل المفتش نقد عهده بالامتناع عن إصدار سندات على الخزانة، وأصدر إفادات مالية استدان بها عدة ملايين أخرى بلغت اثني عشر مليون جنيه، ونقضت الحكومة عهدها أيضاً فزادت الضرائب على ذات الزطيان التى دفعت المقابلة، وكانت المقابلة طريقة معوجة فى الاستدانة، لأنه معلوم أن معظم إيرادات الحكومة السنوية فى بلاد زراعية كمصر، تجبى من الضرائب على الأطييان فإنقاص نصف المربوط من الضرائب إلى الأبد يؤدي إلى نضوب معين المال بعد انتهاء السنوات الست، مما يضاعف من الضيق المالى، هذا فضلاً عن أن الحجة التى تذرعت بها الحكومة وهى وفاء الدين العام لم تتحقق البتة، ولم يسدد شئ من هذا الدين، بل زاد عما كان عليه، فكأن «المقابلة» كانت وسيلة لاقتناص الأموال من الأهالى وتبديدها.. ومن ثم

اتجهت همة إسماعيل «الخدوي» وإسماعيل «المفتش» إلى خارج الحدود لاستئناف مسلسل الاقتراض، فكان القرض المشئوم من بيت «أوبنهايم»، وكانت الحجة هي نفس الحجج السابقة التي لم يتحقق منها شيء وهي تسديد القروض. وبلغت سندات القرض ٨٤ر٥ ٪ بفائدة ٧ ٪ ولم يدخل الخزانة منه بعد الخصم والسمسرة والعمولة سوى... ٢٠ر٧٤٠ جنيه أى بنقص ٣٧ ٪ من قيمة الدين الاسمية، فخسرت الحكومة من أصل القرض ٢١ مليون جنيه فى حين أنها التزمت بتسديد قسط سنوى ٢٦٧١ر٢٦٥ جنيهات ثم إنها لم تقبض المبلغ نقداً، بل تسلمت منه أحد عشر مليون جنيه فقط، والباقي وقدره تسعة ملايين جعلت سندات للخزانة المصرية.

شروط جائزة :

ومن هذا يتبين - كما يذكر الرافعى فى كتابه عن عصر إسماعيل - أن قرصناً ألقى على عاتق البلاد عبئاً جسيماً مقداره اثنان وثلاثون مليون جنيه، بلغ صافى ما تسلمته الحكومة منه نقداً أحد عشر مليون جنيه فقط، وليس فى تاريخ القروض، فى العالم قاطبة، قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة، بل هذه السرقة العلنية، كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد على مثل هذه الشروط، وقد رهن إسماعيل لسداد هذا الدين المشئوم ما بقى من موارد الإيراد التى لم تخصص كلها أو بعضها للقروض السابقة وهى:

أولاً: إيرادات السكك الحديدية وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه فى السنة.

ثانياً: الضرائب الشخصية والضرائب غير المقررة وقدرها مليون جنيه.

ثالثاً: عوايد الملح وقدرها ٢٠٠ ألف جنيه .

رابعاً : مليون جنيه من ضريبة المقابلة .

خامساً : كل الموارد التي خصصت للقروض السابقة متى أصبحت حرة، ومن تهكم الأقدار أن إسماعيل عقد هذا القرض المنحوس في نفس السنة التي حصل فيها على فرمان الجامع الذي يعد أقصى ما حصل عليه من المزايا، أو بعبارة أخرى: فإن إسماعيل قد بلغ أوج نفوذه الرسمي في علاقته مع تركيا، في الوقت الذي أشرفت فيه البلاد على حالة من الإفلاس أفقدتها استقلالها المالي ثم السياسي .

خلع إسماعيل

كان خلع الخديو اسماعيل وطرده من مصر، ثمرة مؤامرة خبيثة حبكتها إنجلترا، وهى فى ذروة مدھا الاستعماري، وسارت الدول الأوروبية فى ركابها وسايرتها دولة الخلافة العثمانية وكانت فى أضعف حالاتها، ولم يكن عزل اسماعيل بسبب عجزه عن تسديد الديون كما أشاعوا، لقد جعلوا من أزمة الديون حجة لتبرير خلعھ، وصوروه على أنه «أكلنجى» يعتزم عمل تفليسة ليتهرب من سداد الديون، ولم يكن هذا صحيحا، وأن الصحيح أن إنجلترا هى التى كانت تسعى إلى إعلان إفلاس مصر تمهيدا لاحتلالها والسيطرة على قناة السويس - مفتاح الهند - وهو ما حدث فى عهد توفيق، وكان الوزيران الأوربيان فى حكومة نوبار ثم توفيق يعدان مشروعا لإعلان أن مصر فى حالة إفلاس، ولكن.. زعماء الوطنية المصرية تحركوا.. وأعدوا مشروعا مضادا يكفل ضمان الديون وتسديدها من إيرادات الحكومة المصرية، وقدم هؤلاء الزعماء «اللائحة الوطنية» إلى «الخديو» إسماعيل وتضم بندين اثنين لا ثالث لهما : أولهما تسوية الديون الأجنبية على أساس أن الإيرادات تكفى المصروفات والوفاء بحقوق الأجانب،

وثانيهما: تعديل النظام البرلماني وتخويل مجلس شورى النواب السلطات المعمول بها في البرلمانات الحديثة، وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية بحيث تكون الحكومة مسئولة أمام المجلس النيابي - وليس أمام الخديو..

ولو أمعنت النظر في هذه «اللائحة الوطنية»، فسوف ترى فيها روحا جديدة على الحياة السياسية المصرية في سبعينيات القرن التاسع عشر، وأنها خطوة انتقالية في تطور البلاد، فالمجلس النيابي الذي رأى النور في عام ١٨٦٦، وولد بدون سلطات فعلية تعطيه حق المشاركة والرقابة على مقدرات البلاد، هذا المجلس الذي أراد به إسماعيل أن يكون مجرد ديكور يتباهى به أمام الدول الأوربية - إذا به يكبر وينمو ويبلغ درجة النضج.. ويطالب بتطبيق المبادئ الأساسية التي قامت عليها الحياة البرلمانية في أوربا وأولها مبدأ المسؤولية الوزارية، حتى تكون الوزارة مسئولة أمام ممثلي الشعب، وإذا بقيادة الشعب يتحركون لإجهاض المؤامرة التي كان يدبرها الوزيران العميلان - أحدهما انجليزى والثانى فرنسى - ويعلن قادة الشعب أن مصر قادرة على سداد الديون مع الحفاظ على كرامتها وسمعتها أمام العالم..

كان بطل هذه الحركة الوطنية هو: شريف باشا الذى ارتبط اسمه في تاريخ النضال بالنزاهة والشرف والتشبث بالدستور ورفض الهيمنة الأجنبية على مصر. أما أعوانه الذين شاركوه في إعداد اللائحة الوطنية فهم: إسماعيل راغب باشا، شاهين باشا، حسن باشا راسم، جعفر باشا، السيد على البكرى (نقيب الأشراف) الشيخ الخلفاوى، الشيخ حسن العدوى، وأعدوا عريضة أشبه بالذاكرة التفسيرية لللائحة وقع عليها عشرات من أعضاء مجلس النواب والتجار والأعيان والعلماء

والضباط والموظفين العاملين والمتقاعدين، كما وقع عليها شيخ الإسلام، وبطريق الأقباط وحاخام اليهود وحمل وفد من أحرار البلاد اللائحة الوطنية وذهبوا بها إلى قصر عابدين فقابلهم الخديو ورحب بهم، وأقر اللائحة وأمر بترجمتها وإرسالها إلى قناصل الدول الأجنبية وفي نفس اليوم (٧ أبريل ١٨٧٩) أمر بإعفاء ابنه (توفيق) من رئاسة الوزارة وتكليف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة وفقاً للمبادئ التي تضمنتها اللائحة الوطنية. وجاء في خطاب التكليف: إني بصفة كوني رئيس الحكومة ومصرياً، أرى من الواجب على أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية، لكنى لما نظرت السير الذي كانت عليه النظارة السابقة حصل لي غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الله والأهالي، حتى نشأ عنه اضطراب ونفور، سرى في جميع القلوب وحركها.. وزيادة على ذلك فإن النتيجة التي حررها ناظر المالية (الانجليزى) وأظهر بها أن القطر في حالة إفلاس، كانت سبباً في تغير قلوب الأمة.. لقد وكاتكم بتشكيل هيئة النظارة من أعضاء أهليين مصريين.. مكلفين بالمسئولية لدى مجلس الأمة الذي سيجرى انتخاب أعضائه وتعيين مأموريه بوجه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الأمة نفسها.. هذا ولعلمي بحسن إخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك في أن تستعينوا بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع.. إلخ..

وثيقة تاريخية هامة:

في رأى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن هذا الخطاب يعد من

الوثائق الهامة فى تاريخ الحركة القومية والحياة الدستورية فى مصر، لأن الخديو اسماعيل اعترف فى هذه الوثيقة بأن من واجباته اتباع رأى الأمة، وأنه لم يكن راضيا عن الوزارة المستقيلة لمخالفتها إرادتها، فهو يعلن أنه مؤيد لمطالب الأمة ممثلة فى نوابها تأييدا تاما، وأنه موافق على اللائحة الوطنية التى تقدمت بها، ومما هو جدير بالاعجاب: إشادة الخديو بمصريته ووطنيته. كذلك قرر اسماعيل فى كتابه مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب، وهو أساس النظام الدستورى الحديث، فهذا المبدأ العام الذى يعد قوام الدساتير قد تقرر إذن فى مصر سنة ١٨٧٩ بالوثيقة التى استجاب بها الخديو إسماعيل إلى الأحرار فيها إلى شريف باشا تأليف الوزارة على أساس هذه القاعدة وظاهر أيضا من وثيقة ٧ أبريل أن الخديو لم ينقض تعهداته للدول، فقد أشار فى ختام الوثيقة إلى إيجاد مصلحة تفتيش الإيراد والمنصرف، والمقصود منها نظام الرقابة الثنائية الذى تقرر فى مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦، ولو سلكت الدول الأوربية مسلك الاعتزال حيال مصر، لما اعترضت من جانبها على تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الأجنبى، ولكنها وقفت موقف التعنت وسوء النية وأعلنت رفضها لهذه الخطة الجديدة..

المثير للعجب والغرابة أن ترفض الدول الأوربية المسلك الجديد الذى سلكه الخديو اسماعيل، وهو ارتماؤه فى أحضان الشعب، وقبوله مبدأ المشاركة الوطنية فى إنقاذ البلاد من «الخية» التى تحببها انجلترا حول رقبة مصر، ربما يخيل إليك أن هذه الدول «المتحضرة» غضبت من إقصاء الوزيرين الأوربيين من حكومة شريف باشا، وكانا يقومان

بمهمة الرقابة والهيمنة على شئون البلاد، ولكن الحقيقة أن انجلترا - وتابعتها فرنسا - إنما توجست خيفة من التطورات السياسية التي جرت على مصر، وخشيت من تلك الروح الجديدة التي بدأت معالمها في تدفق الدماء الوطنية في شرايين الحياة المصرية، وظهور زعامات وطنية تتحمل المسؤولية، وتبدي استعدادها للمشاركة في تسوية أزمة الديون .. وكل هذا يدل على أن مصر تسير في طريق الاستقلال والتحرر من الهيمنة العثمانية . وتمضى خطوات بعيدة في الطريق الذي شقه محمد علي .. وهو بناء مصر الحديثة المستقلة عن تركيا وغير تركيا ..

عشم إبليس :

هذا هو السبب الحقيقي الذي أثار مخاوف انجلترا - أم الديمقراطية - وجعلها تسعى، منذ مشروع اللائحة الوطنية، إلى خلع اسماعيل وطرده من مصر، قبل أن يتحول إلى رمز وطني، وبدأت انجلترا تسابق الزمن قبل أن تتطور الحركة الوطنية في مصر إلى الدرجة التي تفسد خطتها الدفينة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس ..

بدأ وكلاء الدول الأوربية وقناصلها يتوافدون على قصر عابدين لإبلاغ اسماعيل احتجاجهم على اللائحة الوطنية، وهو يظهر لهم عدم الاكتراث، ثم تطور الاحتجاج إلى تهديد بالخلع والعزل وتعيين أخيه - وعدوه اللدود - مصطفى فاضل بدلا منه .. ولكنه قابل التهديد بعدم المبالاة .. فقد كان لديه أمل ضئيل في أن تقف الدولة العثمانية إلى جانبه، ولا تخذله في هذه اللحظات العصيبة، وقد تكالبت عليه انجلترا

وحرصت عليه كل أوربا، كان يتصور أن ملايين الدنانير الذهبية التي أغدقها على السلطان وحاشيته وأهل بيته سوف تعمل عملها حيث حانت لحظة الاستنجااد بالدولة العلية، وأوفد الخديو مندوباً عنه - طلعت باشا - إلى الآستانة محملاً بما أمكن جمعه من الأموال والتحف في تلك السنين العجاف. لعل هذه الرشاوى تفلح في إقناع السلطان عبدالرحمن بعدم الرضوخ لمطالب الدول الأوربية بعزل اسماعيل. وطالت إقامة طلعت باشا في استانبول، مما جعل الخديو يشعر بالقلق وأدرك أن عشمه في مساندة السلطان أصعب من عشم إبليس في الجنة، فبدأ يهيئ نفسه للرحيل. ويختار من حريمه أقربهن إلى قلبه، ويذكر كاتب سيرته - الياس الأيوبي - جمع من كل حريمه ما كان معهن من حلى ومصاغ، واستدعى عدداً من صائغي الأقباط وأقامهم بعابدين يشتغلون ليلاً ونهاراً في نزع الحجارة والفصوص الكريمة ليسهل نقلها والتصرف فيها، وجرّد سراي عابدين من كل ريشها الثمينة التي كانت ملكة الشخصى، لا ملك الحكومة، ومن آنياتها الذهب الخالص والمرصعة - وقدر ثمنها بـ ٨٠٠ ألف جنيه، ومن كل طنافسها القديمة، وأثاثها الفاخر، ولوحاتها ونجفاتها الفضية، ولم يبق لخلفه من الـ ٢٤ طاقم سفرة الفخمة الموجودة فيها سوى طاقمين، وكانا أقلها قيمة، وأرسل جميع ذلك - ما عدا نساءه - إلى الأسكندرية في صناديق مغلقة، حملت على ظهر اليخت «المحروسة» تحت حفظ حراس مؤتمنين..

وعاب الأيوبي على إحدى صحف الأسكندرية قولها إن اسماعيل بذل مجهوداً أخيراً لجمع أموال من الأقاليم، وأنه وضع يده على كل اللقود التي كانت موجودة في خزانة المالية، وقدرها ما بين

٢٠٠ و ٣٠٠ ألف جنيه، وغنمها لنفسه . وفات ذلك الأفاك - كاتب المقال كما وصفه الأيوبي - أن اسماعيل كان أدرى الناس بأنه لو فعل ذلك لعرض نفسه إلى حجز الدول والحكومة المصرية ذلك المبلغ من مرتبه السنوي، فلا يكون قد جنى من عمله سوى العار والسخط العام ..

قرار العزل :

وفي تلك الأثناء كانت الدول الأوربية قد نجحت في الضغط على السلطان عبدالحميد وأجبرته على إقصاء اسماعيل عن أريكة مصر، وتعيين ابنه (محمد توفيق) وفي صباح يوم ٢٦ يونية ١٨٧٩ أبرق سفير إنجلترا في الآستانة بأن الإرادة السلطانية قد صدرت بعزله، وفي ضحى نفس اليوم، تلقى زكى باشا «السر تشريفات» برقية محررة باللغة التركية ومرسله «إلى اسماعيل باشا خديو مصر سابقا، وكان زكى باشا جالسا في مكتبه بالدور الأرضي من قصر عابدين، وتصادف وجود خيرى باشا (المهمندار) حامل الأختام السنية، وعدد من كبار رجال القصر، وأسقط في يديهم جميعا، وعلا الاصفرار والاضطراب جباههم جميعا، وحاروا ماذا يفعلون (!!) وكل منهم يرفض أن يكون حامل البرقية المشثومة إلى الخديو وهو يتربع على كرسى العرش في الدور العلوى، وحاولوا إقناع خيرى باشا بالقيام بهذه المهمة لأنه حامل الأختام، إلا أنه رفض بإصرار .. وبينما هم يتجادلون دخل عليهم رئيس الوزراء شريف باشا، فسلموه البرقية، فتردد بعض الشئ، إلا أنه بصفته وزير مصر الأكبر، فمن واجبه أن يقوم بالتبليغ، ولم يكن بالرجل الذى يحجم عن مثل هذا العمل مهما كان شاقا ..

الإرادة الهمايونية.

حمل شريف باشا البرقية وصعد إلى الطابق العلوى، وفض البرقية وهو فى الطريق فإذا نصها: «إن الصعوبات التى نجمت أخيرا فى أحوال مصر الداخلية والخارجية، بلغت مركزا عسيرا، وقد ينتج عن استمرارها كما هى خطر لمصر والدولة العثمانية، ومن أهم واجبات الحكومة السلطانية إيجاد الوسائل لتقرير الطمأنينة والأمن والرفاهية بين الأهالى، وإنما صدرت الفرمانات لهذه الغاية عينا، فيما أنه قد ثبت أن بقاءكم فى منصب الخديوية لن يلجم عنه سوى مضاعفة الصعوبات الحالية، وزيادة خطورتها، فجلالة مولانا السلطان. بناء على تداول مجلس وزارته، قرر تعيين صاحب السعادة محمد توفيق باشا فى منصب الخديوية، وأصدر إرادته الهمايونية بذلك، وقد أبلغ هذا القرار السامى إلى سعادته بإشارة برقية على حدة، وعليه فإنى أدعوك إلى التخلّى عن شئون الحكم طبقا لأوامر جلالة السلطان»..

تقدم شريف باشا على استحياء من إسماعيل، وقدم إليه البرقية، فقرأها وكأنه يعرف ما فيها، أو يتوقع هذه النهاية، وبعد أن فرغ منها التفت إلى شريف وقال له: «أدع سمو توفيق باشا حالا». فخرج شريف باشا وامتطى مركبته إلى قصر الإسماعيلية (مكان فندق هيلتون حاليا) فوجد الأمير توفيق على وشك الركوب متجها إلى قصر عابدين بعد أن تلقى فرمان التكليف، فركب شريف إلى جواره، فلما وصلا إلى عابدين، توقف شريف بالدور الأرضى، بينما صعد توفيق إلى حيث كان أبوه فى انتظاره، عندئذ نهض إسماعيل وتقدم من ابنه - الخديو

الجديد - وانحنى فلثم يده وقال: «إني أسلم على أفندينا، ثم قبله على وجنتيه، وتمنى له أن يكون أوفر حظا وأكبر سعادة من أبيه وبعد ذلك انحنى أمامه ودخل إلى دائرة الحريم، تاركا توفيق يجلس على عرش مصر. ويبدأ حياة جديدة كانت وبالا وشوْما على البلاد والعباد..

أما اسماعيل فقد بدأ يتهيأ لمغادرة القاهرة في القطار الخاص.. الذى سيحمله إلى الأسكندرية حيث يستقل اليخت (المحروسة) ولكن إلى أين..؟ كان اسماعيل يأمل أن يقضى بقية أيامه فى الاستانة، إلا أن عبدالحميد السلطان غليظ الفؤاد حرم عليه أن يقيم فى أى بلد من ممتلكات الدولة العثمانية. وشاء القدر أن يعيش إسماعيل طريداً شريداً فى العواصم الأوربية التى طالما شهدت أيام عزه ومجده..

الساعات الأخيرة في حياة إسماعيل

في صباح يوم ٣٠ يونية ١٨٧٩ نهض الخديو المخلوع إسماعيل من نومه بعد آخر ليلة قضاها في قصر عابدين، القصر الذي بناه إسماعيل وجعل منه تحفة معمارية ومقرا للحكم بعد أن ظلت القلعة المقر الرسمي لحكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبي، هبط إسماعيل إلى الطابق الأرضي فوجد في انتظاره جمع غفير من الأمراء والوزراء والكبراء والتجار والأعيان، جاءوا لتوديع أميرهم الوداع الأخير بعد أن عاشوا في كنفه سبعة عشر عاما كانت أشبه بزلزال هز مصر من أعماقها ونقلها إلى مشارف المدينة الحديثة، ثم هبط بها إلى هاوية الدمار والوقوع في براثن النفوذ الأجنبي، وها هو إسماعيل يطوى صفحته الأخيرة بخيرها وشرها، ويستعد لمغادرة البلد الذي أراد أن يجعله قطعة من أوربا. فإذا بأوربا تتآمر عليه، وتجمع كلمتها على إقصائه ونفيه من مصر، بعد أن استشعرت الخطر من تصاعد النزعة الوطنية والتفافها حول إسماعيل..

عندما حانت الساعة الحادية عشرة، جاء الخديو الجديد - محمد توفيق - ليصحب أباه إلى مثواه الأخير، وليس في هذا الوصف مبالغة أو

خطأ، فقد كتبت نهاية اسماعيل الحقيقية يوم غادر مصر، وسوف تصبح السنوات التي سيعيشها اسماعيل في المنفى، مجرد محطة انتظار لليوم الذي يغادر فيه الدنيا بأسرها، وصافح اسماعيل ضيوفه فردا فردا.. ثم غادر القصر متوكئا على ذراع ابنه توفيق، واستقل الاثنان العربة الخديوية ومن خلفها عربات الأمراء والكبراء. وقطع الموكب شوارع القاهرة وقد خيم عليها صمت حزين بعد أن كانت تضج بالصخب في أيام اسماعيل، ولم يكن هناك من مراسم الوداع الرسمي سوى صفين من الجنود اصطفوا على الجانبين، أما الناس فكانوا بين حزين على نهاية العاهل الذي فرط في الأمانة، ولم يحافظ على السفينة من العواصف والأنواء، وبين شامت في الرجل الذي جر البلاء على البلاد وجعلها رهينة للمرابين والأفاكين وشذاذ الأفاق..

وحين بلغ الركب محطة العاصمة، ترجل اسماعيل إلى الرصيف حيث يقف القطار الذي سيحمله إلى الاسكندرية، بينما وقفت عربات مسدولة الستائر تنطلق منها صيحات البكاء والنحيب من بعض النسوة لعلهن بقايا الحريم اللاتي قرر اسماعيل تركهن في مصر، بعد أن أنقذ منهن من تصلح لمرافقته في حياته الجديدة، ولكن المفاجأة كانت في انطلاق الزغاريد من بعض جوانب المحطة، قيل أنهن من حريم اسماعيل المفتش جنن يبدن الشماتة والتهكم على الرجل الذي قتل سيدهن غيلة، ووجد اسماعيل على رصيف القطار عددا من كبار المودعين، فقال لهم: إني، وأنا تارك مصر أعهد بالخديو، ابني، إلى ولائكم وإخلاصكم. وعندئذ تقدم توفيق فقبل يد أبيه، عندئذ قال له اسماعيل وهو يجهش بالبكاء: كنت أود يا أعز يا البنين، لو استطعت أن

أعالج بعض المصاحب التي أخشى أن تسبب لك ارتباكاً، على أنى
وائق من حزمك وعزمك، وأوصيك بإخوتك، وسائر آل برآ.. فاتبع
رأى ذوى شورك، وكن يا بنى أسعد حالا من أبيك..

الطائر الشريد يبحث عن عش:

وحانت لحظة الرحيل، فصعد اسماعيل الى عربته الخاصة، وترك
القطار ليشق الطريق وسط المزارع المترامية فى دلتا النيل، وأخذ
اسماعيل يتطلع إلى الأرض الخضراء تتخللها المساقى والطرق والقرى
والمدن، ويملاً عينيه من مناظرها عساها تخفف عنه لوعة الفراق حين
يقضى ما تبقى له من عمر فى بلاد الفرنجة، لقد كان يود أن يمضى
أيامه الأخيرة فى بلاد العثمانيين أو فى أى بلد شرقى، وبعث إلى
السلطان عبد الحميد يستعطفه حتى يسمح له بما يريد، ولكن السلطان
رفض أن يسمح له بالإقامة فى أى أرض من ممتلكاته، فإلى أين
يذهب الطائر الشريد؟ وفى أى عش يجد السكن والراحة النفسية؟ وعلم
ملك إيطاليا «أرمبرتو» بقرار السلطان. فبعث إلى إسماعيل يبدى
استعداده لقبوله ضيفاً على إيطاليا وتخصيص قصر فخم يقيم فيه يقع
فى أرقى ضواحي مدينة نابولى، وقبل إسماعيل العرض من هذا العاهل
شاكراً له وفاءه لذكرى أبيه الملك فيكتور عمانوئيل الذى كانت تربطه
بالخديو مودة حميمة، ولعل اسماعيل والقطار ينهب الأرض قد جاشت
على خاطره ذكريات الأيام الخوالى عندما كان يهبط العواصم
الأوربية، فترتج المجتمعات، وتلبس المدن أحسن حللها، وتبدى أجمل
زينتها، وتتهياً لاستقبال العاهل الشرقى الذى يذكرهم بملوك ألف ليلة

وليلة حيث ينثر عليهم القناطير المقتطرة من الذهب والفضة، ترى.. كيف تستقبله هذه المجتمعات بعد أن زال عنه المجد، وجفت من يده الأموال.. وصارت خزينته خاوية إلا من الذكريات (!!).

غروب ليس له شروق:

أفاق اسماعيل من غفوته على عجالات القطار وقد توقفت عن صريرها الرتيب، فعلم أنه قد بلغ الاسكندرية، وركب اسماعيل وصحبه عربات مقفولة أقلتهم إلى الترسانة، ومنها حملتهم القوارب إلى داخل البحر حيث ترسو «المحروسة»، وقد ازدحم سطحها بجمع من ذوى المقامات الرفيعة، وتمالك إسماعيل نفسه ليظهر أمام مودعيه رابط الجأش، فأخذ يلاطفهم واحداً واحداً.. ويداعبهم بعبارات الود لعلها تذيب جبل الشجن الذى تراكم على قلبه، وكان من الصعب عليه أن يواصل تمثيل دور البطل الذى لا تهزه المحن، فترك مودعيه، وأوى إلى غرفته فى جوف السفينة، وعندئذ غادرها المودعون، ورفعت المحروسة مراسيها وبدأت تمخر العباب بينما السفن الراسية فى الميناء، والمدافع المنصوبة على طابية كوم الناضورة تطلق مدافعها تحية لخدو مصر المخلوع، وهو يغادر أرض مصر للمرة الأخيرة، وبينما كانت الشمس تلقى بنفسها عند حد الأفق حيث تختلط زرقة الماء بزرقة السماء، كانت شمس اسماعيل تسقط فى الغروب الذى يؤذن بليل أبدى ليس له شروق (!!).

وعندما حطت المحروسة رحلها على رصيف ميناء نابولى، لم يهبط اسماعيل، وظل قابعا فى جوفها خمسة عشر يوما، كان الأمل

يراوده بأن تسمح حكومة مصر ببقاء المحروسة فى حوزته، فهى آخر قطعة يشم منها ثرى مصر، ويتمنى أن يقضى فيها بقية عمره، ولكن الحكومة المصرية رفضت، وهددته بأن تقطع عنه راتبه السنوى إذا استولى على السفينة..

وعادت المحروسة إلى مصر، ونزل اسماعيل فى القصر الذى تحيط به الحدائق البديعة، وعلى البعد منه يبدو بركان فيزوف الذى تهدر النار من قمته، ولكن.. كل هذه المناظر الخلابة والحياة الرخوة، لم تفلح فى إخماد الحريق الذى يتفجر فى قلب اسماعيل حينما إلى وطنه، وكلما سمع عن أحداث الثورة العرابية التى أخذت بخناق ابنه توفيق وتكاد تعصف بعرشه، راوده الأمل فى العودة إلى مصر، وبعث بالمكاتبات إلى ولده يستعطفه، ولكن توفيق كان صارما فى رفضه عودة أبيه إلى مصر، فلجأ اسماعيل إلى الحكومات الأوربية مبدىا الندم على ما بدر منه، معلنا استعداداه لتنفيذ كل مطالبها إذا سمحت له بالعودة إلى بلده، وكان موقف الدول الأوربية لا يقل صرامة عن موقف الابن الذى رأى فى عودة أبيه ضياعا لعرشه، فازداد به تشبثا خاصة بعد أن انحاز إلى إنجلترا انحيازاً مخزيا وسمح لهم باحتلال مصر لضمان بقائه فى مقابل إخماد الثورة..

صدود وجحود ونكران :

أخذ اسماعيل يتردد على العواصم الأوربية التى تعرفه جيدا، وتذكر إسرافه وسفهه وإنفاقه الأموال على تواقه الأمور بغير حساب، ولكن.. شتان بين زيارته السابقة، وزيارته لها وهو مخلوع خاوى الوفاض، لقد وجد أبواب الفنادق الفاخرة موصدة فى وجهه لأنه لا يستطيع الوفاء

بنفقاتها، فكان يقيم في أحقر الفنادق، وكان يطرق أبواب الوزراء والكبراء ورجال المال والبنوك الذين طالما تمرغوا في كرمه، فلا يجد إلا الصدود والجحود. وارتأى اسماعيل أن يستعطف السلطان عبدالحميد ليسمح له بالإقامة في قصره - الأمركون - الذي اشتراه على ضفاف البوسفور، وجعله مقراً ومأوى كلما اقتضته الظروف الحج إلى كعبة السلطنة العثمانية ووافق عبدالحميد، وفرح اسماعيل، وما درى أنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد كانت إقامته في قصره أشبه بحياة العصفور في القفص، أحاط به الجواسيس من كل ناحية، وضيقوا عليه الخناق حتى اعتلت صحته، وتكاثرت عليه العلل والأمراض..

لقد ظن إسماعيل أنه سيجد في كنف السلطان ما بخل به الزمان ومن بره وعطفه ما يرد إليه بعض هناء الماضي، ولكنه انتقل في الحقيقة من سجن إلى سجن، ومن منفى واسع الرحاب إلى معتقل ضيق الجباب، ولو علم إسماعيل أن حياته في الآستانة خير من مقامه في نابلي لما طلب هذه الأمنية، ولما استبدل القيد بالحرية.. فقد عاش في تركيا ما تبقى له من عمر وهو معذب النفس، منهوك القوى، عليل الجسد، فاقد الأمل، لا يطمئن إلى الحياة، ولا تطمئن الحياة إليه، ولا يسالمة الدهر، ولا يستسلم إليه، حتى أنه طلب من السلطان أن يسمح له بالسفر إلى مدينة (إمس) المشهورة بمياهها المعدنية، فكان رد السلطان: «عندك في الأناضول مياه (بروصة) المعدنية تستطيع أن تذهب إليها للعلاج.. وقد سبق لك - أيام كنت خديو مصر - أن استشفيت فيها، وأعلنت وقتها أنها أفضل من حمامات أوديا بأسرها..»

ثلاثة أمراض وثلاثة أحزان:

وعندما جلس عباس الثانى - أبى توفيق - على عرش مصر ١٨٩٢ ، ذهب لزيارة جده فى منفاه ، وتجددت مساعى اسماعيل للعودة إلى مصر ، ولكن تصرف عباس لم يكن أفضل من تصرف أبيه ، فتجاهل مطلب جده ، إلى أن جاءت التقارير الطبية تقول أن الحالة الصحية للخديو اسماعيل بلغت حد الخطر ، وبينما كان الخديو عباس يشهد حفلا بدار الأوبرا تلقى برفقة تنذر بسوء الحال ، فاستدعى أعمامه واستشارهم ، واستقر الرأى على أن يسافر الأمير أحمد فؤاد والأمير ابراهيم حلمى ليكونا بجانب والدهما ريثما يسعى عباس لعودة جده إلى مصر ، وفى صباح الغد استدعى عباس مجلس الوزراء وباحثهم فى الأمر ، فأجمعوا على عدم الموافقة ، خشية أن تجر عليهم عودة اسماعيل أزمة سياسية ، فعارضهم الخديو عباس معارضة شديدة ، ثم اضطر إلى النزول على رأيهم ، وسافر الأميران إلى استانبول وبعثا ببرقية تحوى قرار الأطباء بأن اسماعيل مصاب بالالتهاب الرئوى ، والسرطان المعوى ، ومرض الاستسقاء ..

لقد اجتمعت على الخديو اسماعيل ثلاثة أمراض ، كما تحالفت عليه ثلاثة أحزان : حزنه على ضياع عرشه ، وحزنه لخيبة مسعاه ، وحزنه لفراق وطنه .. لكن أحزانه كانت أشد إيلاما على نفسه من أمراضه ، فعاد الخديو عباس يجتمع بالوزراء مرة ثانية ، وثالثة ، ولكنهم أصروا على رفضهم عودته إلى مصر ، واحتجوا بمعارضة الإنجليز ورفض

السلطان، وأصدروا قراراً بانتهاء البحث في هذا الأمر.. بينما كان اسماعيل يسير حثيثاً نحو نهايته المفجعة..

ألحان الغروب:

للأستاذ طاهر الطلاحى كتاب عنوانه (ألحان الغروب) تناول فيه بأسلوب أدبى شيق وبيديع، اللحظات الأخيرة فى حياة المشاهير، ومنهم الخديو إسماعيل، وما لاقاه من عنت وقسوة وهو يعانى سكرات الموت، حتى أن الخديو عباس ساءه موقف مجلس الوزراء منه ومن حده، فبعث بسر دار الجيش المصرى الأسبق «محمد راتب باشا» إلى الأستانة ليكرر الرجاء فى عودة إسماعيل رفقا بصحته، فلم يظفر بالقبول، وقست الأقدار على الخديو اسماعيل، وهو على فراش الموت، وعيست له فى أيامه الأخيرة بعد ما ابتسمت له عهداً زاهياً، واستسلم إسماعيل، ويئس من رجوعه إلى مصر حتى فى أيام سقمه، واستوت عنده الحياة والموت، بل كان الموت أهون على نفسه، وأشوق إلى قلبه من حياة عزل فيها عن عرشه، وحرم فيها من وطنه، وعانى فيها أشد الآلام..

وفى ١٧ يناير ١٨٩٥ تلبته إسماعيل من إغماء طويل أصابه، فاستدعى نجليه الأميرين أحمد فؤاد وإبراهيم حلمى، وقال وهو يطارده عن نفسه الألم: «إذا مت فأدفنوني فى مصر، مقر جدى وأبى، ومواطن آلأمى وأحلامى، الذى عشت له، وتمنيت سعادته، وحرم على العودة إليه،..

ولما انصرف الأميران بعثا بهذه الوصية إلى مصر، فأعد الخديو عباس قبراً فخماً لجده فى مسجد الرفاعى، ومكث المريض العظيم

يعانى الآلام الفظيعة عدة أسابيع، وفى يوم ٢ مارس ١٨٩٥ لفظ النفس الأخير، فصعدت روحه إلى السماء تشكو عالم الأحياء الذى لا يرحم شيخا فى شيخوخته، ولا مريضا فى مرضه، ولا محتضرا على فراش موته.. مات اسماعيل بعدما قضى ستة عشر عاما فى منفاه، وإذا كان الموت يحل المشكلات، ويذلل الصعاب، فقد حل موت اسماعيل تلك المشكلة الكبرى، والصعوبة العظمى التى تحطمت عندها جهود الأمراء. وتخاذلت أمامها مساعى العظماء، فما كاد يذيع نعيه فى البلاد، حتى سمح السلطان بنقل جثمانه إلى مصر، فعاد فى موكب حافل، ليس أشد إيلا ما من موكب خروجه من وطنه، هذا الخروج الذى طوى آخر صفحة من حكمه، كما طوى الموت آخر صفحة من حياته فى هذه الدنيا.

الفهرس

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٧ | محمد على فى معيار التاريخ |
| ١٩ | مصر قبل محمد على |
| ٣٣ | مصر الحديثة |
| ٤٩ | أولادنا فى باريس |
| ٦١ | مذبحة المعاليك |
| ٧٣ | أتباع سان سيمون فى مصر |
| ٨٩ | تأسيس الجيش المصرى |
| ٩٧ | سليمان الفرنساوى ديئامو الجيش |
| ١٠٩ | ابراهيم اللبراوى |
| ١١٧ | عباس الأول |
| ١٢٥ | سعيد باشا والثورة العرباية |
| ١٣٥ | من أجل جمال عيون فرنسا |
| ١٤٥ | تطور الحياة البرلمانية فى مصر |
| ١٤٧ | مجلس شورى النواب |
| ١٦١ | نائبان مشاغبان |
| ١٧٣ | الفلاح الفصيح |
| ١٨٧ | الأزمة المالية |
| ١٩٩ | مجلس الأعيان |
| ٢١١ | نكبة القروض |
| ٢٢٣ | الخديو القلجى |
| ٢٣٥ | القرض المشئوم |
| ٢٤٩ | خلع إسماعيل |
| ٢٥٩ | الساعات الأخيرة |

رقم الإيداع - ٩٩/١٠٣٠٢

I.S.B.N. 977 - 01 - 6313.9



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
- للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مز
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر و
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina



0395903



٢٠٠ قرش

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩